أوشو

OSHO

أسرار الحياة

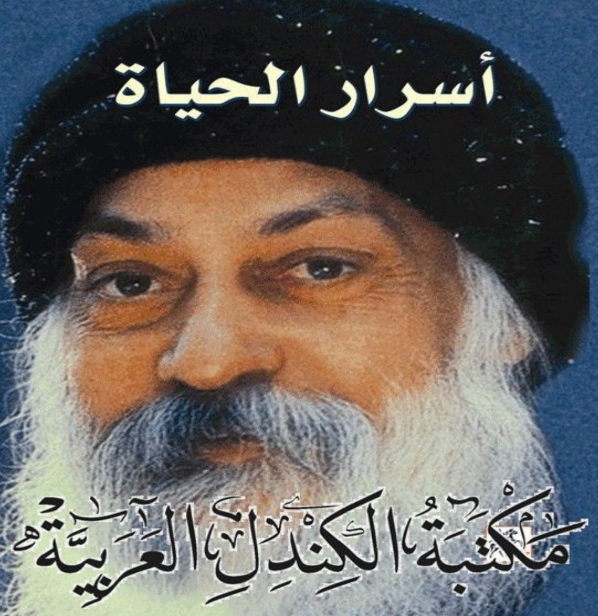

مكتبة الكندل العربية

أوشو

أسرار الحياة

ترجمة: **د. علي حداد**

دار الخيال

للطباعة والنشر والتوزيع

Life's Mysteries

أسرار الحياة

تأليف: **أوشو**

ترجمة: **د. علي الحداد**

Copyright 1995 osho international foundation.
www.osho.com
All rights reserved

© حقوق الطبعة العربية محفوظة للناشر

دار الخيال **للطباعة والنشر والتوزيع**

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 – شارع الكويت

المنارة – بيروت – 2036 6308

لبنان – تلفاكس: 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني **دار الخيال** للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2012

Osho علامة تجارية مسجلة، عائدة إلى مؤسسة أوشو الدولية، لا يجوز إستعمالها إلا بإذن خاص من المؤسسة الأم.

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات دون إذن خطي من الناشر.

المقدمة

إنها الشمس تشرق وتغرب، إنها الزهرة تتفتح وترسل عطرها فيِ كل الاتجاهات، إنها ترسل العطر تلقائياً، ثم تذبل ويتوقف العطر عن التدفق.

يقف الشرقي أمام شروق الشمس وغروبها متأملاً جمال المشهدين، فيستوحي قصيدة شعر أو يتذكر جمال حبيبته وإشراق عينيها. ويقف الغربي متسائلاً، لماذا تشرق الشمس من الشرق وإلى أين تذهب بعد الغروب؟ من يدور حول الآخر، هي أم الأرض؟.. ثم يتسائل أيضاً عن كيفية تكوّن العطر، ولماذا تذبل الزهرة ولمَ تتفتح في هذا الشهر وليس في غيره؟

إنهما، الشرق والغرب، لكلٍّ اهتماماته، كما دماغ الإنسان، الأيسر يهتم بالعلم والحسابات والمحسوسات والمادة، واليمين يهتم بالفنون من شعر ورسم وغناء، ويهتم بالتأمل، بل بالروح التي هي أساس كل شيء،

وليس الجسد كما يدعي الغرب.

إنهما النقيضان اللذان لا يلتقيان، ولهذا ما عرف الغربي الاستراحة والسعادة بسبب تجاهله للروح التي اتخذت من الجسد وعاء. والشرق أيضاً بسبب إهماله الجسد الذي يحتضن الروح.

إنها الحياة، تساؤلات وتساؤلات... إنها الحياة أسرار وألغاز، تتطلب تركيزاً، والإنسان إما تائه في صحراء الفكر الغربي، إما في حدائق الفكر الشرقي.

في صحراء الفكر، لا شيء سوى الجماد، رمال لامتناهية و إنسان دائم التساؤل . وفي حدائق الفكر، أشجار خضراء وعصافير تغزو جداول مياه تنساب هنا وهناك، والإنسان مستغرق في النظر إليها مأخوذاً بجمالها وغير آبه بمكنونات المياه ولا إلى رنين الذهب.

هذه هي الحياة، مستمرة بين شرق وغرب، شرق المسيح وبوذا ومحمد، وغرب أرسطو وغاليله وبرتراند راسل. والمؤسف أن لا الشرق وصل إلى

السعادة المرجوة، ولا الغرب كذلك.

السبب واضح وبسيط: تجاهل كل منهما للآخر، فلا الروح وحدها توصل إلى ما يريد الإنسان ويشتهي، ولا الجسد قادر على هذا...

ولكن ماذا على الإنسان أن يفعل إذاً؟ أن يعيش بين نقيضين...

عليه أن يتعلم كيف يحول الحقد حباً، عليه أن يتعرف إلى فن الحياة، إلى إحداث توازن في علاقاته مع نفسه ومع الآخرين، أن يميز بين الأنا المغرورة والذات المتواضعة. عليه أن يتعلم الإبداع، أن يضحك، أن يكون متواضعاً، أن يكون نقياً.

عليه وعليه وعليه...ألهذا السبب يصرخ الطفل عند ولادته، لأن عليه مواجهة تساؤلات وصعاب؟ أم أنه يبكي حزناً على الأحياء الذين سبقوه والذين خسروا براءتهم وذاتهم طمعاً بكسب المال والجاه والسلطة والتطلع إلى الخارج؟

إنها الحياة، أسرار وألغاز تصدى لها الفيلسوف الكبير أوشو، فما عادت أسراراً ولا ألغازاً... لقد أعطى الحلول وفكّ الرموز...

الفصل الأول: فن الحياة

الحياة قصيرة، الطاقة محدودة، جد محدودة. وفي الوقت ذاته علينا فعل الكثير، وتحقيق إنجازات لا عدّ لها ولا حصر... إذ بالرغم من محدودية الطاقة، مطلوب منا بلوغ اللامحدود الذي لا نهاية له، ومع أن الحياة قصيرة، فعلينا العمل كي نبلغ الخلود، حيث نتعرف إلى عظمة الخالق... إنها مهمة صعبة، وتحدٍّ كبير... إذاً نحن مدعوون للاهتمام بما هو مهم والتخلي عما هو غير مهم.

هكذا وجدنا أنفسنا أمام سؤال يتطلب جواباً. ما هو غير المهم، وما هو المهم؟

غير المهم هو ذاك الملازم للجسد ويخدم غاياته، هو ذاك الذي، ما إن يطل الموت برأسه، حتى تراه يهوي ويتلاشى، حتى يرحل مع رحيل الجسد. أما المهم، فهو الملازم للروح، هو الذي يساعدك في مسيرتك نحو

بلوغ الخلود... إنه الذي يعصى على الموت، ويتغلب عليه... هذا هو المعيار لما هو مهم وما هو غير مهم.

المال مفيد جداً، طالما روحك تسكن جسدك. إنه وسيلة بيع وشراء الحاجات وحسب، الحاجات المادية، وأصحاب النفوس المريضة، لكنه لن يفيد روحك ولا يغنيها. كذلك السلطة والنفوذ والجاه... ولماذا كل هذه الأمور الدنيوية؟ فلماذا تمضي أيامك المعدودة على هذه الأرض، تشقى وتتعب للحصول على مثل هذه الأشياء التافهة... حياتك هنا، أشبه بالخان، أيام زمانٍ، يرتاده الناس مساءً، وصباحاً يصلون.

تذكر، دائماً وأبداً، أن المهم، هو ما كان ملازماً لروحك ويبقى كذلك بعد انعتاقها من سجن الجسد. هذا يعني، باستثناء التأمل والوعي لا شيء مهماً، فالموت لا يقوى على الوعي، والوعي رفيق الروح وصديقها.

التأمل والوعي، عصيان على الموت، وكل ما عداهما يتهاوى أمام جبروت الموت، يتهاوى، لأنه

مستعار من الخارج وغير نابع من ذاتك... في حين يمنحك التأمل الهدوء والسكينة، يجعلك تشعر بالسلام الداخلي، أما الوعي، فيحولك إلى إنسان محب، معطاء متسامح، ولا شيء يقوى على هذه الأمور، التي هي جوهر الوعي ووجوده.

الحب والعطاء، يبقيان معك إلى حيث رحلت، وأينما حللت... إنهما ثروتك الحقيقية، والتأمل يزيدك ثراء.

اختيار الحياة بعيشها

وجاء من يقول: سمعت أن تلاميذك يعيشون الحياة بكل مباهجها...أيجوز هذا؟

نعم... إنهم كذلك، إنهم لا يتنكرون للحياة، بل يستمتعون بها، يعشقون جمالها... لذا أنا هنا لأدعوك إلى وليمة الحياة، أنا هنا أدعوك للتمتع بها، وليس إلى الهرب منها... الحياة مسرح جمال، ولماذا نحاول

الابتعاد عن الجمال؟ لماذا عندما نرى الجمال، تنتعش نفوسنا وتحيا؟ كيف يحق لك تجاهل الحياة، وهي هدية الله؟ فهل لك أن ترفض مثل هذه الهدية؟

لا تكن سلبياً متشائماً، بل كن إيجابياً متفائلاً... الحياة نعمة، فلماذا نحولها إلى نقمة؟ بالنسبة لي، الحياة والله واحد، إنما الله لا نراه، لا نتحسسه، إنه موجود في كل مكان، وحيث الحب والعطاء والتسامح. أما الحياة فهي تدعوك إلى التمتع بها. أنظر إلى الأشجار، أغصانها مع الريح تتمايل، تزورها العصافير، إما في مواعيد حب، أو لبناء أعشاشها. أنظر إلى الغيوم السابحة في الفضاء. أنظر إليها وهي تتخذ أشكالاً شتى... أوجد الله هذه الغيوم، وحمّلها قطرات ماء، تتحول مطراً يروي الأرض، فتتفجر الينابيع من باطنها. أنظر إلى النجوم كيف تسطع في كبد السماء، لتمزق عتمة الليل الحالكة.

أنظر حواليك، إلى الحدائق الغنّاء، أصغِ إلى زقزقة العصافير، إلى خرير المياه التي تنسابِ جداول وسواقٍ وأنهاراً. كل هذه هي الحياة، بل رقصة الحياة. فلِمَ

ترفض الإصغاء إلى موسيقى الخلود التي تدعوك للرقص... هذه هي الحياة، تفعل كل شيء من أجلك، فافرح بها وارقص معها. إنها الوجود، والوجود كله هو رقصة الحياة.

أنا هنا لأعلمك كيف تحيا الحياة.

أنا هنا لأعلمك فن عيش.

أنا هنا لأعلمك كيف تنتشي بلقاء الدائم الخلود، عبر عيشك هذه الحياة... أنا هنا، ليس لأهرب، بل لأفرح. في ما مضى، كان رجال الدين، يحثون أتباعهم على الهرب من الحياة، ويدعونهم لعدم التمتع بها. كانوا يعلمون «الهيبية»، أي الهرب، ولكن إلى أين؟ كانوا يطلبون منهم عدم مواجهة التحدي، تحدي عيش الحياة... وحدهم الجبناء يفعلون هذا... وحدهم الجبناء يهربون إلى أعالي الجبال، إلى الكهوف والمغاور أو ليستوطنوا الصوامع، وبحجة التفرغ لعبادة الله.

ولكن، حتى ولو هربت إلى أعلى قمة في جبال

همليا، حتى لو انعزلت عن العالم كله، ماذا ستفعل بنفسك، وكيف ستتعامل مع ذاتك؟ أنت جزء من هذه الحياة، إنها تجري في دمك، بل تتنفس من خلالك. إنها كينونتك الخاصة، فإلى أين ستهرب؟ هروبك هو فعل انتحار... كل الرهبان، كل ما نسميهم نساكاً، كل هؤلاء يحاولون الانتحار تدريجياً وببطء، ليس هذا وحسب، بل هم جبناء أيضاً... جبناء غير قادرين على مواجهة الحياة، وفي الوقت ذاته، لا يرغبون بالانتحار حتى الموت... إنهم يحاولون التخلص من أنفسهم، لكنهم لا يرغبون بالموت، ولا بالحياة... فمَ الذي يرغبون به إذاً؟

المؤسف أن هناك من يحترم أمثال هؤلاء المريضي العقول، هؤلاء المجانين الذين هم أعداء الله، لأنهم أعداء الحياة التي هي هبة الله لنا.

أنا أحب الحياة بكل جوارحي، وأدعو الآخرين للتمتع بها. أدعو الآخرين لعيش الحياة كما يجب... بالنسبة لي، لا شيء تافهاً أو مبتذلاً. كل الأشياء عندي مقدسة. كل شيء في الحياة، هو مقدس عندي من الجسد

إلى الروح، من المادي إلى الروحاني، من الجنس إلى التعفف... كل شيء خالد ومقدس، لأنه جزء من الحياة.

التقى راهب هندوسي متقدم بالسن بممثل يلعب دور هاملت، في مسرحية هاملت لشكسبير. انشرحت أسارير الراهب، وأخبر الممثل، أنه سبق له ولعب هذا الدور أيام شبابه.

ما كان رأيك بهاملت؟ سأل الممثل... أتعتقد أنه مارس الحب مع أوفيليا؟

بالنسبة لهاملت، لست أدري إن كان فعل ذلك، أجابه الراهب، وتابع: «أما أنا، فقد فعلت ذلك».

إنها الحياة، فلماذا لا تتمتع بها... يوم تأتي إلى هذه الحياة، تكون كأولئك المدعوين إلى عشاء راقص، بمعنى أنه علينا مشاركة الآخرين احتفاليتهم هذه، أن نشاركهم الفرح وأن نراقصهم. هكذا، يكون بمقدورنا أن نصبح أثرياء روحياً... أن نمتلك ثروة، نقدمها لله ساعة الحساب.

ذات يوم، عاجلاً أم آجلاً، ستجد نفسك وجهاً لوجه أمام ربك، ستجد نفسك في حضرته وسيسألك سؤالاً واحداً فقط: «هل عشت حياتك بكليتها أم لا؟».

أتعرف لماذا سيسألك هكذا سؤالاً؟.. لأن الحياة هبة منه، هو من أهداك فرصة عيشها، لتعيشها، لتحتفل بها، وليس لتتجاهلها، لأن تجاهلك لها يعني أنك ترفضها... وهل يحق لك أن ترفض هدية الله؟

أتباعي... تقبلوا هدية الرب، تقبلوا الحياة بفرح، وكذلك يتقبلون الموت... نعم، إنهم يتقبلون الموت بفرح، لأن الموت لا يعني انتهاء الحياة، بل هو انتقال إلى حياة أخرى، حياة أسمى وأكثر خلوداً... هكذا، إن كنت عشت حياتك بفرح، إن عشتها لحظة بلحظة، إن عصرتها وجعلتها كأس شراب، فالموت، في هذه الحال، ليس إلا قمة الإحساس بالفرح، إنه النشوة المطلقة.

ما الهدف من الحـيـاة؟

لا هدف للحياة سوى ذاتها... الحياة هي الاسم الآخر لله. لكل ما في هذا الكون هدف. وكل ما في هذا الكون إلى زوال، إنما يبقى شيء واحد لا بداية له ولا نهاية. شيء واحد لا هدف له إلا ذاته:

سمّه الوجود إن شئت

سمّه الله إن شئت

أو سمّه الحياة إن شئت.

ثلاثة أسماء، هي أسماء لحقيقة واحدة، حقيقة وجودك على هذه الأرض، حقيقة عيشك للحياة.

الله هو الإسم الذي أطلقه اللاهوتيون على الحياة، لكنهم ما عرفوا أن هناك كثيرين أفرغوا كلمة الله من معناها الحقيقي. حولوها من كلمة تعني الحب والفرح والأمل، إلى كلمة تعني الخوف...

كثيرون هم الذين لا يعترفون بوجود الله ولا يؤمنون به: الشيوعيون، البوذيون، اليانييون، إضافة إلى مئات آلاف المفكرين الملحدين. هؤلاء يطالبونك بإثبات وجود الله، ويدّعون أن الله مجرد كلمة اخترعها الإنسان، هو كلمة قد كان بالإمكان استبدالها بأي كلمة أخرى.

ما فكروا أن وجودي، ووجودك، ووجودهم هو أهم برهان على وجود الله. نحن، من أوجدَنا ولماذا وُجدنا؟ كل هؤلاء الذين أنكروا وجود الله، عجزوا عن التنكر للحياة... التي هي الوجه الآخر لله... فكيف يكون ذلك؟

هناك من قال نحن وجوديون... هل هذا يعني أنهم ينكرون وجود الله؟ إذا كان جوابهم نعم، فهذا يعني أنهم ينكرون الحياة... الوجود بحد ذاته لا يعني الحياة، بقدر ما يعني الموت... لا يعني الوعي، بقدر ما يعني اللاوعي..

على الرغم من إصرارهم على وجوديتهم، لم

يتمكنوا من إنكار الحياة. الحياة تعني كل شيء، ولا تحتاج إلى برهان... أنت كائنٍ حي، كذلك أنا وهو وهي... أوليس هذا برهاناً ساطعاً على الحياة؟ منذ آلاف السنين، لم يتمكن أحد، مفكر، فيلسوف أو أي إنسان عادي، من إثبات عدم وجود حياة... الحياة هي نبض قلبك، هي حرارة أنفاسك، الحياة هي التي تُرى في عينيك وتتمثل في كل شيء. ما من أحد تمكن من إنكار الحياة علناً. الحياة تدعوك للاحتفال بفرح، تدعوك لتشارك الطيور تغريدها، والأشجار اخضرارها وتزهرها، والأنهار انسيابها نحو المحيط.

الحياة، بحد ذاتها، هي هدف كل شيء، والحال هذه، لن يكون لها أي هدف غير ذاتها، بكلمة أخرى، هدف الحياة، هو منها وفيها ولها. هدفها الأسمى، أن تجعلك سعيداً، أن تزرع الابتسامة على شفتيك والإشراق في عينيك. هدفها أن تراك واعياً لذاتك، فترقص وتغني... هدفها أن تراك عاشقاً ومعشوقاً في آن... هذه هي الحياة.

ولكن ما الذي يحدث في أيامنا هذه؟ إن الذي يحدث مستغرب ومستهجن. كثيرون، ودون تكليف من أحد أو من جماعة، أخذوا على عاتقهم، مهمة التحدث باسم الدين والديانات، نصّبوا أنفسهم أولياء عليك، وبدلاً من تعليمك فن عيش الحياة، راحوا يعلمونك كيف تموت ويحرضونك على الموت، لأن فيها خلاصاً من عذاباتك على وجه الكرة الأرضية، كذلك راحوا يسألونك الهرب من الحياة، ويصوّرون الله خالق الحياة وكأنه عدو لها. راحوا يسألونك التنكر لحياتك على هذه الأرض، طمعاً في الحياة الآخرة... يفعلون هذا، وهم لا يعرفون أنهم ـ بفعلهم هذا ـ يطلبون منك الموت وأنت حي، يطلبون منك أن تنتحر ببطء.

أمثال هؤلاء يحترمون الموت ويقدسونه، وفي الوقت ذاته يلعنون الحياة... طالما الأمر كذلك، فلماذا خلق الله الحياة، لماذا خلق البشر؟ إنها ليست مصادفة، أن يكرم الشرفاء بعد وفاتهم، ولا أحد يكترث بهم وهم على قيد الحياة. أثناء حياتهم يرجمون بالحجارة، نتهمهم

بتسميم أفكار الناس، وما إن ينتقلوا إلى العالم الآخر، حتى يصبحوا أنقياء، نطوبهم قديسين، نتضرع لهم، ونسألهم التشفع بنا... ترى، لماذا هذا التغيير؟

الجواب يتطلب نوعاً من التحليل النفسي. وانطلاقاً من السؤال بحد ذاته، لماذا لا نثق بهم أثناء حياتهم ونعترف بقدسيتهم بعد الموت؟ السبب، هو أن الموت يحول، دون تغير هذا الناسك، أو ذاك المتعبد... بعد الموت لا أحد يرقص، لا أحد يفرح، لا أحد يغضب. بعد الموت تنتفي العلاقات الاجتماعية، وتنقطع العلاقة مع الوجود. بعد الموت تنتفي إمكانية اقتراف إثم، أو ارتكاب جريمة.

الإنسان الحي، قد يغيّر سلوكه، قد يتحول من إنسان متدين إلى آخر ملحد، من إنسان محب للحياة، إلى آخرٍ هارب منها. كذلك، فالإنسان الحي قد يكون مجرماً ويتوب، أما بعد الموت، فلا مجال أبداً لمثل هذه التحولات، ولهذا ترى البشر يتعبدون للموتى، الحاضر يقدس الماضي، هذا ما يريده منتحلو صفة رجال الدين،

والدين منهم براء. إنهم يجبرون الأحياء على عبادة وتقديس الموتى، وهكذا، لا بد من التساؤل، ما هو هدف الحياة؟

استناداً إلى تعاليم هؤلاء، لا هدف للحياة، والمطلوب منك ومني، التنكر لها، وألا يكون لك أي هدف، إلا تعذيب نفسك، أملاً بجنة موعودة بعد الموت. هؤلاء لا يحرفون هدف الحياة وحسب، بل إنهم يشوهون الصورة الحقيقية للألوهة... الحياة هي الوجه الآخر لله... وهي هبة منه.

الحياة هي الحياة، هي الفرح، هي الفناء، هي المحبة، هي التسامح، هي الاحتفال الدائم بما أعطاه الله، ولكن المشكلة تكمن في المخلوقات البشرية.

ها هي الحيوانات لا دين لها ولا رجال دين بينها. إنها تعيش حياتها حرة، لا شيء يقيدها إلا حب الاستمرار في الحياة، كذلك هي الأشجار، وهي النجوم أيضاً. كل هذه لا تهتم إلا بالحياة، وحده الإنسان ومع

اهتماماته، نسي الوجود الذي يقدس الحياة، نسي الخالق الأوحد، وراح يبتدع آلهة خاصة به، فشوّه صورة الله الحقيقي، فجلب التعاسة لنفسه، وتناسى أهمية الحياة التي هي هبة الله.

الحياة الكل بالكل

الحياة هي الفرح، هي المحبة والله محبة

لذا أنا هنا، لأعلمك كيفية الاحتفاء بكل لحظة من لحظات حياتك بذاتها دون التفكير باللحظة الماضية، أو تلك الآتية. الحاضر وحده هو الحقيقة، أما المستقبل، فلست أنت من يصنعه. فلا تترك الخيال يسيطر عليك. المستقبل تخيلات وأحلام، أما الماضي فهو آثار أقدامك على الرمل، هو مجموع ذكرياتك التي قد تكون ذكريات سعادة، أو ذكريات حزن.

اللحظة الحاضرة، هي وحدها الحقيقة، وما عليك إلا

عيش هذه اللحظة، بدون أي توتر، بدون أي تفكير في المستقبل، بدون خوف، بدون ترداد لما حدث في الماضي، كل ما عليك أن تفعله هو أن تعيش هذه اللحظة بنقائها، غير مثقل بالذكريات... هذه هي البراءة.

حين تتحول حياتك إلى لحظات، حين تكون حياتك مهرجان أضواء، تصبح كل لحظة، أغلى ما في الوجود، لأنها، إن ذهبت فلن تعود. لذلك أنا أدعوك لتعيش هذه اللحظة بفرح. لتشارك الآخرين الحب، الصمت، والسلام الداخلي، دع حياتك تنال بركة الخالق. الحياة بحد ذاتها، هي المعيار، وكل ما عداها تافه وأشبه بنفاية. على كل فرد أن يجد حياته بنفسه أن يسعى إليها باستقلالية عن الآخرين، كل ما عليه هو الإصغاء لصوت ينبع من داخله، يحدد له مسيره ومساره.

الحياة والوعي أشبه بالسماء، تعبرها الطيور، دون أن تترك آثاراً خلفها. هكذا أنت، إن عشت حياتك بعمق

وبصدق، لن تترك أي آثار أقدام وراءك، وهكذا لن يتبعك أحد، فكل واحد يمضي إلى حيث يقوده صوته الداخلي.

لهذا السبب، أشدّد على ضرورة ممارسة التأمل الذي يساعدك على سماع ذاك الصوت الخافت الصادر من داخل ذاتك، ذاك الصوت الذي هو وحده يرشدك إلى حيث يجب أن تذهب. إصغ إليه واتبعه، كن على ثقة أن الله الذي خلقك، لم يفعلَ ذلك كي يجعلك رهينة ماضيك أو مستقبلك، لقد خلق الله الإنسان ليتنعم بما أعطاه... إياك أن تثق بأحد، إلا بنفسك. عليك أنت أن تجد طريقك، ومتى وجدتها، سر عليها، فلن تقودك إلا إلى ميناء الأمان والسلام. إفعل ذلك، دون التساؤل عما إذا كان هناك آخرون يسيرون خلفك، فلكل فرد خصوصيته، ولكل فرد طريقه.

منذ القدم، منذ آلاف السنين، والكل يتساءل: لماذا أتيت؟ سؤال مميز... ومنذ آلاف السنين حاول الكثير الإجابة على هذا السؤال، إنما، للأسف، ما من أحد

أعطى الجواب المقنع، وهكذا بقي السؤال يتردد ويتردد.

جوابي: هدف الحياة، هو الحياة بحد ذاتها ولا شيء غير ذلك.

إثبات وجودك ككائن حي

أيمكنك التحدث إلينا عن كيفية إثبات وجودك ككائن حي؟

فن عيش الحياة بكاملها، وبشغف، ليس أمراً صعباً ولا مستعصياً، لكنه أصبح مستحيلاً، مع أنه بسيط جداً ولا ضرورة لتعلمه، وليس بحاجة لمساعدة أحد.

يولد الطفل، ويولد معه حب الحياة، يولد معه إحساس عجيب غريب يشدّه إلى عيش الحياة. الأشجار تحيا من تلقاء ذاتها. كذلك الطيور والحيوانات... وحده الإنسان، ذروة قمة الكائنات الحية، يبحث عمن يعلّمه

كيف يعيش الحياة. منذ القدم والإنسان يعلم معاداة الحياة، ولهذا السبب، أصبح بحاجة لمن يعلمه فن عيش الحياة.

منذ القديم القديم، ورجالات الدين يتخذون موقفاً عدائياً من الحياة... بالنسبة للمسيحية يولد الإنسان حاملاً خطيئة عصيان آدم وحواء لأوامر الله، فإذا كان آدم وحواء قد عصيا أوامر الله، فما علاقتي أنا، بالموضوع، وما علاقتك أنت؟ هذا أولاً أما ثانياً، فأحياناً، قد لا يكون العصيان خطيئة، بل فضيلة. غير أن كل الثقافات، ومنذ قرون وقرون، لا تسمح بالعصيان، وتوجب الطاعة العمياء، التي هي أقرب إلى العبودية...

لست أدري، من جعل الحكمة خطيئة؟ ومن قال إن التطلع نحو الخلود الأبدي هو خطيئة أيضاً؟ ومن قال إن الله طلب من آدم وحواء عدم أكل ثمار شجرتي المعرفة والرغبة في الخلود؟

ولست أدري لماذا يسعى رجال الدين هؤلاء لا إلى خلق عداوة بيني وبين الحياة وحسب، بل ويجعلنني أخاف الله... أنا لا أنكر أن علي عبادة الله حباً به، وليس خوفاً منه. إن آدم وحواء، هما أول مؤسسين للحركات الثورية في العالم، ولولا فعلتهما، لما كنا وصلنا، إلى ما وصلنا إليه من حضارة وتقدم علمي، بل، من يدري، فقد كنا ما نزال نسير عراة في جنة عدن، نمضغ الأعشاب، لأننا لم نتمكن من التعرف إلى العلكة.

ليست المسيحية وحدها(1) جعلت من الحياة، مرحلة شقاء وعذاب، وعلى المرء التنكر لها، بل هناك الهندوسية واليانية والبوذية... ولكل ديانة سببها الخاص الذي يفرض عليك العذاب عقاباً عما ارتكبته في حياتك الماضية قبل حياتك هذه. والأنكى أن هذه الديانات تحاول إقناعك أنك أنت وحدك مسؤول عن كل ما يصيبك من عذاب وعن كل ما تعاني من ألم جسدي أو نفسي، لأنك فعلت في الماضي ما لم يكن عليك فعله، أما إذا تساءلت، والحال هذه ماذا أفعل كي أتخلص من

عذابي وألمي؟ فالجواب بسيط وواضح، كل ما عليك هو الصبر، من يدري، قد تتحسن حالك في حياتك المستقبلية... أي منطق هو هذا؟ تخطئ اليوم وتعاقب في حياة لاحقة.

إن ارتكب أحدهم جرماً في هذه الحياة، فسيُعاقب في هذه الحياة وليس في حياة لاحقة. هكذا يقضي المنطق. فلو وضعت إصبعك في النار، فستشعر فوراً بحرارة النار وليس في حياة لاحقة. لكل جرم عقابه. هذه المسافات بين حياة وأخرى، هي مهزلة من ابتداع أولئك الذين يسألونك تعذيب نفسك، من يدري، حتى في الحياة القادمة، قد تصادف أحد رجال الدين الذين يسألونك تعذيب نفسك، فهل يعقل هذا؟ متى إذاً سترتاح من العذاب؟ ومتى تنام دون إحساس بوجع أو ألم؟ المضحك المبكي، أن هؤلاء الرافضين لعيش الحياة يصبحون قديسين تتعبد إليهم... ولماذا؟ ماذا فعلوا كي نعبدهم...

هربوا إلى رؤوس الجبال. امتنعوا عن رؤية

الجمال، امتنعوا عن التلذذ بما أعطاهم الله. الله الذي حولوه إلى قاضٍ صارم في أحكامه، ليس في قلبه شفقة ولا رحمة. أماً أولئك الذين أحبوا الحياة، فهم مدانون، لا أحد يحترمهم.

منذ الصغر ونحن نتربى على مواجهة الحياة، على عدم التمتع بها، منذ الصغر وهم يقولون لنا: لا تفرحوا، لا تتمتعوا بشيء في هذه الحياة، ممنوع الغناء، ممنوع الرقص، ممنوع عزف الموسيقى. لا أحد سيعتبرك مؤمناً بالله، ولماذا؟ لأنك تغني، لأنك ترقص، لأنك تعزف الموسيقى...

الحياة تتطلب منك أن ترقص وترقص حتى تختفي ولا يبقى سوى الرقص. هكذا يفرح الرب ويباركك. كذلك إذا أمسكت الناي ورحت تعزف، فانسَ نفسك، ولكن تذكر أنك تعزف... إنسَ كل شيء فلا يبقى إلا صوت الناي. وحتى لا تصبح أنت العازف ولا المغني، بل المستمع المنتشي. وهكذا تكون الناي بين شفتي الله وليس بين شفتيك.

إن أحببت، فأنت مدان... كيف يكون هذا والله محبة، والمحبة هي الله.

قيل لك، كما قيل لي ولغيري: الحب هو نزعة حيوانية. غير أني راقبت الحيوانات فما وجدتها تعرف الحب... الحب هو إحساس إنساني. الحيوانات تنزع نحو الجنس وليس نحو الحب. راقب الحيوان وهو يمارس الجنس مع ابن جنسه، يمارسه بدافع الشهوة، وليس بدافع الاشتياق، يمارسه لأنه ضرورة بيولوجية، مجبر على تنفيذها.

ولهذا فالحيوان لا يمارس الحب طوال السنة، ولا تفجيراً لعواطف وانفعالات، بل هناك مواسم معينة لممارسته الجنس قضاءً لحاجة بيولوجية، دون أن يدري من هو شريكه في هذه العملية. الصدفة وحدها تجمع بين الذكر والأنثى، وتطلب الحاجة إليهما أن يمارسا الجنس، تماماً كمن يشهر مسدسه بوجهك ويقول لك: «إفعل كذا أو كذا». أنظر إلى عيني الحيوان وهو يمارس الجنس، فلا بريق فيها ولا إشراق.

الحيوانات لا تعرف الحب، وكذلك ملايين البشر... إنه لمؤسف أن أقول هذا، لكنها الحقيقة. الحب بحاجة إلى ذات مستنيرة، إلى قلب خافق دائماً، إلى عينين مشعتين مشرقتين... الحب بحاجة إلى توق للخلود، وكل هذا لن يكون إلا من خلال التأمل بعمق، إلا من خلال الاختلاء مع الذات والإصغاء إلى صوت النقاء الذي يتردد في داخلك.

أرأيت، جئت تسألني عن «كيفية إثبات وجودك ككائن حي». حتى تفعل ذلك، ما عليك إلا البدء بممارسة التأمل، وهكذا تتعرف إلى نبع حياتك، كما ويمكنك أن تنهل من ذاك النبع... أية تجربة هي هذه؟ أية تجربة تشعرك أنك تمتلك كل شيء، أنك ثري جداً، حتى يصبح بمقدورك أن تحب العالم كله، وأن تملأ العالم كله بحبك.

في جسدك الصغير، هناك بذور ملايين الأزهار التي تنفث العطر في كل الاتجاهات.

فن عيش الحياة، يبدأ بممارسة التأمل. أدخل غرفتك، إجلس وحدك، وسط صمت مطبق، هكذا تصل إلى مركز كينونتك وستتعرف إلى الكنز الذي هو حقيقتك، ولحظة تتعرف إليه، تتفجر ذاتك حباً وتصبح عاشقاً للحياة، حتى كلماتك تتحول إلى قصائد، حتى صمتك سيصبح أغنية، حتى ولو كنت جالساً دون حراك، ستشعر وكأنك ترقص أنفاسك لتدفئ وجنات المغرورين، وكل نبضة من نبضات قلبك، هي كنز وثروة، لأنها نبضة قلب الوجود بذاته... لا تنسَ أنت جزء منه.

متى عرفت أنك جزء من الوجود، ومتى بدأت تعيش حياتك بكليتها، دون خوف أو وجل، ومتى بدأت تحب الحياة بدلاً من أن تهرب منها، ستشعر أنك مولود جديد ليس بحاجة ليتعلم شيئاً، لأن كل الأشياء ستنبعث منك بعفوية.

كفى ما تعلمته من أكاذيب، حوّلت حياتك من إيقاع راقص، إلى مسيرة نحو القبر... وما استمرارك حياً،

إلا لأنك عاجز عن فعل شيء. فعلوا كل شيء لإتعاسك، لكنهم لم يحدثوك عن الانتحار لماذا؟ لأنه إذا كانت الحياة تعاسة ومآسٍ، فكيف سيكون الموت؟ ولأنهم يخافون الموت.

فبدلاً من التركيز على تعلم فن الحياة، ركز على المكان الذي تتغذى منه حياتك... أدخل إلى أعماق أعماق ذاتك، بحثاً عن جذور حياتك، وفجأة ستكتشف ما يسميه المتصوفون التنور، اليقظة، أو اختبار الألوهة، الذي بعده لن تكون أنت أنت، بل إنساناً جديداً.

هكذا لا تعود مهتماً إلا بما تقوم به... إذا كنت ترقص، فهذا يعني أنك ترقص، وإذا كنت تغني، فهذا يعني أنك تغني، وإذا كنت تصغي، فأنت مجرد أذنين فقط. وهكذا تصبح كل لحظة بركة ونعمة...

إنتبه عليك أن تكون في لحظة الحاضر... لا تفكر بالماضي، فالذي مضى قد مضى، ولا تفكر بالمستقبل، فأنت لست بصانعه. مارس التأمل، فالتأمل لا يسيء

إلى الماضي الذي راح وولى، ولا يزعج المستقبل الذي لم يأتِ بعد... التأمل يركز على الحاضر، يهتم بما فيه، يملأ كأسه من عصير اللحظة الحاضرة. حياة المتأمل، ليست حياة متسول. فهو ما طلب المزيد يوماً، وبالرغم من هذا، يعيش حياته إلى ما لا حدود. كُنّ مثله، فابحث عن نور ذاتك دون خوف، ولماذا الخوف؟ إنه الوجود ونحن جزء منه.

إنه الوجود لا يريدك تعيساً شقياً، يريدك مشاركاً في الحب، في الغناء، في الرقص، في كل ما تفعله وما لا تفعله.

1. الحقيقة أن حكاية عصيان آدم وحواء لأوامر الله، ليست تراثاً مسيحياً ولا جزءاً من اللاهوت المسيحي، إذ لم ترد لا في الأناجيل ولا في أعمال الرسل، بل وردت في سفر التكوين النوراني عند اليهود ـ المترجم.

ما هي الانفتاحية؟

كثيراً ما تتحدث عن العقل المنفتح، وعن تقبل اقتراحات الآخرين ومناقشتها.

فما هي الانفتاحية؟

الانفتاحية، هي حالة اللاعقل، حين تكون خالياً من الأفكار كلياً، حين يكون وعيك غير مشغول بالتفاهات، حين لا تعكس المرآة شيئاً، هذه هي الانفتاحية. إنها المدخل إلى الألوهة...

عقلياً، أنت بعيد جداً عن الكينونة، الجوهر، عن ذاتك. كلما فكرت أكثر، كلما ابتعدت أكثر، والعكس صحيح. أما حين تمتنع كلياً عن التفكير، فهذا يعني أن تمر بلحظات يؤكد الجوهر فيها ذاته بكليته.

الانفتاحية، تعني التخلي عن كل التفاهات التي تملأ رأسك. عن حمل كبير لا فائدة من حمله. التفكير يعني الماضي، والماضي، لا ضرورة له في اللحظة

الحاضرة... فالذي حدث قد حدث، ليس بمقدورك التحكم به مجدداً، ولن يحدث ثانية.

حتى لو اعتقدت، أو شعرت، أن الظروف هي ذاتها، فاعلم أن الظروف ليست هي ذاتها. كل صباح هو صباح جديد، وشمس كل صباح هي شمس جديدة، هي جديدة، ليس بالمعنى المادي، بل بالمعنى الجمالي والإحساس بعظمة الخالق. ففي كل صباح، تتلقى من جديد، بركات الله ونعمه.

إذا استمريت متعلقاً بالماضي، فهذا يعني، أنه لن تكون قادراً على رؤية ما هو جديد، لأن غشاوة سميكة تغطي عينيك وتمنعك من رؤية ما يستجد أمامك... إنها الصورة ذاتها... فيما هناك آلاف الصور الجديدة.

استمرارنا هكذا يعني افتقادنا للحياة... لقد تحول الماضي إلى سد منيع يحُول دون انتعاشنا بفيض نور الحياة... إنه الماضي يحيط بك ويقلقك بدقائق الموت، وكلما استمريت راضياً بهذه الحال، كلما اقتربت أكثر

من حالة الجمود... الموت. ستصبح أكثر انفلاتية، وشيئاً فشيئاً ستغلق جميع النوافذ والأبواب ولن يتمكن النور من الدخول إلى معبد ذاتك. التعلق بالماضي يعني اجتثاثاً لوجودك وهكذا تفقد أي تواصل مع الحياة. ستفقد التواصل مع الأشجار، مع النجوم ومع الجبال ومع الأنهار ومع كل ما هو جميل... لن تتمكن من التواصل مع أي شيء، لأن جداراً سميكاً، أشبه بجدار الصين يحيط بك... هذا الجدار هو ماضيك نعم إنه ماضيك، يمنعك من التواصل مع كل ما في الحياة، ومن مشاركة الآخرين الحب والتسامح.

إن أردت أن تكون انفتاحياً، فما عليك إلا أنٍ تعود طفلاً من جديد.

تذكر ماذا قال المسيح لتلاميذه: ما لم تكونوا كالأطفال، فلن تتمكنوا من دخول ملكوت الله. هذه هي الانفتاحية. الطفل انفتاحي، لأنه لا يعرف شيئاً، لأنه غير متشبث بشيء. المتقدمون في السن هم أبعد ما يمكن عن الانفتاحية، لقد تعلموا الكثير، وحفظوا

الكثير، حتى أصبحوا أسرى لما تعلموه. وأغلقوا جميع النوافذ والأبواب، فكيف سيدخل النور إذاً؟ هكذا ما عليهم إلا الولادة من جديد، عليهم إماتة الماضي، ودفنه والعودة أطفالاً من جديد، ليس في الجسد، بل في الوعي الذي لا بد ويكبر، إنما دون أن يفقد براءته.

هكذا يتعلم المرء، وهكذا يتعرف إلى الحقيقة التي تقدمها لك حياتك في كل لحظة. وهكذا يتعرف إلى الضيف الذي قد يطرق بابك كل لحظة، يوماً بعد يوم، عاماً بعد عام، لكنك محاصر بأحاديثك الداخلية، ومنهمك بالأفكار التي تبعدك عن الإحساس بالراحة، وهكذا لن تتمكن من سماع النقر على الباب، وهكذا لن يتمكن الضيف من الدخول.

هل تسمع صوت خرير المياه؟ هل تسمع زقزقة العصافير؟ إن كنت كذلك، فأنت إذاً في حالة الانفتاحية. إنها حالة التواصل مع الصمت والصمت المطبق. لا أحد يتحرك، لا شيء يهتز. أنت لست نائماً، بل ما تزال واعياً يقظاً... أنت في حالة وعي كلي... حيث يلتقي

الصمت مع الوعي ويمتزجان معاً حتى يصبحا واحداً. هناك تكون الانفتاحية.

الانفتاحية هي أهم صفات الإنسان.

عد طفلاً، إبدأ حياتك من جديد، لا تجعل التفاهات والمعوقات تتراكم في عقلك وحولك، وهكذا سيأتي الصمت من تلقاء ذاته مصحوباً بوعي كبير، هكذا تتحول الحياة إلى نعمة.

هل العفوية تنسجم مع الحرص والتنبه؟

في الغرب، نتعامل كثيراً مع الأمثال والحكم والتحذيرات: «لا تقف هنا... إفعل شيئاً». أما بوذا فقال: لا تفعل شيئاً... قف هناك. الرجل غير الواعي ينفعل في حين أن الرجل الحكيم يراقب. ولكن ماذا عن العفوية، هي هي منسجمة مع الحرص والتنبه؟

نعم قال بوذا: لا تفعل شيئاً... قف هناك. هذه ليست بداية رحلة الحياة ولا هي النهاية. حين تتعلم كيف

تقف، حين تتعلم كيف تلتزم الصمت، حين تتعلم ألا تتحرك، ألا تزعج أحداً حتى نفسك، حين تتعلم كيف تجلس فقط، كيف تجلس صامتاً، لا تفعل شيئاً، حينذاك سيأتي الربيع وينبت العشب من تلقاء ذاته، إنتبه لن ينبت العشب وحسب، بل وسينمو أيضاً.

الفعل لا يختفي ولا يمكنك إخفاءه... العشب ينمو وحده، إنه فعل عظيم يحدث، ولكن، ليس هناك فاعل... لقد اختفى الفاعل واستمر الفعل وحين لا يكون هناك فاعل، يكون الفعل عفوياً، لن يكون إلا كذلك. إذاً هو الفاعل من لا يسمح بالعفوية أو التلقائية.

الفاعل يعني الأنا، والأنا تعني الماضي، حين تتصرف، فأنت تنطلق من الماضي، أنت تتصرف وفقاً للخبرات التي اكتسبتها في ما مضى. وبناءً للنتائج التي توصلت إليها في الماضي والحال هذه، كيف يمكنك القول، إنك تتصرف بعفوية؟ إنه الماضي يسيطر عليك، وبسبب الماضي، أنت لست قادراً على رؤية الحاضر... لقد وضع الماضي حاجزاً دخانياً كثيفاً أمام

عينيك، فاستحالت الرؤيا... أنت لست قادراً أن ترى، لقد أصبحت أعمى، أعمى بسبب الحاجز الدخاني، أعمى بسببب الاستنتاجات، وبسبب ما تعلمته.

الرجل العارف، هو الأعمى الحقيقي، لأنه يتصرف وفقاً لما يعرف، إنه لا يحاول معرفة الحالة أو القضية. إنه يبدأ بالتصرف ميكانيكياً... لقد تعلم شيئاً. شيئاً أصبح نوعاً من المسلّمات، مسلّمات تفرض وجودها على تفكيره وتصرفه، دون الأخذ بعين الاعتبار ما قد يطرأ.

في إحدى مدن اليابان، كان هناك معبدان متقابلان، لكنهما متخاصمان. الحقد يسيطر على قلوب الرهبان، حتى وصل الأمر إلى حد الامتناع إلى النظر لبعضهم البعض... منذ قرون والرهبان على هذه الحال، حتى تحية الصباح لا يلقيها كاهن هذا المعبد على كاهن المعبد الآخر.

ليس هذا وحسب، بل انتقل العداء إلى الصبية العاملين في المعبدين. كان الكهنة يخشون قيام علاقة

صداقة بين هؤلاء الصبية. لذا كانوا يرددون دائماً اسمعوا أيها الصبية، نحن على عداوة مع المعبد الآخر، ومع كل من يعمل فيه، فلا تتحدثوا إلى الصبية العاملين فيه، إنهم يضمرون لكم العداء، إنهم أشبه بالوباء فتجنبوا التحدث إليهم... لكن هذه المواعظ، كانت تثير تساؤلات داخلية لدى الصبية، لماذا علينا ألا نتحادث؟ ماذا لو التقينا وجهاً لوجه. أيعقل ألا نتكلم؟

وصادف ذات يوم أن التقى صبيان في الطريق. أراد أحدهم أن يتعرف إلى الآخر، فسأله: إلى أين أنت ذاهب؟

كان الصبي الآخر يصغي كثيراً إلى المناقشات الفلسفية التي تدور داخل المعبد. فكر قليلاً قبل أن يجيب: ذاهب؟... لا أحد يأتي ولا أحد يذهب... إنها الريح تأخذني إلى حيث تريد.

كان هذا الصبي قد سمع معلمه يردد ما كان بوذا يقول: «أنا مجرد ورقة شجر يابسة تتقاذفني الرياح

وتأخذني إلى حيث تشاء». فتابع الصبي، مجيباً سائله: «ما هذا الذي تقوله؟ أنا لا آتي ولا أذهب. الريح هي التي تأخذني حيث تشاء».

صدم الصبي الآخر. وجد نفسه عاجزاً عن إكمال الحديث فقال لنفسه: «معلمي على حق، هؤلاء بشر خطيرون جداً»... سألته مجرد سؤال بسيط «إلى أين أنت ذاهب؟» فماذا كان جوابه؟

عاد الصبي وأخبر معلمه بما جرى معتذراً منه لعدم سماع نصيحته بالتكلم مع صبية المعبد الآخر. فما كان من الكاهن إلا أن قال: «أولم أقل ذلك سابقاً؟... إنهم قوم شريرون..». إسمعني، إنتظره غداً واطرح عليه ذات السؤال، وحين يجيبك بما أجابك به اليوم، قل له: «إنها الحقيقة، أنت مجرد ورقة شجر يابسة، وكذلك أنا، ولكن، ماذا لو كانت الريح هادئة؟ أيعني هذا أنك ستكون عاجزاً عن الحركة؟» فقط قل له هذا، فلا شك سيصدم وهكذا يشعر بالهزيمة... إعلم إنهم أعداؤنا ولا بد من أن تتغلب عليهم، وهذا ما سيحدث غداً.

باكراً خرج الصبي لينتظر عدوه، رغبة في القضاء عليه متسلحاً بما لقنه إياه معلمه. وما إن أطل الصبي الآخر حتى سارع إلى سؤاله: «إلى أين أنت ذاهب؟» متوقعاً سماع ما سمعه أمس. لكن الصبي أجاب: «إلى حيث تقودني رجلاي»، ولم يشر إلى الريح ولا إلى أي كلمة من كلمات جواب الأمس.

عاد الصبي وأخبر معلمه بما حدث. نظر المعلم إلى صبيه وقال: «أرأيت، لماذا سبق وطلبت منك عدم التحدث إلى أي من أولئك... إنهم جد خطرون. الحقد يملأ قلوبهم. أما وقد حصل ما حصل، فما علينا إلا التفوق عليهم. لذا، إن أجابك غداً: «إلى حيث تقودني رجلاي» قل له: «ماذا لو لم يكن لديك رجلان؟» فلا شك لن يقدر على الإجابة.

وفي اليوم التالي سأله مجدداً: «إلى أين أنت ذاهب؟».

وبدون تردد، أجاب الصبي الآخر: «ذاهب إلى

السوق لأشتري بعض الخضار».

إنها الحياة تتغير من يوم لآخر لذا على الإنسان ألا يحضر هو الأسئلة والأجوبة، بل عليه انتظار الأسئلة أولاً، ومن ثم يفكر بالإجابة.

طالما ردد بوذا: «تعلم كيف تجلس صامتاً». غير أن بوذا لم يكن يعني الجلوس صامتاً إلى ما لا نهاية، وإلا لكان يطلب منك ألا تكون عنصراً فاعلاً... على العكس هو يريدك صامتاً، لأنه من الصمت تتبعث الأفعال، بغياب الصمت والتأمل، كل ما تفعله هو ردة فعل وليس فعلاً.

قد يقدم أحد على إهانتك، أو على استفزازك، فتسرع أنت محاولاً إشباعه ضرباً. محاولتك هذه، ليست فعلاً نابعاً من ذاتك، بل هي ردة فعل على الإهانة والاستفزاز.

بمقدور أي إنسان أن يستفزك فيجعلك غاضباً وتعيساً، ثائراً ميالاً للعنف. كذلك بمقدور أي إنسان، أن

يمدحك ويثني عليك، فتشعر بأنك الأعظم، أنك الاسكندر الكبير، أنك امرؤ فريد من نوعه... ماذا تسمي هذا فعلاً؟ أم ردة فعل؟... إنه ردة فعل.

كثيراً ما كان بوذا يتعرض للإهانات أثناء مروره في إحدى المدن، وكثيراً ما كان ينعت بأسوأ النعوت، لكنه، كان يبقى محافظاً على هدوء أعصابه ويستمر بالإصغاء إلى ما يقال باهتمام كلي، ومن ثم يتوجه نحو الذين يشتمونه ويوجهون الإهانات له ويقول «شكراً على تحملكم مشقة الحضور لملاقاتي. أنا اليوم في عجلة من أمري. عليّ الوصول إلى المدينة التالية، أهلها بانتظاري... سأعود غداً، فانتظروني، فقد يكون المزيد من الوقت، فانتظروني، سأكون على استعداد لسماع ما قلتموه اليوم وما نسيتم قوله الآن... تذكروا إن كنتم نسيتم قول شيء، غداً يمكنكم قوله، أما الآن، فاعذروني، لقد حان موعد الرحيل.

لم يصدق أولئك الناس ما سمعوه. كانوا يتوقعون رؤيته غاضباً، مشمئزاً على الأقل. لكنه بقي محافظاً

على هدوئه... تقدم أحدهم منه وقال: «يبدو أنك لم تسمع ما قلناه... لقد أهناك، لقد شتمناك، وأنت التزمت الصمت ولم تجب».

ابتسم بوذا وقال:«إن أردت جواباً، فتعالَ في ما بعد، بعد عشر سنين، أكون خلالها تخلصت من تأثير خارجي... أنا لست عبداً، أنا سيد نفسي، وأتصرف انطلاقاً من أني سيد نفسي وليس انطلاقاً مما يريده الآخر... أنا أتصرف وفقاً لاحتياجاتي الذاتية، وليس بمقدور أحد فعل أمر... إن أردت الحقيقة أهنئك على ما قمت به، لقد فعلت كل شيء باتقان، ولكن، طالما أنا لم أهتم لإهاناتك واستفزازتك، فهذا يعني أني سيد نفسي، وأن كل ما فعلته أنت هو أمر تافه لا قيمة له.

حين يستفزك أحد، فما عليك إلا الإصغاء وتقبل ما يقول، وإلا ماذا بإمكانك أن تفعل؟ أن تشعر بالسعادة وهو يرى ردة فعلك؟

إسمع... إذا أقدم أحد على رمي مشعل في النهر...

سيبقى مشتعلاً حتى لحظة ملامسته وجه المياه... في تلك اللحظة ينطفئ. فلماذا لا تكون نهراً يطفئ نار المشعل؟ كن كذلك واعلم أن صمتك سيكون أقوى من جميع أبواق سيارات وشاحنات العالم. صمتك سيحول ذاك الضجيج إلى موسيقى هادئة. أتعرف لماذا؟ لأنك تصرفت انطلاقاً من حقيقة جوهر طبيعتك.

هذه هي العفوية... الرجل اليقظ المتنبّه، يتفهم الأمور ويتصرف بناء لاحتياجاته الداخلية، أما الرجل اللاوعي، فيتصرف ميكانيكياً، يبدي ردة فعل.

الرجل اللاواعي يبدي ردة فعل، بينما الرجل الحكيم يراقب. أرجوك، عدم إساءة الفهم... فالمراقبة لا تعني التفرج والتلهي، بل محاولة تفهم ما يجري... أرجوك عدم إساءة الفهم، حين أقول لك إجلس صامتاً وراقب، فهذا لا يعني أنني أدعوك للتكاسل، ذلك لأن على جدار صمتك تتكسر كل الأشياء التي يرميك الآخرون بها.

أنت تراقب صامتاً، فأنت تراقب لتتعرف على ما

يجري وانطلاقاً من هذه المعرفة، يمكنك التصرف. الرجل الواعي لا ينفعك، ذلك لأن فعله يولد من وعيه وانتباهه، وليس وفقاً لما تريد... من غير الجائز التساؤل عما إذا كان هناك تلائم بين المراقبة والعفوية. المراقبة هي بداية العفوية، والعفوية هي ذروة المراقبة.

الرجل الحقيقي يتصرف انطلاقاً من وعيه، ووفقاً لما تمليه عليه ظروف اللحظة الحاضرة... إنه كالمرآة، بينما الرجل العادي، هو ليس كالمرآة، بل كصفيحة الصورة... وهناك فرق كبير بين الإثنين... صفيحة الصورة تستعمل مرة واحدة، تصبح بعدها عديمة الفائدة، ولا يمكن إحداث أي تغيير عليها... إنها تحمل صورة، والصورة تعبّر عن واقعية لحظة بعينها، وبعدها لن تكون واقعية. لو خرجت إلى الحديقة، وجلست قرب شجرة مزهرة وجاء من أخذ لك صورة، فالصورة، ستبقى هي ذاتها اليوم، غداً وبعد غد وحتى بعد سنة. أما إذا عدت وتفقدت المكان فلن تجده هو ذاته... الزهور ذبلت، وأخرى تفتحت...

قيل إن فيلسوفاً واقعياً انتقد بيكاسو بسبب أن لوحاته تجريدية. وقال له إن أردت أن تكون واقعياً فما عليك إلا رسم لوحة لزوجتي... وأمسك صورة زوجته وقال له: «أنظر إلى هذه الصورة، أريد أن تكون اللوحة مطابقة لها كلياً».

نظر بيكاسو إلى الصورة، وسأله: «أهذه هي زوجتك؟».

نعم إنها زوجتي، أجابه الفيلسوف.

إنه لأمر مدهش... قال بيكاسو وتابع: «إنها صغيرة جداً ومسطحة».

فالصورة لن تكون الزوجة.

هناك حكاية ثانية.

جاءت امرأة جميلة إلى محترف بيكاسو: «أمس رأيت صورتك معلقة على أحد جدران منزل صديقة لي... إنها رائعة تأثرت بها جداً حتى أني تقدمت

وأخذت الصورة بين يدي ورحت أقبلها».

قال بيكاسو: فعلاً؟... وماذا فعلت الصورة، هل بادلتك القبل؟

أمجنون أنت؟ قالت المرأة أتعني أنت ما تقول؟ وهل يمكن للصورة أن تبادلني القبل؟

فما كان من بيكاسو إلا أن أجاب: إذاً هذا ليس أنا.

الصورة شيء ميت، شيء جامد، لا يتغير ولا يتبدل. بينما الحياة في تغير دائم.

هكذا هو عقلك، إنه أشبه بآلة التصوير، يلتقط الأشياء، ويحتفظ بها كصور وانطلاقاً من هذه الصور، تأتي ردة فعلك. وهذا يعني أنك لست على علاقة واقعية مع الحياة.

كانت امرأة تتطلع إلى مجموعة صور، اندهش ابنها وهو يرى صورة رجل في مقتبل العمر، بهي الإطلالة وسيم الوجه، أسود الشعر، فسأل أمه: «من هو هذا

الرجل؟».

صاحت المرأة، أما عرفت من يكون هذا الرجل؟ إنه والدك.

والدي؟... قال الطفل باندهاش ومضى يقول: «إذا كان هذا هو والدي، فمن يكون هذا الرجل الأصلع الذي يعيش معنا؟».

قالت الأم: إنه والدك.

هذه هي الصورة... لا تتغير أبداً، وهكذا هو العقل اللاوعي، يعمل كآلة التصوير فيتحول إلى صفيحة صور.

العقل المراقب، المتأمل، يتصرف كالمرآة، لا يلتقط انطباعاً، بل يبقى فارغاً. هكذا هي المرآة، ترى انعكاسك عليها، طالما أنت واقف أمامها، أما إذا ابتعدت، فلا تقل إنها خانتك، فالمرآة هي المرآة. إن ابتعدت من أمامها، فلن يكون لك انعكاس عليها. ما من

أحد يجبرها على الاحتفاظ بانعكاسك، إنها تعكس من يقف أمامها. وإن لم يكن أحد، فلن يكون هناك أي انعكاس. إنها مخلصة وفية للحياة. الصورة عكس المرآة، إنها ليست وفية للحياة... فالصورة تبقى هي هي، أما أنت، فلست أنت الذي كان قبل لحظة، ولن تكون أنت بعد الانتهاء من كتابة جملتي هذه. أنت قد تموت، وتبقى الصورة... فالصورة لا تموت... أما المرآة فتعكس صورتك طالما أنت حي، أما بعد الموت فلن يكون لك انعكاس عليها.

قال بوذا: تعلّم الجلوس صامتاً. كن كالمرآة. الصمت يحوّلك إلى مرآة، وهكذا تتصرف وفق ما تقتضيه اللحظة. أنت تعكس الحياة. ولا تكدس مجموعة صور في رأسك، هكذا تكون عيناك صافيتين نقيتين تشعان براءة... وهكذا تكون قادراً على الرؤية الواضحة، ولن تكون بعدها غير وفي للحياة.

هذه هي الحياة.

الفصل الثاني: عن الحب

الحب هو التألق، هو شذا معرفة الذات، الحب يفيض ابتهاجاً... الحب يكون حين تدرك من تكون. وهكذا لن يكون أمامك شيء تفعله سوى مشاركة كينونتك مع الآخرين... الحب يكون حين تدرك أنك لست منفصلاً عن الوجود... الحب يكون حين تشعر بذروة الانتشاء.

الحب ليس علاقة، الحب هو حالة جوهرية ليس لديها أي شيء تفعله مع أي إنسان آخر... المرء ليس عاشقاً، المرء هو الحب، وهكذا حين يكون المرء هو الحب، يكون العاشق والمعشوق. هذه نتيجة المعادلة، لكنها ليست الأساس، فالأساس هو أن المرء هو الحب.

ولكن، من بمقدوره أن يكون هو الحب؟ بالطبع، إن لم تكن واعياً ومدركاً لمن تكون، فليس بمقدورك أن تكون الحب، بل ستكون الخوف. الخوف هو النقيض

الفعلي للحب... تذكر، الكراهية ليست نقيض الحب كما يعتقد الناس، الكراهية هي الحب يقف على رأس عقب... إنها ليست نقيض الحب. النقيض الحقيقي للحب هو الخوف. بالحب نصبح في كل مكان، أما بالخوف فننكمش ونتقلص... الخوف يجعل الإنسان منغلقاً منزوياً على ذاته. أما الحب فيجعله منفتحاً. الخوف مصدر الشكوك والظنون، والحب مصدر الثقة والاقتناع. الخوف وحشة، الحب اضمحلال وزوال. إذاً، لماذا التساؤل عن الوحشة، فحين لا يكون فرد، فكيف يكون هناك وحشة؟ هكذا تبقى تلك الأشجار والعصافير والغيوم والنجوم، تبقى كلها داخل ذاتك. الحب هو معرفة سمائك الداخلية.

الأطفال لا يعرفون الخوف، إنهم يولدون بلا خوف، ولو تمكن المجتمع من مساعدتهم للبقاء بدون خوف، يكون يساعدهم على تسلق الأشجار والجبال، على السباحة في المحيطات والأنهار. لو تمكن المجتمع بأي وسيلة ممكنة من مساعدتهم ليصبحوا مغامرين،

يحاولون اكتشاف المجهول، وإذا تمكن المجتمع من جعلهم باحثين ومحققين، بدلاً من تسميم أفكارهم بمعتقدات ميتة، فلا شك سيصبح هؤلاء الأطفال أعظم المحبين. أعظم عشاق للحياة. هذا هو الدين الحقيقي، ولا دين أفضل من دين الحب، ولهذا فكل الديانات السماوية تقدس المحبة.

ماذا لو قلنا للطفل، مارس التأمل، ارقص، غنِ، إنغرس في أعماق أعماق ذاتك، اصغ إلى الطَيور بانتباه كلي، أنظر إلى الزهور باندهاش. إبدأ ـ وأنت في هذا السن ـ تعلم العزف على الغيتار أو الناي، عاشر الناس... أكبر عدد ممكن من الناس، لأن كل فرد يعبر عن وجه مختلف لله. تعلّم من الناس، لا تخف، هذا الوجود ليس عدواً لك، إنه يعتني بك وهو مستعد للوقوف إلى جانبك بشتى السبل والوسائل. ثق بالوجود وستشعر بزيارة مفاجئة للطاقة. الطاقة هي الحب، هذه الطاقة ترغب بمباركة الوجود بكامله، إنها الطاقة التي تُشعر الإنسان أنه مبارك، وحتى تصبح مباركاً، فأي

شيء ستفعله سوى مباركة الوجود بكامله؟

الحب هو الرغبة الجامحة بمباركة الوجود بكامله.

كيف يمكنني أن أحب أفضل؟

الحب بحد ذاته يكفي، لا ضرورة لمفاضلته... إنه بحد ذاته كامل وليس بحاجة ـ ولا بأي شكل ـ للمزيد من الكمال... الرغبة الجامحة سوء فهم للحب وطبيعته... هل بمقدروك القول، هذه الدائرة، أفضل من تلك... كلها دوائر، والدائرة غير الكاملة، هي ليست دائرة.

الكمال أمر ملازم للدائرة وكذلك بالنسبة للحب، فليس أن تحب أقل أو أكثر... إنها ليست مسألة كمية، إنها مسألة نوعية، والنوعية لا مقياس لها.

سؤالك يبين أنك ما عرفت الحب، وأنك تحاول إخفاء عدم معرفتك هذا السؤال «كيف يمكنني أن أحب

أفضل؟» ما من أحد عرف الحب واختبره يسأل هكذا سؤالاً.

الحب ليس افتتاناً بالجسد، وإلا صار شهوة، وهذه صفة حيوانية. إذاً، أول ما عليك فعله هو التمييز بين الشهوة والحب. الشهوة عاطفة عمياء، أما الحب فهو شذا الصمت، إنه السلام الداخلي، إنه القلب الممارس للتأمل. الحب لا يهتم بكل ما هو بيولوجي أو كيميائي. الحب هو تحليق وعيك في رحاب مملكة الخلود، غير مكترث بالجسد أو بالمادة. ومتى تفهم الحب، على أنه يسمو فوق الوجود المادي ولا يدرك بالفكر، ساعتئذ لا ضرورة لأي سؤال عن الحب.

السؤال المحوري يجب أن يكون «كيف يمكنني أن أسمو بالجسد، إلى ما فوق المادة matter المشتقة في الأساس من الجذر السنسكريتي matra وتعني القياس، أو من الكلمة الفرنسية matre المشتقة من الجذر ذاته وتعني الشيء الذي يمكن قياسه.

السؤال المحوري الآخر، هو كيف يمكنك تخطي المادة وتوجيه أنظارك نحو الوعي الذي لا حدود له، وكلما أصبحت أكثر وعياً كلما تأكدت من استمرارية متابعة المسيرة، وما أن تصل إلى قمة، حتى ترتفع أمامك قمة أخرى... إنها رحلة أبدية.

الحب هو النتيجة المتوقعة من إحساسك بالوعي، إنه تماماً كالعطر بالنسبة للورود. لا تبحث عنه بين الجذور، فلن تجده هناك. البيولوجيا هي جذورك، أما وعيك فهو تزهرك.

كلما أصبحت أكثر وأكثر انفتاحاً على العالم، ستفاجأ، بأنك تخوض تجربة رائعة، تجربة يمكنك أن تسميها الحب، هكذا تصبح ممتلئاً بالبهجة، بالنعمة وكل ذرة من ذرات كينونتك ترقص فرحاً. أنت أشبه بالغيمة الماطرة التي تريد مشاركة الأرض بمائها.

ليس بمقدوري طلب الحب من إنسان لم ينل البركة، ولم يتعرف إلى ماهية الحب... هذه هي مأساة

الإنسانية. الكل يتمنى أن يكون معشوقاَ، ويدّعي أنه يحب... ليس بإمكانك أن تحب، لأنك لم تدرك حقيقة الوعي.

إذا كنت لا تعرف شيئاً عن الحقيقة، ولم تختبر الألوهة ولم تتنشق شذا الجمال، فما الذي سيكون بمقدورك إعطاءه؟ أنت لا تملك شيئاً يمكن أن يعطى. ومن ثم، كيف تسألني كيف يمكنك أن تحب أفضل، وأنت في الواقع، لا تعرف ما هو الحب، ولو كنت تعرف ما هو، لكنت عرفت أن الحب والكمال توأمان لا ينفصلان.

هكذا أجد نفسي عاجزاً عن إجابة سؤالك. غير أني سأكون صادقاً معك: أنت لا تعرف ما هو الحب، لأنك لم تتعرف إلى حقيقة الوعي، ولا إلى أهمية الإدراك، فأنت لا تعرف، حتى ذاتك... إذاً، وسط هذا الضياع وتجاهل الذات، وحيث لا وعي، لا يستحيل أن يزهر الحب وحسب، بل يستحيل أن يكون. أنت تعيش في صحراء قاحلة، في عتمة حالكة، إذاً، ليس هناك أي

إمكانية لتبرعم الحب.

عليك أولاً أن تمتلئ نوراً، أن تفيض تسامحاً وعطاء، هذه الطاقة الفائضة، هي الحب. الحب أسمى العواطف البشرية وأكملها وليس أكثر ولا أقل.

منذ الصغر وأنت مطالب أن تكون كاملاً. كيف؟... ما من أحد قال لك كيف... بل الكل طالبك الوصول إلى مرحلة الكمال. وهكذا، تصبح مستعداً لفعل أي شيء، حتى مستعد لأن تحب، ولماذا؟ لتثبت أنك كامل... قرأت يوماً أن أحداً بلغ قمة الكمال، أتعرف لماذا؟ لأنه تحمل من الأوجاع ما لا قدرة لغيره، على تحملها، ترى ما الذي سيعطيه هذا الرجل إذاً؟ الأوجاع؟

الكل يسعى أن يكون مميزاً، وهذا يفرض عليه عدم تقبل أن أحداً غيره هو مميز. هكذا يتحول إلى قاض يدين الآخرين إلى إنسان يذل الآخرين. إذاً يستحيل أن تكون مميزاً بين مميزين. هكذا علموك، منذ الصغر... وإن لم تشعر أنك مميز، تبدأ تشعر أنك مذنب، أنك

خسرت احترامك لذاتك، وأن كبرياءك قد أهين... كل هذا بسبب كلمة: التميز.

إسمع يا صاحبي، ما من إنسان بمقدوره الوصول إلى هذا المستوى. وحده الإنسان الذي يختبر العلاقة مع الألوهة، قد يصل إلى مرحلة الكمال أو التميز.

التميز، ليس سلع تباع وتشرى، ولا يمكن أن يكون هدفاً تسعى إليه... كل ما عليك هو التصرف وفق وعيك، كل ما عليك، أن تختبر الألوهة، وشيئاً فشيئاً قد ـ قد ـ تصبح مميزاً. سعيك للتمايز قد يدفعك إلى الزعم أو ادعاء أشياء تافهة لا قيمة لها، غير أنك لا تعي هذا.

أتدري، ما معنى قولك لأحد ما «أحبك»، إنه تعبير عن افتتان مادي بين الجنسين: الذكر والأنثى، وما أن تشبع حاجتك معه، حتى تتوارى، حتى تعمل جاهداً لعدم لقائه ثانية. لماذا؟ لأنك كنت جائعاً، وجاء من سدّ حاجة جوعك. إذاً أنت لم تعد بحاجة إليه... لأنك غير قادر على فهم معنى الحب، ومعنى الشهوة... وحين

قلت له «أحبك» كنت تزعم ذلك إرضاء لشهوتك.

إذا كنت فعلاً ترغب بمعرفة ما هو الحب، إنسَ الحب، وفكر بالتأمل. إذا كنت ترغب برؤية الورود في حديقتك، إنسَ الورود، واعتنِ بالأشجار، مدها بالغذاء، إروها، دعها تنال قسطها مَن أشعة الشمس، وهكذا ستزهر الأشجار من تلقاء ذاتها. ليس بمقدورك أن تجعلها تزهر قبل أوان تزهرها، وليس بمقدورك الطلب منها أن تكون أكثر جمالاً.

الزهور والجمال متلازمان، فماذا تريد أكثر؟ لكل زهرة خصوصيتها التي توصلها إلى التمايز. كذلك هو الحب، إنما عليك إعداد كينونتك لاستقباله. ابتعد عن الظلمة وكلما أصبحت أكثر وعياً ويقظة، كلما جاءك الحب من تلقاء ذاته وفي الوقت المناسب. فلا تقلق بشأنه.

الحب اختبار روحي، لا علاقة له بممارسة الجنس واشتهاء الجسد... علاقته هي مع عمق الذات البشرية.

حتى اليوم لم تحاول الدخول إلى محراب ذاتك، حتى اليوم لا تعرف أبداً من تكون، ومع هذا تسأل عن الحب. كن أنت نفسك أولاً، إعرف نفسك أولاً وسيأتيك الحب كجائزة... لا تسل من أين، ولا من سيمنحك هذه الجائزة... بل إعرف أنها ستملأ كينونتك إشعاعاً وأنواراً، ستشعرك أنك موجود وغير موجود. ستشعرك برغبة قوية لتشارك الآخرين فيها. هذه الرغبة بالمشاركة هي ما نسميه الحب، الحب لا يُعبّر عنه بالكلام، وحده الصمت ينقل مشاعرك إلى من تحب... الحب هو الرفيق الملازم لليقظة والوعي.

كن أكثر يقظة، كن أكثر وعياً، وستتعرف حكماً إلى الحب، إنه زائر، لا يطرق إلا أبواب المستعدين والمهيئين لاستقباله. إذاً عليك أن تتعرف إليه.

إذا وقف الحب في بابك، ولم تدرِ أنه الحب، فستجد مليون عذر كي لا تفتح الباب، حتى ولو فتحت الباب، فلن ترحب به لأنك لا تعرف من هو.

حين يأتيك الحب لأول مرة، ويسيطر على كيانك، ستشعر أن إحساساً عجيباً غريباً ينتابك. لن تكون قادراً أن تعرف ماذا يحدث... كل ما ستعرفه، أن قلبك يخفق، أنك محاط بموسيقى نورانية، ستشتم عطراً لم يسبق لك أن شممته... هذا قد يتطلب بعضاً من الوقت كي تدرك أن الحب من جعلك هكذا.

الحب ليس قصيدة... انطلاقاً من خبرتي في الحياة، كل الشعراء الذين نظموا أروع قصائد الحب، فعلوا ذلك، دون أن يكونوا عاشوا تجربة الحب... وبالرغم من هذا نظموا أشعاراً خلدتهم وأشبعت خيال الكثيرين، لكنهم، في الحقيقة، كانوا يخدعون أنفسهم قبل الآخرين.

وحدهم المتصوفون يعرفون الحب، ووحدهم عاشوا، ويعيشون تجربة الحب... إنهم يحتكرون الحب، هكذا، إذا كنت فعلاً تريد التعرف إلى الحب، فما عليك إلا دخول عالم التصوف.

قال المسيح «الله محبة». يبدو أنه واحد من المدرسة

الصوفية، لكنه لم يتخرج منها بعد لأن ما قاله لا يكفي ولا يعطي الله حق قدره... كان عليه أن يقول «الحب هو الله»، وهناك فرق كبير بين «الله محبة» و «الحب هو الله».

حين تقول: «الله محبة» فأنت، وبكل بساطة، تنفي صفات عدة عن الله... الله الذي هو معطاء أيضاً، الله الغفور الرحوم. الله الذي يمتاز بمليون صفة إلى جانب كونه حباً كما قال المسيح. قول المسيح هو غير واقعي ولا منطقي. فإذا كان الله محبة، فكيف سيدين المجرمين والخطأة والكفار الذين أشركوا في عبادته؟

الحب هو الفضيلة الأسمى، إنه روعة التزهر ونهايته.

لا شيء أسمى من الحب.

بالرغم من هذا فلا يمكنك أن تفاضل بينه وبين أشياء أخرى. إنه الكامل المميز.

بالطبع، وقبل أن تحاول إحلاله في ذاتك، عليك أن تضمحل وتتلاشى... فحيث يكون الحب، ليس بمقدور جسدك أن يكون.

هذا يذكرني بقول الفيلسوف الشرقي كبير «kabir»: «طالما هناك باحث عن الحقيقة، فهذا يعني أن الحقيقة غير موجودة بعد. وعندما توجد الحقيقة فلن تجد نفسك - فحين وجدت الحقيقة نظرت حولي، لم أجد نفسي، لقد وجدت الحقيقة. متى وجدت الحقيقة لا ضرورة بعدها للبحث عنها، وطالما هناك من يبحث عن الحقيقة، فهذا يعني عدم وجودها».

الحقيقة والباحث عنها لا يتواجدان معاً.

كذلك أنت والحب.

ليس هناك أي احتمال للمصادفة: إما أنت أو الحب، وما عليك إلا الاختيار. إذا كنت مستعداً للتلاشي والاضمحلال، للانصهار والتمازج، إذا كنت مستعداً ألا تترك خلفك أي أثر إلا للوعي النقي، إذا كنت كذلك،

سيزهر الحب، ولن يكون بمقدورك مفاضلته عن غيره، لأنك لن تكون موجوداً... على كلٍّ، الحب ليس بحاجة للمفاضلة... إنه كامل أبداً ومميز. المشكلة أن الحب هو إحدى الكلمات التي يكثر الناس من استعمالها، ولا يفقهون معناها.

حتى الأهل، يقولون لأولادهم: «نحن نحبكم» وفي الوقت ذاته يحمّلونهم من الأعباء ما لا طاقة لهم على تحملها في الوقت الذي يسممون فيه أفكارهم، ويزرعون معتقدات ميتة تافهة في رؤوسهم.

نعم كل الأهل يدّعون أنهم يحبون أطفالهم، لكنهم لو كانوا فعلاً يحبونهم لما أرادوهم أن يكونوا صورة طبق الأصل عنهم... لماذا لأنهم تعساء، لأنهم لم يختبروا في حياتهم إلا الشقاء والعذاب. الحياة بالنسبة لهم لم تكن نعمة، بل لعنة، وفي الوقت ذاته يريدون من أبنائهم أن يكونوا صورة طبق الأصل عنهم، أي تعساء أشقياء.

كنت أزور صديقاً لي. كنا نجلس في الحديقة وإلى

جانبي طفل وديع وسيم المحيّا... سألته: أتعرف من تكون؟

نظر الطفل إلي باندهاش، وقال: إنه سؤال صعب، ليس بمقدوري الإجابة عليه.

وأين الصعوبة فيه...؟ عدت وتسآلت.

الصعوبة، قال: إني الطفل الوحيد لوالدي، وكلما جاء ضيف يقول: عيناك كعيني والدك، يأتي ضيف ثانٍ فيقول، فمك كفم أمك، وهكذا دواليك حتى بت لا أعرفُ من أنا ولا كيف أكون، لأنه ما من أحد قال شيئاً يشبهني.

فعلاً... إنه لأمر محزن... قلت لنفسي.

إننا نزعج أولادنا لكثرة ما نقول لهم «نحبكم» ولا نترجم هذا القول عملياً. إننا لا نتركهم يتعرفون إلى ذواتهم، بل نحشو رؤوسهم بما نريده نحن، نطالبهم أن يكونوا مميزين، ولكن كيف؟ هذا ما لا نقوله، كل الآباء

يريدون أولادهم على صورتهم ومثالهم، دون الاهتمام بأن للأولاد خصوصيتهم، وأنهم لو كانوا على صورة أهلهم ومثالهم، فهذا يعني لن يكونوا هم... وطالما أنت لست أنت، فلن تتعرف إلى المعنى الحقيقي للحياة، لن تكون على علاقة مع الوجود، بل ستكون دائماً في حالة ضياع، ستشعر دائماً أنك تفتقد شيئاً، أنت بأمسّ الحاجة إليه.

لا يترك الأهل مناسبة إلا ويعبّرون فيها عن حبّ أولادهم، وفي الوقت ذاته، لا يتركون مناسبة إلا ويذكرون الأولاد، أن عليهم محبة والديهم. لماذا؟ لأن الرجل هو الأب، والأنثى هي الأم.

سبب غريب... كونك أماً، فلا يعني أن على الولد أن يحبك، كذلك بالنسبة للأب. كونك أماً، سبب لا يكفي، بل عليك معرفة كسب حب أولادك، دون تذكيرهم أنك أمهم.

عليك أن تعرفي، إذا ابتسم لك ابنك، قد لا يكون

يفعل ذلك من قلبه، قد يظهر الحب لك والاحترام والامتنان، لإرضائك فقط... إنه يمثّل... إنه يلعب الدور الذي حددته له، دون دراية منك أنك فعلت ذلك. أرأيت، جعلته سياسياً منذ صغره.

أنا هنا اليوم لأعيد لك جوهرك، لأدخلك إلى عمق ذاتك. بكل بساطة، أريدك أن تكون أنت ذاتك، أن تحترم نفسك، أن تعتز بنفسك لأن الوجود بحاجة إليك. بعد هذا يمكنك البدء بالبحث عن ذاتك. عليك في البداية، الدخول إلى ذاتك، ومن ثم إبدأ بالبحث عمن تكون.

أن يعرف الإنسان وجهه الأساسي، فهذه بداية العلاقة مع الحياة. بداية التعامل مع الحب، وهكذا يصبح بمقدوره إعطاء الكثير من الحب، وكلما أعطيت أكثر، كلما أصبحت أكثر قدرة على العطاء وأكثر رغبة.

التجربة الحياتية الأروع، هي أن تعطي لمجرد

العطاء، ودون التوقع أن يقال لك: شكراَ. على العكس عليك أنت شكر من تقبل حبك الذي كان بمقدوره أن يرفضه.

حين تبدأ إعطاء الحب، مع الإحساس بالامتنان لأولئك الذين تقبلوا حبك، وستتفاجأ حين تجد نفسك إمبراطوراً، أنك أعظم رجل عرفته الإنسانية... فأنت لم تعد متسولاً تطرق أبواب الناس طلباً للحب، علماً أن أصحاب هذه المنازل لن يتمكنوا من إعطائك ما تريد، لأنهم هم في الأساس متسولون أيضاً.

المتسولون لا يمكنهم إعطاء الحب لبعضهم البعض، وهكذا ينتابهم الشعور بالخيبة والغضب... الحب موجود فقط عند الأباطرة، وليس عند المتسولين، والرجل الإمبراطور هو ذاك الممتلئ حباً. هو ذاك القادر على العطاء، لمجرد العطاء، دون توقع أن يُقال لهم شكراً.

أما المفاجأة الكبرى، فستكون حين تبدأ بإعطاء

الحب لأي كان، حتى للغرباء، حتى لأعدائك، فالمسألة ليست في من تعطي إنما هي في فرح العطاء. وهكذا تواصل العطاء، ليس للإنسان وحسب، بل حتى للحيوانات، للأشجار، حتى لأبعد نجمة في كبد السماء. فالحب ينتقل إلى الشجرة بمجرد ملامستها بيدك وإلى النجمة بمجرد النظر إليها، ولا ضرورة لقول شيء، فالصمت يساعد الحب على الانتقال.

وماذا ستقول للشجرة وأنت تلامسها بيدك، أو للنجمة وأنت تنظر إليها؟ ماذا ستقول؟ أتشعرين بحبي؟ لا ضرورة لهذا، دع الحب ينتقل تلقائياً، دعه يمنح الشجرة أو النجمة الإحساس بالدفء.

عليك أولاً أن تكون ممتلئاً بالحب، بعدها يصبح بمقدورك مشاركة الآخرين حبك، والمفاجأة الكبرى، هي في أنك كلما أعطيت كلما ابتدأت بتلقي الحب، من ينابيع مجهولة، من بشر لا تعرفهم، من الأشجار، من الجبال ومن كل زاوية من زوايا الوجود.إذاً كلما أعطيت، كلما وجدت من يعطيك أكثر، وكلما تحولت

الحياة إلى رقصة حب.

بالنسبة لي، هذه هي حالة التنور، هذا هو الحب النقي وما عليك إلا تقبل الحب النقي.

ما معنى أن أحب نفسي

أولاً على المرء ألا يبدأ بحب نفسه، لأنه يجهل حقيقة من هو... فمن سيحب إذاً؟

هكذا، إذا أحببت نفسك، تكون تحب «أناك» التي هي ليست أنت، هي شخصيتك المزيفة... في الأغلب الأعم، كل يحب شخصيته، كل يحب أناه، وكل يحب الإطراء، حتى أبشع النساء ستسر جداً إذا قلت لها «من أين لك هذا الجمال؟».

سمعت القصة التالية:

بعد فترة طويلة، التقى رجلان مسنان. فسأل الأول

رفيقه «أين كنت طوال هذه الفترة؟».

في السجن... أجاب الرجل الآخر.

ولكن لماذا؟

فأجاب الرجل الأول، منذ فترة كنت أجلس في الحديقة العامة، فإذ برجال الشرطة يحيطون بي، ومعهم فتاة آية في الجمال، لم تتجاوز العشرين من العمر، اندفعت هذه الفتاة نحوي وهي تقول «هذا هو من اغتصبني أكثر من مرة».

وماذا فعلت أنت؟

أنا؟ شعرت بنوع الزهو والغرور، فاعترفت بأني اغتصبتها، وهكذا أدخلت إلى السجن.

كم من الأفعال اعترفت بأنك فعلتها، وأنت تعي كل الوعي، أن اعترافك هو إرضاء لغرورك. كثيرون هم الذين تزلفوا إليك وأسمعوك معسول الكلام، ووصفوك بما أنت لست عليه، هذا ليس حباً، هذا كذب بكذب.

بالنسبة لي، أنا أدعوك كي تحب ذاتك، لأنه إن لم تفعل ذلك، فكيف تتمكن من حب أي إنسان آخر؟ وكذلك، لأنك لن تعرف ما هو الحب، إن لم تحب نفسك. إنما، قبل أن تحب نفسك، عليك أن تتعرف عليها ... هذا هو المهم، بل الأهم. أما الحب، في هذه الحال، فهو أمر ثانوي، والتأمل يأتي أولاً.

إن مارست التأمل، فستشعر أنك رويداً رويداً تتخلى عن الأنا، عن شخصيتك المزيفة، وتتعرف إلى ذاتك الحقيقية. وهكذا سيأتي الحب من تلقاء ذاته. ليس مطلوباً منك فعل شيء من أجل مجيء الحب: إنه التزهر العفوي، التزهر التلقائي، غير أن التزهر يتطلب مناخاً مناسباً، وهو ما نسميه التأمل. والتأمل يتطلب صمتاً مطبقاً، وإحساساً بالسلام الداخلي وراحة البال، وفجأة سترى آلاف الورود تتفتح في داخل ذاتك، أما عطر هذه الورود فهو الحب.

من الطبيعي أن تحب نفسك أولاً. هذا هو التحدي الأول في حياتك. كذلك عليك أن تدرك أهمية العطر

الذي يتكون فيك. وأن تدرك كذلك أهمية الضوء الذي ولد في داخلك، والنعمة التي انهمرت عليك. بعدها تصبح المحبة طبيعتك، وقد تحب من تشاء أو حتى قد تحب كل الناس.

الحب ليس علاقة بل هو نوعية حياة، هو صفة مميزة للإنسان. إنه كينونتك، إنه الإشعاع الذي يصدر من داخلك إلى كل الاتجاهات، وليس لشخص بعينه أو لفئة معينة... ومما لا شك فيه أنك أول من سيشعر بهذا الإشعاع ومن ثم يحيط بك، بعدها لن تحب الكائنات البشرية وحسب، بل ستحب الأشجار، ستحب الطيور... بكل بساطة تتحول إلى كتلة حب.

تساءلت «ما معنى أن أحب نفسي؟».

يعني أن تكون أنت ذاتك.

وستمنحك الطبيعة الحب كجائزة.

ولكن إياك أن تصغي لأعداء الحياة. هؤلاء

يطالبونك بأن تكره نفسك، والعالم كله أيضاً.

هؤلاء لا يذكرون على مسمعك، إلا مساوئ الحياة وسلبياتها، إنهم يريدونك أن تتنكر للحياة، أن ترفض السعادة، أن تحقد على الجميع، وأن تضحّي بكل شيء كي تدخل الفردوس، وهل من إثبات أن هناك فردوساً بانتظارك. إن فعلت كل ما يطلبونه منك؟

إنهم دائماً يحدثونك عن الخطيئة، كل ما تفعله هو فعل خطيئة. يطالبونك بإماتة جسدك، إماتة للرغبة الجنسية، ولكن هل أنت قادر على محاربة الطبيعة؟ عش حياتك طبيعياً، وسيختفي الجنس من تلقاء ذاته. الحب والجنس لا يلتقيان إنهما بالخطوط المتوازية. والحال هذه، لا تتعب نفسك محاولاً إماتة الجنس، دع الحب يفعل ذلك.

كان أحد الكهنة يتباهى بأنه تمكن من القضاء على الشهوة في جسده، وعلى طلب الطمع، وعلى طلب الحسد، وحتى على طلب الجنس.

فإذ بأحد المصابين يسأله: أمتأكد أنت من أن طلب الجنس لم يمت ميتة طبيعية؟

ذات مساء، كان رجل مسن وامرأته يصغيان إلى المعالجين الروحيين عبر الإذاعة:

«حسناً يا أحبائي... تأكدوا أن الله سيشفي أمراضكم كلها، كل ما عليكم، هو أن تضعوا يداً على الراديو والأخرى على الجزء المريض في جسدكم».

نهضت المرأة العجوز، وضعت يسراها على الراديو والأخرى على أسفل ظهرها. أما زوجها فقد وضع يداً على الراديو والأخرى على عضوه التناسلي.

نظرت المرأة إليه متعجبة: ماذا تفعل يا أيها الأحمق. لقد قال «يشفي من المرض» ولم يقل «يحيي الأموات».

عش طبيعياً... عش بسلام. إمنح نفسك بعض الوقت إجلس وحيداً، إجلس صامتاً، راقب داخل عقلك، وشيئاً

فشيئاً ستختفي الأفكار، وسيأتي يوم قريب، سيصبح عقلك ساكناً وكأنك لست موجوداً.

من خلال هذا الصمت الداخلي، ستتعرف إلى بعد جديد للحياة، لا طمع فيه، لا غضب، لا عنف، لا شهوة جنسية. بعد ليس من اختراعك، إنه البعد الحقيقي للحياة، حيث يتواجد الحب والطهارة والنقاء من كل ما هو بيولوجي، حيث العطاء بدون أي سبب، ولا طمعاً في الجنة، لأن العطاء بحد ذاته هو مكافأة كبرى.

العطاء يعني رغبة شديدة في مشاركة الآخرين، كل ما تملك من كنوز اكتشفتها في ذاتك. العطاء يعني أن تطل برأسك من النافذة وتصرخ: يا أيها الناس، أنتم لستم فقراء... أنتم لستم بحاجة للتسول، فأنتم ولدتم ملوكاً، وكل ما عليكم هو اكتشاف مملكتكم التي هي ليست في العالم الخارجي، بل هي في داخلكم. إنها هناك وتنتظر قدومكم إلى حيث هي، إلى منزلكم الأبدي، وسيأتي الحب، سياتي بوفرة لن تتمكن من استيعابها، ستمتلئ حباً ويفيض عنك.

كل ما عليك هو اكتشاف إشراقك المخفي.

فالحياة هي أغنية... أغنية فرح.

الحياة رقصة، الحياة احتفال دائم، لذا، مطلوب منك أن تلتزم بالحياة بحب الحياة. هكذا تكون إنساناً مؤمناً بالله. الإيمان فرح، بهجة وليس تعاسة وعبوساً. الإنسان المؤمن يمتاز بإحساس المرح، إنه كوننا، إنه منزلنا... نحن هنا لسنا يتامى، فالأرض هي أمنا والسماء والدنا، وهذا الكون كله لنا، كذلك نحن له.

ليس هناك انفعال بيننا وبين الكون، نحن منذ الأزل نؤلف فرقة موسيقية واحدة، فرقة الوجود.

الإصغاء بانتباه كلي، لموسيقى هذه الفرقة هو الإيمان بحد ذاته، الإيمان بالله الموجود في كل مكان، الله الذي لا يحب سماع أصواتنا، بل يريدنا أن نلتزم الصمت... يريدنا أن نصغي بصمت، أن نفعل كل شيء بصمت، أن نعطي بصمت وعبر هذا الصمت يتحول الوجود كله إلى نور إلهي.

لا تصغِ لأولئك الذين يصورون لك الله على أنه شخص... الله ليس شخصاً، إنه موجود في كل مكان، في الأشجار، مع الطيور وبين البشر، أينما طلبته تجده مستعداً ليفتح جناحيه ويطير بك في سماء الحرية، حرية الوعي والإدراك.

نعم، ستحب نفسك، وستحب الوجود كله أيضاً.

كيف يمكنني التخلي عن أي التزام

وقعت في الحب، وتعذبت كثيراً غير أن إحساساً ينتابني أني لست قادراً على التخلي عن حبه، ولا على الاستمرار في هذا الحب. فكيف يمكنني التخلي عن هذا الالتزام العاطفي الذي أغنى حياتي لكنه مؤلم جداً؟

الحب هو الثراء والألم. إنه الوجع والانتشاء باللذة، الحب هو الشقاء الأرضي بالسماء، هو التقاء المعلوم بالمجهول، هو التقاء المرئي باللامرئي.

الحب هو الحد الفاصل بين المادة والوعي، الحد الفاصل بين ما هو أرضي وما هو سماوي، للحب جذوره في الأرض، وبسبب هذه الجذور يتعذب العشاق ويتوجعون، وللحب أغصان وارفة تشرئب نحو السماء. وهذه هي الغبطة، والانتشاء باللذة.

الحب هو خيط يربط بين قطبين، الأول هو الجنس والثاني هو التضرع والصلاة. جزء منه هو الإحساس بالرغبة الجنسية والجزء الآخر هو التضرع والصلاة.

الجنس يسبب التعاسة، والدعاء يمنح الكثير من الغبطة.

الحقيقة أني أتفهم ما ترمي إليه بسؤالك. إنه مشكلة العشاق الأساسية، الحب يجلب الأشواك والورود، قد يقول أحدهم أريد الورود فقط، لكن المشكلة، ألا ورود بدون أشواك، إنهما وجهان لعملة واحدة، إنهما مظهران لطاقة واحدة.وعلى الرغم من هذا فأنا لا أدعوك للتخلي عن الحب، ولا أدعوك للالتزام أو

الارتباط... أنا أدعوك للتفهم وليس للتخلي. أرجوك ألا تسيء فهمي... أنا لست ضد الجنس، غير أني أطالب بجعل الجنس جزءاً من الصلاة، فالكبير يقدر على استيعاب الصغير... وهكذا لا يعود هناك ألم ولا وجع.

لماذا الألم ملازم للرغبة الجنسية؟ لأن الجنس، يذكرك دائماً بكينونتك - وهذا هو الألم. إنه يذكرك دائماً بالماضي وبالأغلال المادية، يذكرك بأنك لست حراً، بل أنت عبد للغريزة التي ولدت معك وأنت لست مستقلاً عن طبيعتك، أنت مجرد لعبة بيد المجهول، مجرد لعبة يتقاذفها الجهل.

يبدو الجنس وكأنه إذلال، يشعرك أنك تفقد كرامتك وهكذا تشعر بالألم النفسي، إشباع الرغبة الجنسية يتطلب لحظات تتلوها ساعات ندم إن لم تكن ساعات ألم.

في الوقت ذاته الجنس ضرورة لا بد منها... ضرورة لاستمرار الحياة، وإلا لكانت البشرية اختفت.

للغريزة الجنسية قوة لا تقاوم، ولولا هذه القوة، لا أعتقد أن أحداً كان يمارس الجنس. لو ترك الخيار للإنسان، فلما كان مارس الجنس... ولهذا السبب، نرى البشر يمارسون الجنس بالخفاء، بعيداً عن الأعين، لأنهم يخجلون مما يفعلون ، لكنهم يعيشون معه لحظات ،أقول لحظات حلوة.

منذ القدم وهناك من يدعوك إلى نبذ الجنس، لأنه يذلك، لأنه يجردك من صفاتك الإنسانية، هذا ما فعله الرهبان النساك، الذين نأوا بأنفسهم عن كل ما في الحياة من مباهج وأفراح. ولكن ماذا فعلوا؟ تعرفوا إلى التعاسة، وتوهموا أنها سعادة. تحولوا إلى مجرد كائنات تعيش على هامش الوجود. بكلمة أوضح وأدق، راحوا ينتظرون ساعة الموت، دون علم منهم أنهم يفعلون ذلك. كانوا يعتقدون أنهم يسبّحون الله ويمجدونه... عزلوا أنفسهم عن العالم، فوجدوا أنفسهم غارقين في أمور ومشاكل هم اخترعوها، ولم يتمكنوا من إيجاد حلول لها.

برأيي لا ترفض شيئاً بل تقبله... لأن كل هدية لها قيمتها الخاصة. قد تكون تدري هذا، وقد لا تكون... لو لم تكن هدية قيمة، لما أرسلها الوجود لك. كل ما عليك هو أن تقبلها، أن تسعى إلى تحويلها لتجعلها موافقة لما ترغب. دع الحب يصبح أكثر التصاقاً بالألوهة، وحتى الجنس يمكنك أن تجعله إحساساً بعيداً عن الحيوانية، يمكنك جعله نشاطاً مقدساً وبدلاً من أن يقذف بك إلى الهاوية، بإمكانك أن ترفعه إلى مستوى الحب.

الطاقة ذاتها تقذفك نحو الهاوية، أو تعطيك جناحين لتحلّق في السماء. إجعل للجنس جناحين، إجعله قوة رائعة، إجعله أروع ما يكون في الحياة... إنه سبب وجودك، ووجودي، وسبب وجود الكثيرين وسيستمر كذلك... بفضله تتجدد الحياة.

خاطب المسيح نيقوديموس، قائلاً: «ما لم تولد من جديد، فلن تكون قادراً على دخول مملكة أبي الذي في السماوات. ما لم تولد من جديد... ما لم تكن قادراً على نفسك انبعاثاً جديداً رؤية جديدة، قيمة جديدة، لن تتمكن

من العزف على ناي الوجود، أو تشارك الحياة رقصتها».

لماذا لا تحوّل الحب إلى فن تأمل رائع. هذا ما قالت التي تضع بين يديك مفاتيح Tantra به تعاليم التانترا قدرة تحويل الوحول إلى زهرة لوتس، بمعنى آخر تعلمك كيف يمكنك الارتقاء بالدونيات إلى العلويات، لكن المتضررين من هذه التعاليم، شنوا حملة إبادة على أتباعها وأحرقوا كتبها.

لماذا، لأنهم لا يريدون للناس أن تمتلك قدرات وطاقات قد تخرجهم من تحت سيطرتهم، قد تجعلهم أحراراً واعين ومتنورين، وهكذا يرفضون تبعية أحد، هكذا يتحولون إلى أسرى، ولن يكونوا بعد ذلك مجرد أغنام في قطيع، كما يريدهم رجال السياسة وبعض من رجالات الغرب.

أوهمنا بعض الذين جعلوا أنفسهم ناطقين باسم الديانات وباسم الله أحياناً، أننا نولد حاملين عبء

خطيئة آدم... وضعونا أمام مأزق أخلاقي ومشكلة حياتية نفسية، وكي يظهر هؤلاء المدعون حبهم لنا أوجدوا حلين للخلاص من تلك الخطيئة.

الغربيون قالوا بصكوك الغفران، أي أن الكنيسة تغفر ذنوب من تشاء من البشر وترفض غفران ذنوب من تشاء. غير أن هذا الحل لم يكتب له النجاح. أما في الديانات الشرقية، فقد ابتدعوا فكرة الانعزال. لم يقولوا اعزلوا أنفسكم عن الآخرين وارفضوا الحياة، بل قالوا تنسكوا، أي انصرفوا لعبادة الله رغبة في الخلاص من الجسد وتأثيراته. فما كان منهم إلا أن هربوا إلى الجبال... إلا أن اعتزلوا عن الآخرين، لقد تخلوا عن زوجاتهم وابنائهم، عن آبائهم وامهاتهم، عدا عن الإخوة والأخوات. وماذا كانت النتيجة؟ فشل ذريع، لاستحالة التطبيق.

من هنا برزت الحاجة إلى حل ثالث، إلى حل يجيب على تساؤلات حول وجود الإنسان والغاية من وجوده.

أنا لا أقول لكم... تنكروا لممارسة الجنس، بل أقول، بدلاً من إبقاء الجنس حاجة جسدية، اجعلوه شيئاً روحياً، اعتبروا ممارسة الجنس نوعاً من التأمل، تضرع لله، حتى وأنت تمارس الجنس، حوله إلى فعل حب.

قلت إنك فشلت في حبك، فتعذبت كثيراً.

عليك أن تنكر ذلك... وحدهم الفقراء روحياً يقعون في الحب وبالتالي لا يتعذبون... وهذا يعني أنهم لم يتعرفوا إلى ذواتهم بعد. لذا فأنا أنصحك بعدم نبذ الحب، بل أدعوك للاستمرار في الحب، والاستمرار في تقبل العذاب. أنت أمام أمرين لا ثالث لهما: إما تقبل الحياة، وإما رفضها والتنكر لها، وهكذا تكون تتخذ لك مكاناً في صف منتظري ساعة الموت.

إذاً تقبل الحياة وتقبل الحب، واعلم أن كل تجربة حب تزيدك وعياً ويقظة. وكلما ازددت وعياً، كلما رحت تبحث عن معشوق جديد، وصولاً إلى البحث عن

المحبوب الأسمى: الله.

وحدهم الذين ما عرفوا الحب، لا يفكرون بالبحث عن كيفية التعرف إلى الله... لماذا يبحثون عنه؟ إذاً ما عليك إلا أن تحب، وتحب، وأن تتعذب وتتعذب، واعلم أن عذاب الحب هذا، يطهر جسدك من كل شائبة، إنه يصقله كي يصبح ذهباً خالصاً، ومتى أصبحت ذهباً خالصاً، تكون اقتربت من الله... من الذي أعطاك الحياة. وبدلاً من رفض الحياة، إجلس صامتاً، وانظر بعينيك نحو الله... لا تسلني إلى أين؟ فالله موجود في كل مكان، حتى في داخلك، أنظر بعينيك نحو الله واشكره على ما قدم لك.

الفصل الثالث: عن العلاقات

لا أحد في الحياة مستقل عن محيطه... إنه جزء منه وهو بحاجة له... غير أن هذه ليست علاقة، بل نوع من التكافل والتضامن، من الاتكال المتبادل.

في حياتنا هذه، ليس هناك تبعية ولا استقلالية، بل هناك تكافل وتضامن... فكما أنت بحاجة للوجود، فالوجود هو أيضاً بحاجة إليك. إذاً ليس بمقدورك أن تكون مستقلاً عن وجودك، ولا تابعاً له وإلا لتحولت إلى مخلوق تافه.

أنظر إلى المحيط... هل الأمواج مستقلة عنه؟ هل هي معتمدة عليه؟ لا هذه ولا تلك... إنها المحيط... فلا محيط بدون أمواج ولا أمواج دون محيط... إذاً كلاهما واحد... وهكذا نحن في الحياة... نحن أمواج وهي المحيط الكوني.

هذا يعني، أنه قد يكون للحب ثلاثة أبعاد: البعد الأول هو التبعية أو الاتكالية وهذا ما هو منتشر في مجتمعاتنا. فالزوج يتكل على زوجته، والزوجة تتكل على زوجها، كل منهما يكمل الآخر، كل منهما بحاجة للآخر، وفي الوقت ذاته كل منهما يسيطر على الآخر، كل منهما يمتلك الآخر، وكل منهما حول الآخر إلى سلعة. هذا ما يحدث بشكل عام في عالمنا المادي هذا. وهذا ما يحول الحب، من أمل بالسعادة، إلى جحيم فعلي.

أما البعد الثاني، فهو الحب بين اثنين كل منهما يتمتع باستقلاليته، وهذا بعد يجلب التعاسة أيضاً. لماذا؟

لأن الاستقلالية قد تولد التنافر والتنافر يتسبب بالصراع، فلا مجال لوجود تسوية بينهما... فكل منهما يعتبر نفسه مستقلاً، له شخصيته الخاصة، الشعراء والفنانون والمفكرون والعلماء يعتبرون أنفسهم أناساً مستقلين، في تفكيرهم على الأقل. فكيف يمكن لإنسان آخر أن يقنع أياً من هؤلاء أن يتنازل ولو قليلاً، وأن

يكون مستعداً لملاقاة الآخرين عند منتصف الطريق؟

إنهم يجاهرون بأنهم يحرّضون الناس على السعي وراء الحرية ولكن أية حرية؟ إنهم يحرّضون الآخرين، على أن يكون لكل منهم عالمه الخاص، هكذا تبدو العلاقة التي تربط بين أمثال هؤلاء، هي علاقة سطحية خارجية، غير مسموح للواحد أن يتعمق في نفسية الآخر... فكل واحد منهم مرتبط بحريته، أكثر ما هو مرتبط بالحب وغير مستعدين لإيجاد أية تسوية.

أما البعد الثالث، فهو بعد التكافل والتضامن، بعد التكامل، وهذا نادر الوجود، لكنه سبب السعادة الأرضية. إثنان، ما أحد منهما يتبع الآخر، ولا هو مستقل كلياً عن الآخر، بل هما متكافلان متضامنان. إن تنفس أحدهم، فهو يتنفس من أجل الآخر، إنهما روح واحدة في جسدين... وهذا هو الحب... هذا هو الحب الحقيقي الذي يفتح أبواب الجنة ويغلق أبواب الجحيم.

البعدان الأولان، هما الطريق إلى التعاسة، إلى

العبودية أو التنافر... أما البعد الثالث، فهو فيض الحب وإشراقة روح الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله.

أين تكمن صعوبة التواصل ولماذا؟

لأنك ما تزال غير ممتلئ بالحب، لأن داخليتك ما تزال فارغة، ولأنك تخشى من أنٍ تواصلك مع أحد ما، سيجعلك عاجلاً أم آجلاً، مكشوفاً أمامه، ستبدو وكأنك صفحة بيضاء لأنك تحاول إبقاء مسافة بينك وبين الآخرين.

أنت لم تولد بعد... حتى الآن ما تزال مشروع إنسان مكتمل... والتواصل لا يتم إلا بين مكتملين. أن تتواصل، أو أن تقيم علاقة مع آخر، فهذا شيء رائع، إنه يعني الحب، يعني أن تشارك الآخر بما عندك، ولكن كيف يمكنك أن تحب وأنت غير ممتلئ بالحب؟

كي تتمكن من التواصل، عليك أن تكون منفتحاً. البذرتان لا تتواصلان، كل واحدة منغلقة على ذاتها، بينما الورود تتواصل، إذ بإمكان الوردة إرسال الشذا إلى وردة أخرى، أن تشارك وردة أخرى الرقص تحت أشعة الشمس، التمايل مع الريح، وبإمكانها إقامة حوار مع وردة أخرى، لأنها منفتحة وليست مغلقة كالبذرة.

هكذا هو الإنسان... قد يكون بذرة، وقد يكون وردة... هذا معتمد عليك، فماذا تريد أن تكون؟ عليك أن تختار كيف يجب أن تكبر وتنمو، بذرة مغلقة أم زهرة منفتحة.

ملايين الناس، يقررون البقاء كالبذور، يقررون البقاء فرصة مستقبلية، إمكانية، وليس نماء حقيقياً، يفعلون ذلك، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن تحقيق الذات... لا يعرفون شيئاً عن الجوهر، عن كينونة الإنسان، هؤلاء يعيشون في الفراغ، فكيف بمقدورهم أن يتواصلوا؟

إن أمثال هؤلاء يخشون التواصل، مخافة الظهور عراة، كما خلقتني يا رب، مخافة الظهور على حقيقتهم. إذاً يجب إبقاء مسافة بينهم وبين الآخرين، حتى العشاق منهم، يبقون مسافة بين بعضهم البعض، إنهم يحتفظون بخط الرجعة كما يقال... يضعون حدوداً تفصل بينهم ولا يجوز لأحد أن يتخطى الحدود المرسومة له.

قد تكون هذه نوعاً من العلاقة، لكنها ليست تواصلاً. إنها أقرب إلى التملك... الزوج يمتلك زوجته، الزوجة تمتلك زوجها، وكلاهما يمتلكان أولادهما، وهكذا دواليك ومما لا شك فيه، أن التملك يدمر أية إمكانية تواصل... التواصل يعني الاحترام، يعني عدم التملك، التواصل يعني أن تصبح أكثر قرباً من الذين تتواصل معهم، أن تبني نوعاً من الحميمية بينك وبينهم... التواصل بين شخصين مستقلين. قال جبران خليل جبران: «كونوا كتلك الأعمدة التي تحمل السقف، لكن، فليكن كل منكم مستقلاً عن الآخر. فأنتم معاً تحملون كسقف الذي هو الحب».

العاشقان يتعلقان بشيء غير مرئي، بشيء يستحيل تقديره... إنه أسمى من ذلك. إنهما قصيدة الوجود، إنهما موسيقى يتردد صداها في أعماق ذات كل منهما، كل منهما يدعم الآخر ويسانده، دون إلغاء وجوده. كل منهما مستعد أن يتعرى نفسياً أمام الآخر، لأنه لا يخاف منه، كل منهما يعرف من هو، ومن يكون، يعرف مدى جمال روحه، وأن عطراً ينبعث من ذاته... لا خوف ولا خشية.

ولكن متى يوجد الخوف؟ يوجد الخوف، حين لا يكون عطر ينبعث من أعماق الذات حين لا يكون هناك جمال روح، وهكذا تخشى أن يتعرف الآخر على رائحة العفونة المنبعثة منك، أن يتعرف أنك حاقد على الآخرين، وأنك لا تعرف معنى الحب ولا معنى العطاء.

الملايين من البشر يفضلون البقاء كالبذور. ولكن يفعلون ذلك، في حين أنهم قادرون على أن يكونوا وروداً تتشارك الرقص تحت أشعة الشمس، تتشارك

التمايل في نسيمات الريح؟

لا شك أن هناك سبباً جوهرياً بالنسبة لهم... إنه الخوف... البذرة مغلقة على ذاتها، تتمتع بحماية ذاتية، تبدو أقوى صلابة من الوردة سريعة العطب، الوردة التي لا تقوى على مواجهة اشتداد الريح قد يمر إنسان ويقطفها. إذاً هي ليست آمنة، إنها في خطر دائم، الريح لن تكسر البذرة، ولا الإنسان سيدمرها، فهي تتمتع بحماية شبه كاملة، غير أن البقاء بذرة، يعني البقاء أمواتاً... الانغلاق على الذات يعني الموت، والانغلاق على الذات يعني عدم الرغبة في المغامرة، ولا الرغبة في ارتكاب المخاطر... أما الانفتاح فهو مغامرة ومخاطرة، من يرغب الوصول إلى الذروة عليه معرفة أنه يخاطر، وأنه قد يخسر نفسه، ومن يرغب بتسلق قمم الجبال، عليه معرفة أنه قد لا يصل إلى هدفه، عليه معرفة أنه قد تزل به القدم ويهوي إلى حيث انطلق.

أهم من هذا كله، الانفتاح يعني التوق للنمو، وهذا يتطلب تقبلاً للخطر... أي خطر. والرجل الحقيقي هو

من يتقبل الخطر على أنه جزء من حياته، الرجل الحقيقي لا يتقبّل الخطر وحسب، بل ويواجهه أيضاً. المواجهة تعني عدم الخوف.

سألتني: «لماذا من الصعب أن أتواصل مع الآخرين؟».

تكمن الصعوبة فيك أنت... كن مستعداً للتواصل أولاً، وكل شيء سيكون كما تشتهي... ولكن كن مستعداً أولاً. أما سمعت ماذا قال المسيح: «إبحث أولاً عن مملكة الآب، وبعدها ستنال كل ما تريد»... وهذا ما أريده منك، إبحث عن كينونتك أولاً.

وجودك هو الشرط الأساسي، إن كنت شجاعاً جريئاً، فلن تعرف الخوف. وهكذا تنتفي الخشية من المخاطرة، وتصبح مستعداً لاكتشاف الآخرين والتعرف إليهم... وهذا هو التواصل.

التواصل هو اكتشاف حقيقة الآخرين. هو تخطي الحدود التي رسمها الآخرون حولهم، وهذا يعني أنه

مطلوب منك السماح للآخرين بالتعرف إلى حقيقتك وتجاوز الحدود التي رسمتها حولك. التواصل هو طريق السير باتجاهين وليس باتجاه واحد... ولا شك أنك ستسمح للآخرين بالتعرف إلى حقيقتك، حين تكون تحوي كنوزاً في داخلك. حين لا تكون خائفاً من الانكشاف أمامه، حين تكون مستعداً على استضافته في داخلك، حين تكون مستعداً مشاركته الرقص تحت أشعة الشمس أو القمر، أو حتى تحت المطر أيضاً.

التواصل يختلف جداً عن العلاقة... التواصل فيه جمال، فيه حميمية، العلاقة أمر مختلف كلياً، إنها الموت... إنها الجمود... إنها الوصول إلى نقطة الهدف. العلاقة أشبه بزواج الرجل من المرأة، وماذا بعد؟ تبدأ مرحلة التراجع، لقد وصل كل منهما إلى قمة المبتغى فماذا أكثر؟ لقد توقف النهر عن الجريان وتحول إلى خزان ماء. العلاقة هي شيء اكتمل، بينما التواصل هو مسار، هو طريق وأنت ما تزال عند نقطة الانطلاق.

أريدك أن تبتعد عن الأسماء والتمسك في الأفعال،

أنا هنا لا أتدخل في شؤون قواعد اللغة، حيث الإسم والفعل ضروريان، بل أقول هذه حياتنا... الحياة هي فعل، هي عيش، وليست معيشة، إنها ليست حباً، بل أحب، إنها ليست أغنية، بل أغني، إنها ليست رقصة بل أرقص.

إنتبه إلى العزف، الرقص شيء مكتمل، فماذا ستفعل بعد؟ لا شيء، بينما أرقص، يعني الاستمرارية، يعني أنه ما يزال أمامي الكثير لأفعله.

من هنا، وقبل التفكير بالتواصل، فكّر أولاً أن عليك الاستجابة لأهم شروط التواصل، التأمل. وهكذا ستتعرف إلى التواصل دون جهد أو عناء... حين يتعرف المرء إلى الصمت، حين يصبح مباركاً وممتلئاً نعمة، ولديه طاقة فائضة، حين يصبح وردة، ساعتئذ يصبح قادراً على التواصل... التواصل ليس أمراً عليك أن تفعله بل هو أمر يحدث من تلقاء ذاته، التواصل قد يكون مع كل ما في الوجود، مع الإنسان ومع الحيوان ومع الطيور ومع الأشجار وحتى مع الصخور

والجماد.

التواصل يعني استمرارية الاتصال مع الأشياء الأخرى. فمن كان سائراً، فقدماه تلامسان الأرض، وهذا يعني أنه على تواصل مع الأرض ومن كان يسبح في النهر فجسده يلامس مياه النهر، وهكذا يكون على تواصل مع النهر.

المسألة، ليست مسألة إقامة علاقة مع أحد ما، بل هي في كيفية التواصل مع هذا الأحد ما... هي في كيفية أن تكونا أغنية مستمرة، أن تكونا رقصة الحياة، أن تكونا كمياه النهر في انسياب دائم.

مارس التأمل، وحاول أن تتعرف إلى ذاتك أولاً... وقبل أن تتواصل مع الآخرين، تواصل مع نفسك. هذا هو الشرط الأساسي، ومن دونه يستحيل التواصل.

أيمكن أن تكون متزوجاً وحراً؟

أيمكن أن تكون متزوجاَ وحراَ في الوقت ذاته ؟

إنه أمر صعب، لكنه ليس مستحيلاً، إنه بحاجة للأخذ بعين الاعتبار بضعة أمور، أولها: ما من أحد ولد من أجل الآخر، الثاني: ما من أحد هنا ليلبي لك حاجاتك المادية والروحية، أما الأمر الثالث، وهو الأهم: أنت سيد نفسك، وأنت حر أن تحب من تشاء، وأن تعطي بقدر ما تشاء، لكن لا يحق لك أن تطلب الحب من الآخرين، إذ لا أحد هو عبد لك.

متى تفهمت هذه الأمور، يمكنك أن تكون شريكاً لإنسان آخر، ما يهم إن كنت متزوجاً أم غير متزوج... يمكنك أن تكون مع إنسان آخر، تاركاً مسافة بينك وبينه، ولا أحد يتدخل في خصوصية الآخر.

الزواج تُرجم عملياً إلى نوع من المؤسساتية، وهكذا تحول إلى مدمر لاحتمالات سعادة ملايين البشر... في الواقع الزواج هو حلم يراود مخيلات كل البشر، لكننا جعلنا الحلم كابوساً. حتى أصبح من المستحيل وجود

اثنين متزوجين غير معذبين أو أحدهما يتعذب على الأقل. الرجل يريد استعباد زوجته والزوجة تريد الانتقام، فأي علاقة هي هذه؟

جاءني زميل في الجامعة وقال: «أنت الإنسان الوحيد الذي أثق به، ومتأكد من أنه لن يبوح بما سأقول».

- هات أخبرني: قلت له.

- زوجتي...

قاطعته قائلاً: إنها تضربك...

بدا الاندهاش عليه وقال: ومن أخبرك؟

ابتسمت وقلت: هذا أمر لم يعد سراً... أنت واحد من مئات الآلاف أمثالك.

بطريقة أو بأخرى، كل امرأة تهين زوجها... أو تعتقد هذا، إن لم يكن جسدياً فنفسياً وهذا هو الأخطر.

غير أن المرأة، ليست هي المسؤولة عن تصرفاتها هذه، التي هي أقرب ما يكون إلى ردات الفعل... منذ قرون وقرون، وهي تهان وتعنّف وتدفن حية أحياناً. كل هذه تراكمت في عقلها الباطني، وممن تنتقم؟ من زوجها الذي هو أقرب الناس إليها وعليها استغلال المناسبات للانتقام منه، خاصة وأنها تعرف نقطة ضعفه، لا يريد أن يعرف أحد ماذا يجري داخل بيته، خاصة أن زوجته تهينه حيناً وتعنفه أحياناً، وكل ما على الزوج استرضاءها حتى لا يسمع الجيران صراخها وزعيقها.

لذا أكملت حديثي مع زميلي وقلت له: « لا تقلق، كثيرون يأتون إلي ويسألونني عدم البوح بما سيقولون، فأعرف مباشرة أن هناك مشاكل بيتية».

- اسمع يا صديقي... قال: منذ أربع وعشرين سنة وأنا أتعذب، منذ أربع وعشرين سنة وأنا أعيش داخل زنزانة... أريد أن أخرج من السجن.

...- لا مشكلة في ذلك

- لا مشكلة؟ قال متعجباً... إننا متزوجان.

- ماذا؟ أجبته باستهزاء. الزواج مجرد لعبة أطفال... كيف، أو لماذا تزوجتها؟

- التقيتها في المعبد، ولعب الكاهن دوراً فعالاً في التقريب بيننا وهكذا تزوجنا.

إسمع يا صاحبي... أتعرف أن هناك يوماً معيناً، تذهب النساء الهندوسيات فيه إلى المعبد، يسجدن هناك ويتضرعن للآلهة أن يعطيهن الزوج في الحياة القادمة.

- فعلاً... غير أني لا أعيره اهتماماً.

حسناً... كل ما عليك هو الذهاب معها في ذاك اليوم، تسجد إلى جانبها، وحين تسمعها تقول: «أعطني الزوج ذاته في حياتي التالية»، فتضرع أنت بصوت خافت جداً: «زوجتي رائعة جداً، إني لا أستحقها، لذا فامنحها رجلاً غيره».

.أحسنت، قال... هذا أمر سهل

وها أنت جئت تسأل: «أيمكنني أن أكون متزوجاً وحراً في الوقت ذاته؟».

نعم يمكنك ذلك، إن لم تأخذ الزواج على محمل الجد... اعتبره مجرد لعبة... تمتع بنوع من حس الدعابة والفكاهة... هكذا تقضي الحياة... لا تكن مثل أولئك الأغبياء الذين يقرأون الروايات ويتأثرون بها، لدرجة أنهم يذرفون الدموع... الروايات هي أساس الأشرطة السينمائية التي يتفنن كتّاب السيناريو بجعلها مؤثرة، لا أنكر أن هناك بعض الروايات مستمدة من الواقع، غير أن هذا لا يمنع أبداً من النظر إلى الحياة، من وجهة نظر تفاؤلية. علينا الابتعاد عن الجدية، علينا محاولة هذا على الأقل، فالتعامل بجدية يسبب المشاكل، والمشاكل ستسبب النزاعات والصدامات وهكذا تتطور الأمور، لتصل إلى مرحلة الإحساس بالهم والكرب والتعاسة.

إعلم، أن الزواج يتم على الأرض، وليس في السماء. إنه يتم هنا، وبمباركة كهنة لا هم لهم إلا وضع القيود في يديك... ولكن، عليك أن تكون صادقاً مع زوجتك، كن واضحاً معها وقل: «الزواج مجرد لعبة، فلا تأخذي هذا الارتباط على محمل الجد... سأبقى حراً كما كنت قبل اقتراني بك، كذلك إفعلي أنتِ... فلا أنا سأتدخل في حياتك، ولا أنت ستفعلين ذلك... سنعيش كصديقين محبين نتشارك أفراح الحياة ومباهجها، دون أن يصبح الواحد منا عبئاً على الآخر».

كذلك يمكنك القول: «لحظة أشعر أن ربيع وجودنا معاً، قد قارب على نهايته وأن شهر العسل انتهى، علينا عدم الاستمرار بالادعاء والتظاهر أن الحب ما يزال يظلّلنا، بل علينا أن نكون واقعيين، ويعترف كل منا للآخر، أن الحب الذي جمعنا، لم يعد موجوداً. إذاً فلتكن أيامنا التي أمضيناها معاً، أيام ذكريات لا أحلى ولا أجمل. غير أن تلك الأيام انتهت وصارت جزءاً من الماضي... وعيشنا معاً تحت سقف واحد، لم يعد تعبيراً

عن حب، بل وفقاً لمتطلبات اجتماعية مفروضة علينا».

كذلك يمكنك القول: «لأني أحبك سأتركك لحظة أشعر أنّ حبي، سيصبح مزعجاً لك، وكذلك أنت، إذا كنت تحبينني فعلاً، فاتركيني لحظة تشعرين أن حبك أصبح أشبه بزنزانة لي».

الحب هو أسمى ما في هذه الحياة.

ويستحيل إخضاعه لمفاهيم بالية وعادات نتنة.

الحب والحرية يسيران معاً. ليس بمقدورك أن تختار واحداً وتترك الآخر. الرجل الذي يعرف ما هي الحرية، هو رجل يفيض حباً، والرجل الذي يعرف ما هو الحب، ويقدره، هو رجل قابل على إعطاء الحرية... إن لم تعطِ الحرية للإنسان الذي تحب، فلمن ستمنحها إذاً؟ إعطاء الحرية لا يعني شيئاً، بل الأهم هو الثقة.

الحرية نوع من التعبير عن الحب.

لذا، إن كنت متزوجاً أم لا، تذكر أن الزواج هو نوع من الخداع، هو مطلب اجتماعي، هدف المجتمع ليس وضعكما في السجن كل مقيد للآخر، إنما هدفه مساعدتكما على النمو معاً. لكن النمو بحاجة للحرية، وهذا ما غاب عن ذهن المجتمع. جميع الثقافات نسيت ـ أو تناست ـ أن الحب، بدون حرية، لن يبقى حباً، بل سيتحول إلى جثة.

أنظر إلى طائر يحلق في السماء، أشعة الشمس تنعكس على ريش جناحيه. حدّق به جيداً، تعرف كم هو جميل، ولكن لو وضعت الطائر ذاته في قفص ذهبي، فهل تعتقد أنه سيبقى هو نفسه؟ ظاهرياً نعم، إنه الطائر ذاته الذي كان قبل هنيهات يحلق في السماء، ولكن، معنوياً لا لم يعد هو... أين حريته التي تمنحه القدرة على التحليق؟

قد يكون هذا القفص الذهبي قيماً بالنسبة لك، لكنه ليس كذلك بالنسبة للطائر... بالنسبة له أهم ما في الحياة، هو أن يحلق حراً في السماء، أن ينتقل من

غصن إلى آخر هو ينتقيه وليس أنت، كذلك هي الحال بالنسبة للإنسان.

من هو الصديق الحقيقي؟

عندي أصدقاء كثر، غير أن سؤالاً يؤرقني من هو الصديق الحقيقي؟ أيمكنك قول شيء عن هذا الموضوع؟

إياك والتساؤل: «من هو صديقي الحقيقي؟» بل قل: «هل أنا صديق حقيقي لهذا أو ذاك؟» هذا هو السؤال الأهم... دعك من الاهتمام بالآخرين، أصدقاء كانوا أم لا... إنتبه لنفسك...

هناك مثل يقول: «الصديق لوقت الضيق». إنه مثل لا يعبر عن الصداقة، بقدر ما يعبر عن الأنانية، ذلك لأنه يحوّل الآخرين، إلى مجرد وسائل، وما من أحد يرتضي أن يكون مجرد وسيلة، وبالتالي، من أنت كي

تقول: هذا صديق حقيقي وذاك لا؟

السؤال الأصح يجب أن يكون على الشكل التالي: هل أنا أتصرف بصداقة مع الآخرين؟ والأهم، هل تعرف ما معنى الصداقة؟ إنها أسمى معاني الحب... في الحب، قد تكون هناك شهوة، أو رغبة جسدية، أما في الصداقة، لا وجود لمثل هذه الأشياء.

المسألة ليست في استعمال الآخرين ولا هي في الحاجة للآخرين. إنها مسألة شراكة وتشارك: ولن يكون بمقدورك المشاركة، إلا إذا كان لديك شيء، تشارك الآخرين به، وإلا إذا كان هناك من يرتضي مشاركتك فرحك أو غناءك أو رقصك... دون أن تنتظر منه شكراً أو امتناناً، بل عليك أنت أن تشكره لأنه تقبل مشاركتك بما عندك. فالصديق هو من يشعر بالامتنان لأولئك الذين سمحوا له أن يحبهم، أو أن يعطيهم شيئاً مما عنده.

الحب يعني الطمع أو الشهرة، ومن المفيد أيضاً

الإنكليزية مستمدة من الكلمة Love معرفة أن كلمة Lobh السنسكريتية وتعني الطمع. والحب هذه الأيام هو غريزة الطمع، إنما مقنّعة بما ندعي أنها أحاسيس حب... الحب إذاً، هو مجرد عطاء لأطماعنا.

من هنا، فاستغلال الصداقة لاستغلال الآخرين، هو مثل خاطئ من الأساس... المسألة ليست مسألة حاجة وليست في أن على الصديق أن يحضر لنجدتك ساعة تشعر أنك في خطر... قد يأتي، وقد لا يأتي، هذا أمر متوقف على إرادته ومشيئته. إن أتى أشكره، وإن لم يأتِ فلا تعاقبه. إنه ليس رهن إشارتك، فلا تجعله يشعر بالذنب... لا تقل له: «يوم كنت بحاجة إليك ما وجدتك، فأي صديق أنت؟».

الصداقة لا تتواجد في الأسواق، بل في المعابد. الصداقة ليست سلعة تباع وتشرى، وحري بك ألا تهتم بمثل هذا النوع من أنواع الصداقة، لأنه ليس صداقة البتة.

الصداقة، أساس سام... قد تكون هناك غريزة طبيعية خلف الحب، أَما خلف الصداقة فليس هناك أي غريزة، طبيعية كانت أم غير طبيعية... الصداقة هي وعي كامل، أما الحب فهو وعي ناقص. إن لم يكن لا وعي، ولهذا نقول «وقع في الحب». جملة معبّرة... معبرة جداً... وقع في الحب، فما من أحد ارتفع إلى الحب. الكل يقع في الحب... لماذا نقول، وقع في الحب؟ لأنه بالفعل يكون قد هوى من علٍ إلى أسفل، من الوعي إلى اللاوعي، من مرحلة النقاء والطهارة، إلى المرحلة الغريزية.

ما تسميه حباً هو أقرب إلى الحيوانية منه إلى الفعل الإنساني. أما الصداقة فهي إحساس إنساني صرف... إنها كالذهب النقي ولهذا يستحيل أن تجتمع الصداقة مع حب رجل لامرأة، أو حب امرأة لرجل... الإحساس بالصداقة يرتقي بالإنسان إلى الأعلى، إلى ما فوق الشهوة والرغبة في التملك، أما الإحساس بالحب، فهو تخلٍ عن البعد الروحي في الحياة، للانغماس في

المادية.

لذا لا تسل، من هو الصديق الحقيقي؟ بل، هل أنا فعلاً صديق حقيقي؟ ما لك وما للآخرين... إنتبه لنفسك، لقد اعتدنا على الاهتمام بالآخرين... هذه هي علتنا وسبب تعاستنا. الرجل يتساءل «زوجتي هل تحبني؟» والمرأة تتساءل «هل يحبني زوجي؟» كيف يكون الحب، وهناك قليل جداً من الشك؟ قد أردد «أحبك» على مسمعك، صبحاً وظهراً ومساء وعلى مدى سنوات، ودون أن يكون في داخلي أي إحساس بالحب نحوك إنما أكون قد أوهمتك أنك حبي الأوحد. ولكن عليك معرفة أن تكرار الأمر، يعني أن هذا الأمر هو مجرد كذبة، مطلوب منك تصديقها.

كتب هتلر في يومياته: «ليس هناك فرق كبير بين الحقيقة والكذب... الفرق الوحيد هو أن الحقيقة هي كذبة تردد على مسمعك دائماً حتى تنسى أنها كذبة». ولهذا السبب يشدد خبراء الدعاية والإعلان على ضرورة الإعلان المتواصل لسلعة ما، بغض النظر،

إن كنت تصغي أو تشاهد الإعلان، لكنهم يوماً ما سيتمكنون من جذب انتباهك وإقناعك أنِ السلعة التي يروجونها هي الأفضل وهيٍ الأكثر تناسباً مع حاجاتك وقدراتك الشرائية. خذ مثلاً الـ «كوكا كولا»... هناك مئات أنواع المشروبات الغازية المشتقة من الكولا، لكننا نسميها كوكا كولا... كذلك المحارم الورقية كلينكس... قد نشتري قنينة «بيبسي كول»ا، لكننا نطلب من البائع قنينة كوكا كولا، كذلك هي الحال عند شرائنا علبة محارم ورقية.

هذا الأسلوب اتبعته بعض الفئات الدينية المنصرمة، فحاخامات اليهود، يرددونٍ علىٍ مسمع الشعب اليهودي، أينما وجد، ودائماً وأبداً، أن اسرائيل هي أرض الميعاد وأن وجوده خارجها مؤقت ومناف لتعاليم الرب... حتى تحولت إسرائيلٍ إلى حلم كل يهودي، مع أن لا رابط بينه وبينها أبداً، سوى أكذوبة يرددها رجال الدين.

كذلك الأمر بالنسبة لبعض الفئات الإسلامية

المتطرفة، والتي الإسلام منها براء... توهم أتباعها أن الله قبل الآخرين، مشركين كانوا أم غير مشركين سيدخلهم الجنة. وهذا الأسلوب اتبعه هتلر في تشديده على أن اليهود هم أصل بلاء الشعوب، حتى أن فيلسوفاً اقتنع بما كان Marvin Heidegger «كـ «مارفن هايديغر يردده هتلر وراح يسانده في كتاباته ومقالاته. ليس عجباً، إذ حتى بعض اليهود اقتنعوا أن ما يقوله هتلر عنهم هو صحيح مئة بالمئة.

ترى ما السر الذي دعا فيلسوفاً كـ «مارفن هايديغر» من مساندة ذاك النبي أدولف هتلر؟... لا ريب أنه التكرار والتكرار... ذلك طالما هناك ملايين الناس تؤمن بما يقوله هتلر، فهذا يعني أن في كلامه شيئاً من الصحة.

وهكذا يزداد عدد المقتنعين بالآراء والأفكار المروَّج لها، وإن أردت معارضتهم تبدو وكأنك تحاول المحال.

من هنا، إن أردت التساؤل، فتساءل عن نفسك، ولا

تهتم بالآخرين. قبل كل شيء عليك أن تكون واثقاً من نفسك، ومن ثم يحق لك أن تطالب الآخرين الوثوق بك. قد تكون تعشق هذا الإنسان الآن، وقد لا تكون كذلك بعد لحظات... كل ما عليك هو عدم الاهتمام بما مضى، ولا بما سيأتي... فكر في اللحظة التي أنت فيها.

إذا كانت هذه اللحظة مشبعة بعطر الصداقة ومعانيها، فلماذا تشغل بالك باللحظة الآتية، ستولد من رحم اللحظة التي أنت فيها، قد تكون أكثر إشباعاً بالصداقة... أقول قد... لهذا السبب أدعوك لعيش هذه اللحظة بكليتها، وإياك التفكير أن عليك أن تكون لأحد معين. فكر فقط بكيف تشع صداقة... لا تفكر بكيف ستكسب أصدقاء، فالأصدقاء سيأتون من تلقاء أنفسهم لمشاركة شذا الصداقة المنبعث منك.

هذا الكون بحاجة لمن يتعاطف معه، لمن يصادقه ويؤازره، وإن تمكنت من أن تتعاطف مع الوجود وتصادقه، فلا شك، فالوجود سيتعاطف معك ويؤازرك، سيرد لك ما قدمته له، إنما أضعافاً

مضاعفة. إن رميت الوجود بحجرة، فسترمى بمئة حجر، وإن رميته بزهرة، فسيرميك بألف زهرة.

الحياة أشبه بالمرآة، تعكس ما ترى، كن صدوقاً فستنعكس صداقتك على صفحة الحياة. كن على ثقة، إن منحت كلباً الصداقة، فسيبادلك الشعور ذاته، فكيف إذا منحت صداقتك للناس؟ لا ريب سيبادلونك إياها.

يقول العلماء إن للأشجار مشاعر وأحاسيس وردات فعل، فإن رفعت الفأس بهدف قطع شجرة، ستشعر هذه الشجرة بالخوف. كذلك الأمر حين تمنحها الحب، فستشعر بالغبطة والفرح... وثق أنك إن منحت صداقتك لشجرة ما، ثق أن هذه الشجرة، ستستقبلك بفرح عظيم، برقصة الحياة، وستنشد لك أجمل أغنية.

هل سبق لك وقلت مرحباً لشجرة؟ حاول ذلك. وستفاجأ ذات يوم بأنها تلقي التحية عليك، بلغتها الخاصة. ليس للشجرة لسان، لكن لها قدرة التعبير. إنها جزء من الوجود، والوجود حساس جداً وهذا ما أعني

به الوجود هو الله.

كن صديقاً للآخرين، بغض النظر إن كانوا أصدقاءك أم لا.

لماذا عادة الهرب وحيداً؟

بعد موجة من الأحداث، وبعد تراكم ذكريات كثيرة وجدت نفسي في مواجهة الوحدة.. ضاعت جهودي للهرب من واقعي سدى. لست أدري، أرى نفسي مرتبكاً بفكرة الهرب وحيداً؟

الوحدة هي قمة النقاء، وما من وسيلة للخلاص منها. فكر ملياً. ابحث عن الحقيقة التي تقاوم... لا شك ستجد نفسك وحيداً... بعد كل تجربة حب ستجد نفسك وحيداً. بعد كل تأمل ستجد نفسك وحيداً.

لهذا السبب، وليس لغيره، ندرك لماذا كل التجارب الحياتية تجعل الناس تعساء... في رحم كل تجربة هناك

مشروع حزن وتعاسة... ما من أحد يرغب أن يغوص عميقاً في أي تجربة، في تجربة الحب، وحده الجنس يكفي... الحب أمر سطحي. ولن يترك أحداً وحيداً... أثناء ممارسة الجنس، نشعر باللهو، نتسلى، نبتهج، لكننا لا نتعرف إلى حقيقة اللهو، وحقيقة الابتهاج. ولا ندخل إلى أعماق ذواتنا. على عكس ما نشعر في الحب... الحب إحساس ينبع من عمق الذات ويترك كل واحد منا وحيداً.

يبدو هذا متناقضاً. البشر العاديون يعتقدون أن الحب هو الطريق إلى التناغم والتناسق... أي كلام تافه هو هذا؟ الحب يجعلك تعي الوحدة، وليس أن نكون معاً... ترى ما الذي يحدث إذا تعمقنا في الحياة؟ إننا نقترب من الوحدة، كلما اقتربت من مركز ذاتك، كلما اقتربت من ذاتك الواحدة... هناك وحدك ستكون وليس أنت، بل ستكون مغموراً بالوعي، أناك هامدة... ستكون هناك غير مهتم بهويتك.

بعد الإصغاء إلى الموسيقى، أو بعد التعرف إلى

معاني أروع القصائد، أو بعد رؤية جمال منظر غروب الشمس، لا شك ستتشعر بالحزن والتعاسة. في الوقت ذاته هناك الملايين الذين قرروا ألا يروا الجمال، ألا يتعرفوا إلى الحب، ألا يمارسوا التأمل، ألا يتضرعوا للآلهة، وهذا يتطلب جهداً مضنياً، يتطلب حجباً للحقيقة، ولكن إلى متى يمكننا حجب الحقيقة؟ الحقيقة قد تتخطاك أحياناً، إنها تمتلكك.

بمقدورك إلهاء نفسك لفترة زمنية، قد تقصر وقد تطول، لكن هذا الإلهاء لن يحل مشكلة... شئت أم أبيت، عليك تقبل الوحدانية، كونك واحد، لم يأتِ مصادفة، بل هو واقع معاش، وحالما تتقبل هذا الواقع، ستتشعر تغيراً إيجابياً في حياتك. البقاء وحيداً لا يعني التعاسة ولن يكون سبباً للمتاعب... البقاء وحيداً هو قمة الصفاء الذهني، هو الوصول إلى ما لا حدود من الحرية، وهل تصدق أن الحرية تجلب التعاسة؟

كل ذلك بسبب سوء فهمك للأمور... فما عليك إلا أن تتجنب إساءة فهم الحالات التي تمر فيها، حين

تعتقد، مثلاً أن كونك وحيداً يعني أنك منعزل عن الآخرين، هذا اعتقاد خاطئ وأنت هنا عاجز عن التمييز بين البقاء وحيداً والعزلة أو الانعزال.

الانعزال لا يعني البقاء وحيداً... الانعزال يعني افتقادك للآخر، بغض النظر، من يكون هذا الآخر، الذي قد يكون امرأة أو رجلاً أو كتاباً أو أي شيء آخر، أي شيء آخر يساعدك على نسيان ذاتك. أي شيء يجعلك غير واع لمن تكون.

هناك فرق كبير بين البقاء وحيداً، والانعزال. الانعزال حالة سلبية. الانعزال يعني أنك تفتقد الآخر، ولكنك لا تدري كيف تهتدي إلى هذا الآخر... أما البقاء وحيداً، فهذا يعني أنك قادر على رؤية الجمال، وأن لا حاجة للآخر، وجودك مع ذاتك يعني أنك قادر على مشاركة كل الوجود، وحدتك هذه. البقاء وحيداً يعني أنك ترى داخلياً وذاتياً، بينما الانعزال يعني الفقر، والحاجة الملحة لأشياء كثيرة.

المنعزل أشبه بالمتسول... الإنسان المنفرد بذاته هو امبراطور. إياك وإساءة الفهم، لا تعتقد أبداً، أن كل ما حدث لك، هو انعزال، واعتقادك هذا، هو نتيجة تجاربك الماضية. هذا ما يريد الماضي أن يقنعك به. دعك من هذه التفسيرات التي هي أشبه بالأوهام، وادخل عالمك الخاص، انتح بذاتك، حاول الدخول إليها عبر أي باب يسمح لك بذلك... ادخل إلى حيث المعبد والكنيسة والمسجد، إلى حيث يمكن الالتقاء مع الألوهة، إلى حيث تصبح قادراً على إيجاد ذاتك، وإيجاد الذات يعني إيجاد الله.

الله واحد أحد... هكذا هو حين تحاول التعرف إليه بدون مفاهيم عقلية أو سوء تفسير لمعنى «الواحد»... والحال هذه، ليس من المستحب الهرب، لأنك تكون كمن يهرب من الحياة، إنه الحياة... الحياة الأبدية الخلود... لماذا على المرء أن يهرب منها؟ البقاء وحيداً، لا يعني أبداً أنك غير قادر على التواصل مع الآخرين... على عكس الانعزال. المنعزل، لا يستطيع

على إقامة علاقات، أو التواصل مع الآخرين، لأنه يريد آخر يتكل عليه، آخر يؤازره... إنه يسعى لامتلاك هذا الآخر، يسعى لذلك بسبب الخوف، ماذا لو تركه الآخر، فما الذي سيحدث؟ سيشعر بالمزيد من الوحدة التي قد تصل إلى حدود الوحشة. والوحشة تعني التعاسة... إنه يريد تملك الآخر، بشكل لا يسمح لهذا الآخر بالابتعاد عنه، ولكن، ماذا لو كان الآخر يسعى بجدٍ لامتلاكك؟ فكيف ستكون العلاقة؟ لا شك لن تكون علاقة ودّ، بل هي أقرب إلى تلك العلاقة التي تربط رجال السياسة، وأقرب إلى علاقة التسلط، أو استثمار الواحد للآخر. كل هذا لأن المنعزل يبقى عاجزاً عن التواصل مع الآخرين، أو إقامة علاقة معهم.

الانعزال لا يمتلك شيئاً يشارك الآخرين به، فكيف يمكن التواصل بين اثنين لا يمتلكان شيئاً، بين إثنين، كل يحاول إعطاء أقل قدر ممكن، ونيل أكبر قدر ممكن؟ يستحيل ذلك، كل واحد هو السبب الرئيسي لتعاسة الآخر.

روى لي أحدهم الحادثة التالية:

التقى رجل بامرأة، صعدت إلى سيارته، جلست إلى جانبه وتفاهما على ممارسة الحب، وقبل البدء نظرت المرأة إلى الرجل وقالت: أنا عاهرة... أمارس الجنس مقابل خمسين دولاراً.

ولماذا لم تقولي هذا قبل دخولنا هذه الغابة؟ على كلٍّ خذي هذه خمسين دولاراً.

وبعد الانتهاء من ممارسة الحب، طلبت المرأة من الرجل إعادتها إلى حيث التقى بها، إذ أن زوجها، وكذلك أولادها، بانتظارها.

ابتسم السائق وقال: إنما هناك شيء يجب أن تعرفيه.

ما هو؟ قالت المرأة.

أنا سائق سيارة أجرة، وعليك دفع خمسين دولاراً كي أوصلك إلى حيث تريدين.

هذا ما يحدث لنا في حياتنا اليومية، بعضنا عواهر وبعضنا سائقو سيارات أجرة. إنه الاستغلال... الكل يستغل الكل وما من أحد مقتنع أن عليه التخلي عن الآخر، وفي الوقت ذاته هو مجبر على العيش معه... هذه هي حال الحياة الزوجية... كذب بكذب.

قد يتساءل البعض، لماذا يرفض الناس التخلي عن بعضهم، إذا كانوا لا يعيشون بسعادة معاً، إنهم غير قادرين على أن يترك الواحد الآخر، وفي الوقت ذاته غير قادرين على العيش معاً. حتى لو تجرأ أحدهم وترك الآخر فسيشعر بالذنب، سيشعر أنه ارتكب خطيئة مميتة... وهكذا يرتضي الاستمرار في العيش مع الآخر دون مشاركته بما يملك. والأبشع أننا نسمي هكذا علاقة، علاقة حب، وهي بعيدة كل البعد عن الحب.

لا حب في الانعزال، ولا تأمل... فقط هناك شعور بالفراغ. ويبدأون بترداد ترانيم دينية، أو أي شيء ينسيهم ما هم به على الأقل... غير أن هذا ليس تأملاً،

بل مجرد وهم، مجرد تغطية للوحشة التي يعيشون فيها، أو قد يذهبون للكنيسة أو المعبد، للتحدث إلى الله لم يعد لديهم سوى الله، يتضرعون إليه، وفي الوقت ذاته يبحثون عن الآخر. قد يهربون إلى الصحراء، ولكن حتى في الصحراء، لن يجدوا الطمأنينة ولا راحة البال. أنت دائماً بحاجة لآخر، حتى ولو تسلقت جبال هملايا، واتخذت من أحد الكهوف صومعة، ستبقى بحاجة لآخر. وقد نقول إن الآخر هو الله، إليه نتضرع، هو من نناجيه... إعلم أنت هنا تخلق إلهاً خاصاً بك، أنت هنا تحاول إقناع نفسك بأنك لست وحدك، وأن هناك من يصغي إليك، ولكن... هل هناك أي إمكانية أن تتبادلا الآراء؟ هل من الممكن أن يتكلم هو وتصغي أنت؟ هذا هو المستحيل، فالله لن يبادلك أطراف الحديث...

أتعرف... انعزالك قد يصل بك إلى حالة الهلوسة، إلى حالة تصبح فيها تتخيل كل ما تراه وفقاً لما تريد وتشتهي. ضل شاعر طريقه في الغابة، مر اليوم الأول

والثاني، بدأ اليأس يتسرب إلى رأسه وكذلك الجوع، وفي الليلة الثالثة، نظر إلى السماء فإذ به يرى القمر مكتملاً، لم يتذكر كم من القصائد التي نظمها وهو يصف القمر، لم يرَ في ذاك المنظر أي جمال. لماذا؟ لأن الجوع جعله يرى القمر أشبه برغيف الخبز الأبيض، لم يصدق ما يرى، القمر تحول رغيفاً، فأين هي تلك القصائد الذائعة الصيت؟

ما حدث للشعر ليس عجباً، فإذا افتقدنا شيئاً لفترة طويلة، نصبح نتخيل هذا الشيء، وقد تتحول كل الأشياء التي نراها، إلى انعكاس له، فلو كان رجل يشتهي رؤية امرأة، لتحولت أبشع الناس في عينيه إلى كليوباطرة. الوحشة لا تخلق حباً، بل حاجة الانعزال لفترة طويلة عن النساء، لا يجعل المنعزل يحب النساء، بل يجعله بحاجة إليهن، بحاجة لأي امرأة جميلة كانت أم قبيحة المنظر... وحتى القبيحة، في هذه الحال، ستتحول إلى أجمل نساء العالم قاطبة.

الحب ليس حاجة، إذاً ما هو الحب؟... الحب

إحساس سماوي، الحب شعور يصعب تفسيره أو إخضاعه للتحليل، الانعزال لن يقود إلى الحب، بل الوحدة تزيد الإحساس به. حين تكون وحيداً تعيش لحظات فرح وسعادة، تشعر إن طاقة الحياة تغمرك وتفيض عن حاجتك، لكنك وحدك، ما من أحد معك، هكذا تبدأ بالرغبة بمشاركة الآخرين ما لديك من فائض طاقة، هكذا تصبح مستعداً للعطاء دون التفكير بما ستنال لقاء هذا العطاء... هذا هو الحب.

وحدهم الراغبون بالحب، هم الذين يرغبون بالوحدة أولاً، وحين تكون وحيداً، ترى نفسك تمارس التأمل بشكل طبيعي وتلقائي... كل ما عليك هو أن تجلس صامتاً، تمارس التأمل بصمت. أنت لست بحاجة لإنشاد أغنية أو ترتيل ترنيمة دينية... أنت بحاجة لمزيد من الصمت، لمزيد من التعمق في ذاتك، لمزيد من التأمل الذي يشعرك أن غيمة بيضاء تحيط بك، غيمة ضوء ونور. أنت الآن ممتلئ حباً ونوراً وطاقة. أنت الآن قادر على مشاركة الآخرين بما عندك. وماذا بإمكانك

أن تفعل أكثر؟ إذا أحسست أن أغنية تولد في داخلك، فما عليك إلا إشهار هذا الحب، تماماً كالغيمة المشحونة بقطرات الماء، وتمطر. وكما الزهرة التي تنتشي عطراً وشذا، فتبعث هذا العطر في الريح، كي ينتشر في كل مكان، وليتنشقه كل الناس، وليس فئة معينة. والأهم، كونوا كالزهرة التي تشكر الريح لأنها ساعدتها على نشر عطرها.

هذا هو الحب... في الحب لا امتلاك.

هذا هو التأمل... بدون أي جهد.

إن ما حدث لك، هو أمر لا يوصف ولا يقدر بثمن، لكنك أنت من يسيء التفسير. فلا تعتقد أن بقاءك، أو وجودك وحيداً يعني عزلة أو وحشة، ولا تعتقد أن محاولات النهي والهروب مما أنت فيه، ستكون لها نتائج إيجابية. ومتى ستهرب؟ إنه هروب من الكنوز المخبأة في داخلك. إنه هروب من تراثك الروحي، إنه هروب من مملكتك الخاصة. وماذا ستكون النتيجة؟...

المأساة أو الكارثة. إذاً لا تهرب أبداً. لقد أمضيت قسماً كبيراً من حياتك وأنت هارب من مكان إلى آخر... أما الآن فقد جاء دور الصمود، دور العودة إلى التعمق في الذات، إلى دخول مملكتك الخاصة مجدداً، الآن صار عليك تذوق طعم الحياة، ومتى تمكنت من هذا، ستجد أن إنساناً جديداً ولد فيك.

منذ مجيئك إلى هنا وأنا أراقبك، أراقبك باهتمام كلي. منذ مجيئك إلى هنا، وأنا أحدق في عينيك، أنظر إلى وجهك فأدركت أن أشياء مهمة وجوهرية تحدث في داخلك، وأدركت أنك تعرفت إلى معنى الحياة والوجود، لذا فإن هربت مجدداً، فستفتقد كل ما حدث في داخلك وكل ما تعرفت إليه... لا تهرب مجدداً، فلطالما فعلت ذلك سابقاً. إن في هذه الحياة، أو في دورات حياتك السابقة. لقد حان وقت عدم الخوف، وقت طرح الذكريات المؤلمة جانباً. وفكر جيداً بإيجابية الوجود وحيداً. وجودك وحيداً لا يعني العزلة ولا الانعزال. إذاً لا ضرورة للهرب. الهرب من العزلة

والوحشة أمر جيد، أما أن تهرب من ذاتك فهذا أمر سيء، هذا أمر يحرمك من فيض التأمل، الذي يمكنك مشاركة الآخرين به دون بذل أي جهد أو عناء. ومتى بدأت تشارك الآخرين، تكون قد خطوت أول خطوة على طريق الالتقاء مع الآخر. يجب أن تتم المشاركة من تلقاء ذاتها، ما عليك إلا الانتظار وسيأتي يوم تتنشق فيه العبير الذي حملته الريح إليك، وهكذا تبدأ المشاركة، ستكون مشاركاً وليس فاعلاً... ستكون مجرد شاهد على ما يحدث حواليك.

لماذا هذا الميل للهرب من وحدتي؟

لأنك لم تعي، حتى الآن، معنى الوحدة، لأنك تعتبرها نوعاً من الانعزال. أنا أتفهم موقفك هذا، كثيرون غيرك، لم يميزوا بين الوحدة والانعزال، لأن العزلة هي الظاهرة الأكثر شيوعاً في الحياة.

في اللحظة التي يولد الطفل فيها، يشعر بالوحشة. لقد ترك رحم أمه. لقد ترك بيته. في تلك اللحظة، يعاني

الطفل من صراع مرير، فهو لا يريد مغادرة رحم أمه الذي أمضى فيه تسعة أشهر، رحم أمه الذي أحبه وأمّن له الدفء والعناية الفائقة. فلماذا عليه أن يتركه؟ ولكن سنة الحياة تقضي أن يخرج من رحم أمه، أن يدخل إلى الحياة ـ أو أن يولد كما نقول ـ غير أن هذه الولادة بالنسبة للطفل تعني الموت، لأنها نهاية الحياة التي ألفها على مدى تسعة أشهر... إنها صدمة... وهكذا يبدأ الإنسان بالتعرف إلى الوحشة والانعزال.

بعد الولادة، يألف أمه أو أباه، إنما سرعان ما يأتي إنسان ثالث هو المربية... وهكذا تبدأ رحلة التنقل من يد إلى يد، ومع كل انتقال يشعر بالخوف، ويأتي يوم، تصبح له فيه غرفة مستقلة. هكذا تبدأ فعلاً مرحلة الوحشة... كل ما عليك ألا تذكر أول يوم نمت فيه في غرفة مستقلة بعيداً عن أمك... عتمة ووحشة لا أحد إلى جانبك، لا أحد يلاعب جبينك بيديه، لا أحد يضمك ويمنحك الدفء... والحال هذه، يبدأ الطفل باللعب في اللعبة البلاستيكية، لكن هذه اللعبة لا تشاركه الابتسامة

ولا الثغاء، فيشعر بالوحشة، ويوماً بعد يوم يتعمق الخوف من الوحشة في نفسه، تذكر أيضاً أول يوم تركت وحيداً في غرفتك، في حين انصرف من عليه الاهتمام بك، إلى التلهي مع أناس آخرين... هكذا تتراكم الجراح، ومع كل جرح يزداد الخوف في نفس الطفل.

هذه هي حياتك، مسار طويل من العزلة والوحشة، وفجأة تجد نفسك أمام تجربة جديدة، تعرفك إلى أهمية وجودك. فجأة تجد نفسك واحداً ضمن مجموعة. إنها الصدمة أو الحيرة... كل تفكيرك مشغول بتجاربك الماضية التي هي كلها تجارب وحشة وعزلة وانعزال.

هناك من يقول إن تجربة الانعزال هي نوع من التنسك.

دعك من هذا التفسير الخاطئ، فالانعزال شيء يختلف جداً عن الوجود منفرداً. الوحشة ليست الوجه الآخر للبقاء وحيداً، المعلم لو ـ تسو Lu - tsu يقول: أنت كمن يشرب الماء وبعد شربها تعرف إن كانت فاترة أو

باردة.

إشرب الآن من ماء الوحدة، واكتسب طاقة جديدة، واشعر بفيضها يتغلغل في كل خلية من خلايا جسدك. وهكذا ستُفاجأ، إنها ليست كما سبق وعرفتها... إنها طاقة جديدة كلياً، إنها الحرية... إنها التحرر من الآخر.

بعد هذه الحرية، يأتي الحب، وبعد التحرر، تكون قادراً على المشاركة. سيكون لحياتك معنى وأهمية، وسيكون لها أبهة لا مثيل لها... وستنعتق ذاتك المشرقة المشبعة بالحب.

الفصل الرابع: عن التوتر والاسترخاء

الاسترخاء الكلّي هو أقصى ما يصل إليه الإنسان، إنها لحظة تحقيق الذات. إنها لحظة التنور، إنها لحظة الوعي، إنما يستحيل عليك الوصول إلى هذه المرحلة الآن. ذلك لأن في داخلك توتراً يمنعك من بلوغ مرحلة الاسترخاء الكلي.

ولكن، حاول البدء بالاسترخاء، حاول ذلك من الحالة التي أنت فيها. إبدأ بإراحة المحيطين بك، أرح جسدك، تصرف باستراحة، امشِ مرتاحاً، افعل كل شيء وأنت مرتاح، لا تكن في عجَلة من أمرك ولا تكن لجوجاً، تصرف وكأن الخلود هو بين يديك، وهو بالفعل بين يديك. منذ البداية نحن هنا، وسنبقى إلى النهاية. إعلم البداية هي الطريق إلى النهاية، فما من نهاية دون بداية... هكذا نحن... كنا هنا وسنبقى هنا. قد تتغير الأشكال أما الجوهر فيبقى هو ذاته. قد يتغير

الجسد، أما الروح فلا تتغير أبداً.

التوتر يعني الخوف والسرعة والشك. التوتر يعني بذل جهد باستمرار كي نكون آمنين ومصانين. التوتر يعني الإعداد للغد منذ الآن، أو لربما لما تبقى لنا من حياة. التوتر يعني الخوف من إمكانية أن يكون الغد غير متوافق مع ما نصبو إليه ونتمناه... التوتر يعني التفكير بالماضي وبما ارتكبت من أخطاء.

تذكر أمراً جوهرياً، كل شيء لم نكمله، سيبقى يلح عليك أن تكمله، سيبقى يصرخ: أكملني... هناك أمر جوهري في كل تجربة، يقضي أن تعيش التجربة بكليتها، وإلا ستبقى تعذبك، ستبقى تذكرك أن هناك عملاً لم تكمله... سيبقى يقول: «ما الذي تريد فعله بي، فأنت لم تكملني بعد. فأكملني».

هذا هو ماضيك، ذكريات، تجارب لم تعشها بكليتها، أو عشتها نوعاً ما، ذكريات تجارب لم تعشها بحرارة بل بفتور. هذا هو أنت، عالق بين ماضٍ يؤرق لياليك،

ومستقبل يخلق لك المخاوف والأوهام، وبينهما ضاع حاضرك الذي هو الحقيقة... كل الحقيقة.

إذاً كي تسترخي كلياً، ما عليك إلا البدء بالابتعاد عن محيطك الذي يجعلك متوتراً. الخطوة الأولى، أرح جسدك، تذكر جيداً، أن عليك الاهتمام بجسدك الذي يحمل على جلده الكثير من الغبار والأوساخ، إن على العنق، أو على الوجه، أو على الصدر والأرجل. فكيف تريده أن يرتاح، ما عليك إلا التوجه نحو كل جزء من أجزاء جسدك، خاطبه بحب قائلاً: استرخِ.

قد تستغرب ما أقول، لكنه جسدك وهو مستعد للإصغاء إليك وتنفيذ أوامرك. فقط أغمض عينيك وادخل إلى جسدك بحثاً عن أي جزء أو عضو مصاب بالتوتر، تحادث معه كصديق إجعل حواراً بينك وبين جسدك. وقل له أن يرتاح ويسترخي. قل له، ما من داع للخوف، أنا هنا لأهتم بك... فاسترح... استرح أنا هنا، ولن أتخلى عنك، وشيئاً فشيئاً ستلاحظ تجاوبه معك، ومن بعدها سيسترخي جسدك.

بعد الجسد، إنتقل إلى العقل، قل له أن يرتاح، وكما أصغى الجسد إليك، سيفعل العقل... إنما عليك أن تبدأ من النقطة الأهم... من الجسد أولاً ومن ثم تنتقل إلى العقل. العقل، لن يعرف الاستراحة، ولا الاسترخاء، طالما هناك جزء من جسدك يعاني من التوتر.

إذا تمكنت من جعل الجسد يرتاح بإرادته، فستكون قادراً على جعل العقل يرتاح بإرادته... أنا لا أفكر أن العقل أكثر تعقيداً من الجسد، قد يتطلب رضوخه لأوامرك وقتاً أطول، لكنه في النهاية سيخضع لك.

متى ارتاح العقل، فابدأ بإراحة القلب، مركز العواطف والانفعالات، والذي هو أكثر تعقيداً... إنما هذا يجعلك أكثر ثقة بنفسك، وستعي أن الاسترخاء ممكن حدوثه، بعدها يمكنك التوغل في أعماق أعماق ذاتك، التي هي أبعد من الجسد والعقل والقلب، إلى عمق مركز الوجود، ولا شك ستتمكن من جعله يسترخي.

الاسترخاء سيجلب معه قمة الغبطة والسرور، ذروة الفرح والسرور. ستمتلئ بالنعمة والبركة وستجد نفسك تشارك الحياة رقصة الوجود.

كل ما في الوجود يرقص، باستثناء الإنسان، الوجود كله في حالة استرخاء... الأشجار تخضوضر، تزهر وتثمر، الطيور تحلق في أعالي السماء، الأنهار تنساب نحو مصبها، النجوم تسطع... كل شيء يبدو وكأنه في قمة الاسترخاء، لا أحد مسرعاً، لا أحد ملحاً، لا أحد قلقاً، إلا الإنسان... الإنسان ضحية عقله.

إبدأ من الجسد، وشيئاً فشيئاً ادخل إلى الأعماق. لا تحاول إرضاء أي شيء قبل جسدك، طالما جسدك متوتر فلن يرتاح عقلك... إذاً إجعل الجسد مرتاحاً قبل كل شيء.

كان بوذا يخاطب تلاميذه، قائلاً: سيروا ببطء، كونوا واعين لكل خطوة من خطواتكم، إذا كنتم واعين لخطواتكم، فهذا يعني أنكم قادرون على السير ببطء

وهدوء.

بوذا كان دائماً يشدد على ضرورة التروي ولا ضرورة للتسرع والإلحاح.

فقط حاول السير ببطء وهدوء، وستفاجأ أن نوعاً جديداً من الوعي يبدأ بالتشكك في داخلك. كل ببطء، وستفاجأ بأروع استرخاء... إفعل كل شيء ببطء وهدوء، وتخلَّ عن كل العادات القديمة.

أولاً، وقبل كل شيء، دع الجسد مسترخياً كل الاسترخاء، ليكن بريئاً كما الطفل المولود حديثاً. إبدأ بما هو سهل، ومن ثم المعقد وبعدها الأكثر تعقيداً... وهكذا بمقدورك الوصول إلى قمة الاسترخاء.

ارتباط الاسترخاء بالوعي

منذ البدء، والاسترخاء أهم ما في الوجود، تبدو المراقبة ممكنة، أو أكثر سهولة.. فهل من الممكن

التعليق على كيفية ارتباط الوعي؟

إنهما ليسا مرتبطين وحسب، بل هما وجهان لعملة واحدة، ما من أحد يقدر على الفصل بينهما. حتى لو بدأت بالوعي، فستجد الاسترخاء يحل عليك من تلقاء ذاته... إذاً لماذا أنت متوتر؟ أنت متوتر بسبب تناغمك مع كل أنواع الأفكار، وبسبب الخوف، بسبب التفكير بالموت، بسبب مأزق مالي، بسبب هبوط سعر الدولار. كل هذه وغيرها تسبّب التوتر، وتؤثر على جسدك أيضاً، فجسدك وعقلك توأمان لا ينفصلان، إنهما وحدة متكاملة، فإن توتر العقل، فسيتوتر الجسد.

يمكنك البدء بالتعرف إلى الوعي، الذي بدوره يفك الارتباط بينك وبين العقل ما يسمح للجسد بالاسترخاء... أنت الآن غير مرتبط بالعقل ومشاكله، ويستحيل وجود التوتر تحت أشعة ضوء الوعي.

كما يمكنك البدء بالوجه الآخر... كل ما عليك هو الاسترخاء، دع كل ما يوترك جانباً، وكلما ازددت

استرخاء، كلما أحسست أن الوعي ينبعث في ذاتك... الوعي والاسترخاء هما واحد، إنما البدء بالوعي هو أسهل، أما البدء بالاسترخاء فهو أكثر صعوبة. ذلك لأن الجهد الذي ستبذله من أجل الوصول إلى الاسترخاء، سيولد لك بعضاً من التوتر.

هناك كتاب أميركي يحمل عنوان «يجب أن تسترخي». انتبهوا إلى كلمة «يجب» فهذه وحدها تسبب التوتر، حتى كلمة «فوراً» تسبب التوتر فكيف بـ «يجب» التي هي أشبه بامر إلهي... هكذا يبدو أن كاتب الكتاب لا يعرف شيئاً عن الاسترخاء.

في الشرق، ما مارسنا التأمل انطلاقاً من الاسترخاء بل من الوعي، ومن ثم يأتي الاسترخاء من تلقاء ذاته، كل ما عليك هو انتظاره، لأنك إن حاولت السعي إليه، فستشعر بالتوتر. فلا تفعل شيئاً. إنه سيأتي إليك من تلقاء نفسه. كما ويمكنك محاولة البدء بالاسترخاء، إنما ليس بموجب النصيحة الأميركية. الأميركيون حديثو العهد في تجارب الحياة، الأوروبيون هم أكثر تجربة

لأنهم أقدم تاريخياَ، أما الشرق فقد أمضى آلاف السنوات بحثاً عن ذاته الداخلية.

عمر أميركا ثلاثماية عام، ثلاثماية عام في عمر الأمم لا تعني شيئاً، لذا فأميركا هي الخطر الأكبر في العالم... السلام النووي تحت إمرة أطفال... على عكس الروس أصحاب التاريخ الذي يعود إلى آلاف السنين.

في أميركا، لا أحد يعرف اسم عائلته التي ينتسب إليها. قد يعرف الواحد اسم جده، أو جد جده ليس أكثر، الأميركيون شعب غير متجانس، إنهم قوم لمم... من هنا يكفي القول، إن الأميركيين ليسوا أطفالاً وحسب، بل هم أجنة مقارنة مع حضارة الشعوب الشرقية عامة والهند خاصة التي هناك من يدّعي أن حضارتها تعود إلى ما بعد تسعين ألف عام. ما يتناقض مع ما جاء في التوراة التي تقول إن الله خلق العالم قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة، ما يعني أن عمر العالم حتى تاريخه لا يتخطى الستة آلاف سنة.

هناك سياسيون، رجال دين، علماء اجتماع وعلماء اقتصاد يسبّبون لك المشاكل التي تنعكس توتراً نفسياً وعصبياً. فكيف الخلاص إذاً، في الشرق تبدأ بالتأمل، والتأمل يجلب الوعي والوعي يجلب الاسترخاء. غير أن الغربيين يقولون غير ذلك، يقولون عليك البدء بالاسترخاء. لذا كان عليّ إيجاد نوع من التأمل، يتوافق مع الغربيين الذين يرغبون بالانضمام إلي فكنت أقول لهم قولوا ما يحلو لكم قوله، حتى ولو كان كلاماً غير مفهوم، هكذا تكونون تعبّرون عما يعذبكم نفسياً وجسدياً... وكنت أنصحهم بممارسة هذا التأمل أولاً، لأنه يساعد الجسد على التخلص من التوتر، ومما لا شك فيه، الخلاص من التوتر، يعني الإحساس بالاسترخاء.

تأمل الثرثرة، يعني أنه يحق لكل واحد أن يقول ما يخطر على باله ولا شك أنه من المسلي جداً سماع الآخرين يقولون كلاماً لا معنى له، قد يكون مؤذياً، وقد يكون مستحباً، كما ويحق لهم فعل ما يريدون، حتى

.ولو أرادوا الجلوس عراة تماماً. فهذا حق من حقوقهم

أحدهم، كان يأتي ويجلس بالقرب مني... يبتسم قليلاً، ثم يمسك سماعة الهاتف، ويبدأ بالحديث، مع من؟ لست أدري، ربما لم يكن يتكلم مع أحد، كان هو يتكلم ويتخيل أن أحداً يردّ عليه وهكذا يعتقد أنه يتبادل .أطراف الحديث مع أحد ما

كل واحد كان يفعل ما يعتقد أنه يريحه. حتى أنهم جاءوا يطالبونني إطالة فترة التأمل هذه وجعلها ساعة كاملة بدلاً من نصف ساعة معللين طلبهم هذا، أنهم يريدون الإحساس بالمزيد من الاسترخاء، وبالمزيد من .الوعي يثير ذواتهم

كان هناك صوفي يدعى جبار، كان لديه مريدون كثر، لكنه لم يكن يطلب منهم شيئاً سوى الجلوس والبدء بقول ما يريدون. حتى هو كان يحادثهم هذا، كان يقول لهم كلاماً تافهاً لا معنى له. لا أحد يفهم ما يريد قوله، أو ما يقصد مما يقول... مهمته الأساسية، كانت

تحريض الناس على قول ما يخطر على بالهم. لماذا؟ لأنه هكذا يخلّص العقل من أسباب توتره.

لقد تمكن جبار من مساعدة الكثيرين للوصول إلى مرحلة الصمت المطبق... لقد أصبح العقل فارغاً... لا شيء فيه. إذاً الصمت هو البديل عن الثرثرة، ورويداً رويداً يشع نور الوعي.

ما يصح على العقل يصح على الجسد أيضاً... دعه يتحرك كما يحلو له، إن أراد أن يرقص فليرقص، إن أراد الركض، فليركض... قل له: «أنت حر... فافعل ما تشاء». وستتفاجأ وتصرخ: «رباه أفعلاً كان جسدي يريد فعل كل هذه الأشياء وأنا كنت أمنعه عن فعلها... إذاً أنا كنت سبب تعثره؟».

هناك نوعان من التوتر، التوتر الجسدي والتوتر العقلي، ويجب التخلص منهما قبل البدء بالاسترخاء الذي بدوره يجلب الوعي، مع أن البدء بالوعي هو أسهل وأجدى نفعاً. لكن المشكلة، هي في أننا كثيراً ما

نرغب باستعمال الوعي، دون أن نكون واعين لما نفعل... دون أن نكون واعين لأعماق ذواتنا. كنا نصب اهتمامنا على ما يجري في الخارج فقط. وأهملنا ما يجري في داخلنا، كل ما علينا هو أن نجده ونغمض عينينا. فلا شك ستتوالى لنا أشياء وأشياء: الأفكار والانفعالات والأحلام والتخيلات وما شابه.

إن ما تفعله مع عالمك الخارجي افعله مع عالمك الداخلي، وستصبح الشاهد، الشاهد على ما يجري في الخارج والداخل، ولحظة تتعرف إلى أهمية كونك شاهداً، ستعيد ما فعلته كلما سنحت لك الفرصة، ستغمض عينيك وتجلس صامتاً، مراقباً ما يجري حولك وفي داخلك.

لا ضرورة أن تقصد كنيسة أو معبداً أو جامعاً، يمكنك الجلوس في حافلة النقل العام، أو أي مكان تراه مناسباً، ليس مطلوباً منك فعل شيء إلا إغماض عينيك، وهكذا تكون تحافظ عليها مما قد يصيبها من تلوث، أو ما قد تراه من مناظر مقرفة. أغمض عينيك، وخذ

الوقت الكافي لمراقبة نفسك، فهذا الوقت سيكون أجمل أوقات حياتك.

شيئاً فشيئاً سيبدأ الوعي بالنمو والتغلغل إلى داخل كل خلية من خلايا جسدك. وستبدأ كل شخصيتك بالتغير، ستشعر بالانتقال من اللاوعي إلى الوعي... إنها وثبة رائعة.

هل من الممكن أن أصبح متنوراً ومسترخياً بسهولة؟

هل من الممكن أن أصبح متنوراً بطريقة سهلة ومريحة، وبدون عناء وجهد؟

جئت تسألني هكذا سؤالاً، وأنا الذي أمضي معظم وقتي ناقماً ولا أصحو إلا قليلاً أعود بعدها إلى النوم... جئت تسألني عما هو صلب فلسفتي الحياتية، عليك ألا تبذل أي جهد، لا تشعر بأي توتر، وفجأة تشعر به وكأنه حديقة زهور غنّاء.

غير أن هناك، من سيقول لك عكس هذا القول. سيقول لك الطريق إلى التنور وعرة وشاقة وطويلة ومن يدري قد تضل طريقك، وهكذا تكون أضعت تعبك سدى...

هناك الملايين الذين حاولوا إيجاد الطريق المؤدي إلى التنور، لكنهم لم يتمكنوا... يستحيل الوصول إلى التنور إلا إذا كنت صامتاً ومسترخياً... فقط تعرّف على الصمت المغلق، وفجأة سيشع النور من عمق ذاتك.

أولئك الضالون، بكل بساطة، يدمرون عقولهم وأجسادهم، وهم يزعمون أنهم يسعون وراء التنور... التنور لا يأتي إلا إلى حيث يكون الاسترخاء، الاسترخاء هو التربة الخصبة التي تنمو فيها زهور التنور.

من المفيد جداً أن تكون مسترخياً، ألا تكون تبذل أي جهد، على العكس، إنه لمن المفيد جداً أن تسمح للنعاس بالتغلب على عينيك... لا ضرورة للبحث أو السلب.

وحده الاسترخاء يعرفك إلى ذاتك، وحده الاسترخاء يجعل الأعشاب تنمو من تلقاء ذاتها.

المطلوب هو اليقظة والتفكير والوعي، وكل هذه لا تتطلب أي جهد، كذلك المشاهدة والمراقبة لن تسبب أي توتر... إنها تجارب رائعة، فلماذا لا تريد التعرف إليها؟ إعلم أن أي جهد تبذله من أجل الوصول للتنور، هو جهد فانٍ ولن يجدي نفعاً.

أنت متنور بطبيعتك فلا ضرورة للتعرف إليه، إنه فيك منذ ولادتك، وطالما أنا اعتبرك متنوراً، فإني أرى شعلة الضوء في داخلك، أنا لا أراك كجسد، بل أرى كينونتك التي هي أجمل شعلة.

قيل إن بوذا تعجب، تعجب جداً، حين أدرك أنه في اللحظة التي أصبح فيها متنوراً، صار كل الوجود متنوراً... أدرك ذلك من التغييرات التي طرأت على حياته. صار قادراً إلى النظر في ذاته كما لم يكن قادراً من قبل. أدرك كذلك، أن كل شيء أصبح متنوراً، حتى

الحيوانات والأشجار، كل شيء صار يرغب بالتحقق من طبيعته، ويرغب بالتأكد من أن لا فرح دون حياة.

الحياة تقضي أن يتعاون الكل، لا أن يسعى أحدهم لشقاء الآخر. تقضي أن يتكاتف الجميع ويتعاضدوا، لكن الحقيقة هي غير ذلك، فالكل يسعى للإيقاع بالآخرين، لجعلهم تعساء، بدلاً من مساعدتهم للحصول على ما يسعدهم ويفرحهم... لهذا السبب نرى الغيوم السوداء تلفّ الكرة الأرضية، ولولا أمثال هؤلاء، لكانت الحياة مهرجاناً دائماً.

كل هذا، لأننا لم نصل إلى التنور بعد، ولأن هناك من يحاول إقناعنا، أن الوصول إلى التنور مهمة صعبة وشاقة، ويبقى سبب أهم، ألا وهو أن العقول البشرية تسعى دائماً خلف الصعاب، فالأنا تسيطر على تفكيرنا، والأنا لا تثبت وجودها إلا من خلال التحدي، اعتقاداً منها أن التحدي يكسبها العظمة والرفعة.

وبالفعل نجح هؤلاء بإقناع الملايين، أن لا ضرورة

للسعي وراء التنور، فعلوا ذلك بأسلوب ذكي متميز لاجئين إلى كل الحجج التي تثير الأنا عندك... لقد تمكن هؤلاء، من إغراقك في برك وحول الحياة، إنهم يريدونك أن تكون مثلهم، أن تعيش في الظلمة، أن تعيش في الألم والعذاب، لا شك أن أمثال هؤلاء سيجدون أنفسهم ـ ذات يوم ـ يتقوقعون كما العبيد، لأنهم فقدوا كل السبل التي تودي بهم إلى النجاة، وتمسكوا بكل ما يبقيهم في الشقاء والتعاسة، لأنهم يسعون إلى ما لا يمكن تحقيقه وإنجازه.

هل سبق لك ورأيت كلباً يرتاح تحت أشعة شمس صباح يوم من أيام الشتاء؟... رأى ذاك الكلب ذيله، فتساءل: ما هذا؟ فقفز بهدف التقاطه، لكنه فشل، وهكذا راح يقفز ويقفز بهدف التقاط ذيله، لكنه عبثاً قفز، وعبثاً سعى... دون أن يعرف أنه يستحيل التقاط الذنب، لأنه جزء منه... وهكذا هم أولئك الذين لا يريدونك أن تكون متنوراً، إنهم يحثونك للوصول، إلى ما لا قدرة لك على الوصول إليه.

التنور ليس بعيد المنال، والوصول إليه ليس مستحيلاً. ليس عليك أن تفعل شيئاً. إنه جوهر طبيعتك... كل ما عليك فعله هو الاسترخاء كلياً ولو للحظات قليلة، متناسياً أن عليك بذل جهد، أن عليك أن تفعل شيئاً، هكذا تكون غير منشغل بشيء، هكذا تصبح «صافي الذهن، وهذا ما يجعلك تعي «من تكون.

التنور هو أسهل اشياء الحياة، غير أن هناك من لا يريد ذلك، من لا يريد أن يصبح العالم متنوراً، وإلا تحول العالم إلى مجتمع أحرار، والحرية تعني عدم العبودية، وهم يريدونك عبداً لهم... يريدونك أعمى لا تبصر... يريدونك عبداً لأنانيتك.

الأنا لا تهتم بالمرئي والواضح، إنها تهتم بالغموض وبما لا يرى، الأنا تهتم بتحقيق الأهداف، وكلما كثرت الأهداف، كلما شعرت أنها الأقوى وأنها المسيطرة... لكن التنور ليس، ولن يكون أبداً ـ هدفاً من أهداف التنور، لأن التنور هو منك وفيك، هو أنت، إنه ليس بعيداً عنك.

.الباحث هو المطلوب

.المراقب ـ بكسر القاف، هو المراقب ـ بفتح القاف

.العارف هو المعروف

هكذا أنت والتنور... لحظة تدرك أن جوهر وجودك، هو التنور، تعي أن لا ضرورة للبحث عنه في الخارج... لأنه في الداخل. إن أردت قول دين في وتعني الطبيعة. إذاً Dharma السنسكريتية تقول دهارما الدين هو طبيعتك المميزة. لا يعني كنيسة ولا معبداً ولا لاهوتاً... بكل بساطة، إنه يعني طبيعتك الخاصة... على سبيل المثال، ما هي خاصية النار؟ أن تكون مرتفعة الحرارة، وما هي خاصية الماء؟ أن تكون متدفقة باردة. وما هي خاصية الإنسان؟... أن يكون .متنوراً، ومن خلال تنوره يتعرف إلى الألوهة

إن تمكنت من إدراك ما سبق وقلته، تكون عاقلاً، أما إذا لم تكن قادراً على ذلك، فأنت إنسان متعلق بالأنا. أنت مجرد أناني تحاول، أن تكون ثرياً، كما هناك

عديدون يحاولون أن يكونوا أقوياء، أن يكونوا متنورين، غير أن التنور مستحيل مع وجود الأنا. الثراء ممكن، السلطة ممكنة أيضاً، وكذلك الوجاهة والتنور، لكن لهذه أثماناً باهظة.

هنري فورد، واحد من أغنى أغنياء العالم، إنه صاحب شركة فورد التي يفوق عدد العاملين فيها الثلاثماية ألف عامل. سُئل: ما هي أمنيتك للحياة ما بعد هذه الحياة؟

فأجاب: أن أولد فقيراً وأبقى كذلك، إني أكره أن أكون واحداً من أثرياء العالم... لأني اتطلع إلى أسبوع استراحة... تعودت الوصول باكراً إلى مكتبي، في حين يصل العمال عند الثامنة صباحاً، والإداريون عند التاسعة أما المدراء، فيصلون عند العاشرة، هذا إن لم يحضروا أصلاً. وعند الثانية بعد الظهر ينتهي دوامهم، كما ينتهي دوام العمال عند الخامسة من بعد الظهر، فيما أنا أبقى في مكتبي، إلى منتصف الليل أحياناً، حتى في أيام العطلة، أحضر إلى مكتبي.

إنه لأمر شاق وصعب... إنما يمكنك أن تكون واحداً من أثرياء العالم، دون بذل هذا الجهد، لأن بذل الجهد، يجعل التنور بعيداً عنك، بذل الجهد يعني التوتر العقلي، والتوتر العقلي سيؤدي إلى توتر جسدي، وهكذا تكون كمن يسير عكس السير. فكيف ستصل إلى التنور وأنت تسير في الاتجاه المعاكس لوجوده؟

أنت بحاجة لمن يطلق سراحك، أنت بحاجة لراحة بال قصوى، أنت بحاجة للاسترخاء. أنت بحاجة للصمت، وفجأة تدرك أنك مولود متنوراً، شئت ذلك أم أبيت.

هناك من يريدك أشبه بسلعة، فيصنّفك وفقاً لما يشتهي: مسيحي، هندوسي، بوذي، ما هذا! لم يقل أبداً، إنك إنسان متنور بطبيعتك، وإن تصنيفك بحسب الدين أو المبدأ، ينزع صفة الإنسان عنك، ويحولك إلى سلعة تباع وتشرى.

إن تمكنت أن تصل إلى مرحلة التنور القصوى،

ستصبح شعلة ضوء، تنير دروب الآخرين، تصبح فرحة وبهجة، لك وللآخرين. ستصبح نعمة تحل عليك وعلى كل الوجود، ولا ريب ستبلغ أقصى درجات الحرية والتحرر. لا أحد يتمكن من استغلالك، لا أحد يتمكن من استعبادك ولا يريدونك متنوراً... همهم الأول والأخير، إبقاؤك لعبة بين أياديهم ومص دمك حتى آخر نقطة دم في شرايينك.

إن كنت تريد أن تكون حراً، فما عليك إلا إن تكون متنوراً.

إن كنت ترغب أن تكون خصوصيتك، فما عليك إلا أن تكون متنوراً.

إن كنت ترغب أن تعيش حياة مباركة، مملؤة نعمة، فما عليك إلا أن تكون متنوراً.

التنور هو المفتاح لحياة الخلود، إنه التجربة الأهم في حياتك... إنه الأهم، والذي ليس مطلوباً فعل شيء من أجل الوصول إليه، لأنه موجود فيك، لأنه قابع

داخل ذاتك ينتظر اللحظة التي تكتشفه فيها... كل ما عليك هو الاسترخاء... الاسترخاء بقدر ما تشاء، وستتعرف إلى التنور.

لا معنى واحداً للفلسفة عند الغربيين والشرقيين... الغربيون يقولون إن الفلسفة هي البحث عن الحقيقة، هي حب المعرفة، أما نحن الشرقيين، فالفلسفة عندنا، لا تعني بحثاً ولا حباً، بل تعني رؤية الحقيقة... لأن الحقيقة ماثلة أمامنا... وهناك فرق كبير ما بين البحث والحب من جهة والرؤية من جهة ثانية.

حقيقتك ليست بحاجة لمن يبحث عنها، بل هي بحاجة لمن يراها، أنت لست بحاجة للذهاب إلى هنا أو هناك. بل أنت بحاجة للدخول إلى ذاتك...

حتى تتعرف إلى حقيقتك، عليك إيجاد مساحات فارغة داخل حياتك، مساحة ستمتلئ بنور الحقيقة الذي سيشع متى تعرفت إلى حقيقتك. النور الذي لن ينير حياتك وحسب، بل وسيجعلك تشارك الآخرين فيه،

فتتحول حياتك وحياة الآخرين إلى مسرح فرح وغبطة لإدراك معنى الجمال، جمال وعيك.

الفصل الخامس: عن الأنا

الأنا عملية مقارنة، أما احترام الذات والاعتزاز بالنفس فهما ليسا كذلك. الأنا، دائماً تضع نفسها في قبالة الآخرين، لتظهر أنها الأفضل، والأعلى مكانة... الأنا تقول للآخر، أنت مجرم وأنا بريء... هكذا يبدو واضحاً أن عملية المقارنة بين شخص وآخر، هي تغذية للأنا وهي سبب وجودها.

الاعتداد بالنفس لا يتطلب مقارنة، ولا يتطلب تحقيراً للآخرين: المعتّد بالنفس، يعلنها صريحة أنا أحترم نفسي، وأحب نفسي وأنا ممتن جداً لوجودي في هذا العالم الجميل... ولا يوجه إساءة لأحد، أو يقارن نفسه بأحد، مدركاً أن عملية المقارنة هذه، هي لعبة قذرة.

احترامي لنفسي، لا يعني أني أضع العراقيل التي تحُول دون احترامك لنفسك... وإنه لمن الطبيعي جداً،

أن أشجعك على احترام نفسك، لأنك إن لم تكن كذلك، فكيف تطلب من الآخرين احترامك وتقديرك؟ وإن لم تكن معتزاً بكونك كائناً بشرياً متمتعاً بالوعي ومدركاً لأهمية هذا الوجود، فمن إذاً سيحترمك، أو يعتز بصداقته لك؟

كونك معتداً بنفسك، لا يعني شيئاً، سوى شكر الوجود على كل ما أعطاك، لقد أعطانا ما لا يقدر بثمن، أعطانا ما لا نستحقه.

احترام الذات ليس عملاً مقارناً، والاعتزاز بالنفس هو تعبير عن الإحساس بالكرامة التي أعطاك الوجود إياها، الكرامة التي خلقها الوجود ملازمة لك. إنه الوجود يريدك أن تكون صاحب كرامة، ليستمر مرحباً بك وفاتحاً لك ذراعيه، معلناً أنك لست طفلاً غير مرغوب فيه، أنت لست طفلاً لقيطاً، بل لن تمر لحظة، إلا ويواصل الوجود ينقذ بك روحك، ويمدّك بالنور وبكل ما أنت بحاجة إليه.

الاعتزاز بالنفس، ليس مساوياً ولا مشابهاً للأنانية، كذلك هو احترام الذات.

الأنا عملية مقارنة، وهكذا تتحول إلى لعبة قذرة... إنها مرض نفسي، الأنانية تعتمد، ليس على الاعتقاد، بل على الجزم بأنك الأرفع مكانة ومنزلة، بأنك الأحق والأجدر بالتقدير. وهذا، ودون أي شك، لا يمتُّ إلى الإنسانية بصلة. أما كونك معتزاً بنفسك، فهذا لا يعني أبداً أنك تحاول جعل الآخرين دونك مستوى على شتى الصعد، بل، على العكس، هو يعني ترحيبك باحترام الآخرين لذواتهم واعتزازهم بها.

أنا ضد الأنا ـ الأنانية، غير أني لست ضد الاعتداد بالنفس واحترامها، الاعتداد بالنفس واحترامها هما أهم صفات الإنسان.

التواضع، الخجل والخوف

ما الفرق بين التواضع والخجل والخوف؟

هناك فرق كبير بين التواضع والخجل والخوف. غير أن الإنسان الجاهل ـ اللاواعي، ليس قادراً على التمييز بين هذه الأفعال الثلاثة، بالرغم من وضوح الفرق بينها، ومع أن السؤال عن الفرق في ما بينها، هو سؤال ليس بمحله.

عليك أولاً التعمق في كلمة «تواضع» التي أسبغت الديانات عليها معنى مغايراً لها... لقد قالوا التواضع هو نقيض الأنانية، والحقيقة التواضع هو ليس هذا. ذلك، لأن حتى الكلمة الأكثر صحة لنقيض الأنانية يبقى فيها شيء من الأنانية، إنما مختبئ خلف واجهة جميلة المنظر. لأنه قد يضر الإنسان المتواضع نفسه أنه الأكثر تواضعاً مقارنة مع الآخرين... أوليس هذا الاعتبار هو دلالة على تأثير الأنا... الحقيقة، ما من لغة تعبر عن التواضع.

أخبرني أحدهم، أن ثلاثة رهبان مسيحيين، كانوا

يسكنون في ثلاثة أديرة متجاورة والمشيدة على سطح أحد الجبال، وكانت الطريق التي يسلكونها تعترض عليهم الالتقاء يومياً. وذات يوم حار، وجدوا أنفسهم مجبرين على أخذ استراحة، والتفيؤ بأغصان شجرة كبيرة. هكذا لا بد من أن يكلم كل منهم الآخر. في النهاية هم مسيحيون، مؤمنون بالمسيح وبصلبه وقيامته من بين الأموات، ومؤمنون أن أمه مريم حبلت به بلا دنس. ولو كان كل واحد ينتمي إلى طائفة مغايرة لطائفة الآخر.

بادر أحدهم إلى القول: لا شك أن في ديريكما أشياء كثيرة رائعة، لكنكما تبقيان تفتقران إلى الحكمة الموجودة في ديرنا وكذلك المستوى التعليمي.

فرد عليه الثاني، قائلاً: ما كنت أرغب بمثل هذا الحديث، لو لم تبادر أنت فيه، قد يكون ديركم متمتعاً بالحكمة وبمستوى تعليمي عالٍ، لكن المسألة ليست هنا، بل هي في أن لا أحد أكثر حصافة ورزانة وجدية وتمسكاً بالنظام وبالإيمان، من أولئك الناس المقيمين في

ديرنا.

نظر الثالث إليهما، وقهقه بالضحك: أنتما محقان فيما تقولان عن ديريكما، لكنكما تجاهلتما جوهر المسيحية: التواضع، وهذا ما يجده كل الناس عندنا، إذ «أنت» الأعلى مرتبة في التواضع.

الأعلى مرتبة في التواضع... بكل بساطة هذا يعني كبح جموح «الأنا» ومحاولة القضاء عليها، طمعاً بدخول الجنة والتمتع بخيراتها. هذا يعني أيضاً، أن الإنسان قادر على كبت أنانيته ليبدو متواضعاً... الحقيقة هذا تواضع مزيف، وما لم تدرك ما هو المزيف، لن تدرك ما هو الحقيقي... ومتى توصلت إلى اكتشاف المزيف، ستبدو الحقيقة واضحة من تلقاء ذاتها.

المتواضع المزيف، هو من تمكن من كبت «أناه» وتظاهر أنه متواضع، لكنه راغب في أن يكون الأفضل ويحتل المرتبة الأولى بالتواضع... فأين هو التواضع هنا؟

التواضع الحقيقي لا علاقة له مع الأنا... إنه لا يكون إلا بعدم وجود الأنا، والمتواضع الحقيقي هو من يتقبل نفسه كما هي دون تطلع نحو الأفضلية... الناس هم هم... فلماذا نقارن بينهم؟ لماذا نصنفهم؟ هذا أفضل، وذاك دوني؟

في الوقت ذاته، عليك فعل الكثير للتعرف إلى المتواضع الحقيقي، حتى ولو بدا لك على أنه كذلك.

جاءتني ذات مرة مبشرة مسيحية، وقدمت إلي الكتاب المقدس طالبة مني قراءته بتمعن. كانت تبدو متواضعة جداً، إنما، ما إن قلت لها: «أبعدي هذه التفاهة عن عيني... كتابك هذا هو أبعد ما يكون عن القداسة»، حتى انتفضت صارخة بوجهي، معبرة عن غضبها، متناسية تواضعها، فما كان مني إلا أن ابتسمت وقلت لها: «يمكنك إبقاء هذا الكتاب مكانه، وثقي أني سأقرأه بتمعن، إنما اسمعي ما أقول: أنت لست متواضعة وإلا لما كنت انفجرت غاضبة، ولما أهنتني».

بكل بساطة، التواضع الحقيقي هو انعدامية الأنا، هو التخلي عن كل ما تراكم فوقك من تفاهات وهو أن تكون مخلوقاً أشبه بطفل صغير لا يعرف من هو، ولا يعرف شيئاً عن العالم، أشبه بطفل يرى كل شيء بوضوح، يرى خضرة الشجرة كما لا يراها أحد... أنت بحاجة للبقاء بريئاً.

المتواضع هو من لا يعرف شيئاً، هو الذي يعيش ضمن دائرة مغلقة، هي دائرة الطفولة... إنه الطفل الذي يندهش لرؤية كل جديد، إنه يجمع الحجارة الصغيرة والأصداف عن الشاطئ، ويعتقد أنه يجمع الأحجار الكريمة.

في طفولتي، كنت أزعج والدتي وكذلك الخياط الذي يخيط لي ثيابي. كان ينزعج مني، لأني كنت أطلب منه وضع الكثير من الجيوب، إن في البنطال أو السترة، كنت أطلب منه كذلك، لأضع تلك الحصى التي كنت أجمعها عن ضفة النهر. وهذا ما كان يزعج والدتي.

الطفولة تعني وضوح الرؤيا، تعني الشفافية، حيث العالم يبدو أشبه بأعجوبة، والرجل المتواضع هو من يحب العودة إلى وجوده العجائبي... أنظر في ذات التربة، تنبت آلاف زهور الملوش آلاف الورود، آلاف الأشجار المثمرة، الأرض خشنة جداً وفي الوقت ذاته يُزهر فيها أنعم الورود وأكثرها جمالاً، الأرض ليست خطراً، فمن أين تأتي خضرة الأشجار؟

المتواضع هو الذي يعود طفلاً، لا شيء عنده ليعلنه، بل كل ما عنده هو الامتنان للوجود، هو الطفل المندهش من كل شيء.

كان جنيد أحد المتصوفين المسلمين يردد دائماً: «لست أدري كيف أشكرك على ما أعطيتني... أنا فقير معدم، ليس بمقدوري أن أقدم لك شيئاً، سوى الشكر والامتنان». هذا ما كان يردده دائماً أمام طلابه وعلى مسمعهم.

وذات مرة كان جنيد في طريقه إلى مكة المكرمة،

تنفيذاً لفريضة الحاج برفقة طلابه، وامتنع أهالي الضيع عن استقبالهم، إذ كان المسلمون يعتبرون التصوف بدعة، إن لم يكن خروجاً عن الإسلام، وهكذا كان عليهم المبيت ثلاثة أيام في الصحراء حين كاد أن ينفذ زادهم وصار عليهم الاقتصاد في الشرب، وبالرغم من هذا كان جنيد يردد على مسمع تلاميذه: «أنا فقير معدم، وليس بمقدوري أن أقدم لك شيئاً» ما أثار غضب أحد الطلاب، فطلب منه حذف هذه الجملة من تضرعهم وابتهالهم لله، فما كان من جنيد إلا أن خاطب ربه قائلاً: «مهما أعطيتنا، فرحمتنا واسعة... وكما تعلم فنحن فقراء جداً، وليس بمقدورنا أن نرد لك شيئاً مما أعطيتنا، إلا الشكر والامتنان».

عاد التلميذ وطلب منه شطب هذه الجملة الأخيرة.

نظر جنيد إليه وقال: «يبدو أنك لم تدرك معنى ما أقول... إن الله أخضعنا خلال الأيام الثلاثة لتجربة إيمانية. فلو أعطانا الأهالي الطعام لنأكل، والماء لنشرب، وقدموا لنا المأوى، لما كنت أعترض على ما

قلت. إنها أول ثلاثة أيام نشعر أنها ليست أيام نعيم. ليست أياماً يجب أن نشكر الله لأجلها، غير أنه مهما حدث، سأبقى أشكره على ما أعطاني، حتى وأنا على فراش الموت، سيبقى القول ذاته على شفتي، إن عليّ شكر الله على كل ما يقدم ويعطي».

الإنسان المتواضع هو من يقدم الشكر والامتنان بلا شروط، وليس الشكر لله فقط، بل وللكائنات البشرية أيضاً، للأشجار، للنجوم، ولكل شيء في هذا الوجود.

أما أن تكون خجولاً، فهو يعني طريقة أخرى للتعبير عن تأثير الأنا، التي تحاول الاختباء وراء شيء يبدو جميلاً ظاهرياً. الخجولون الذين يشعرون بالخجل، وفي الأغلب الأعم هم نساء الشرق، هم الذين يشعرون بالخجل، حين يسمعون أحداً يطري على أفعالهم ويثني عليها. وقد لا تكون تستحق ثناء أو إطراء، أو عند سماعهن أحداً يتغزل بجمالهن، بالرغم من معرفتهن أنهن لسن على قدر من الجمال الذي يثير الانتباه.

في الغرب، تخلت النسبة الكبرى من النساء عن إظهار الخجل، إذ بتن يعتبرنه نوعاً من أنواع العبودية، والمرأة الغربية تحررت وأصبحت واقعية. ولم تعد بحاجة لمن يقول لها عنها إلا الحقيقة.

ما هي اللحظات التي تجد نفسك فيها مجبراً على الإحساس بالخجل؟

إنها تلك اللحظات التي يمدحك فيها إنسان، على ما هو ليس فيك... فعلاً كمن يقول لك: «أنتِ جميلة جداً»، وفي الواقع أنت تعرفين، أنك لست كذلك، وأن ما قيل هو ليس حقيقة وما الإحساس بالخجل هنا، إلا ردة فعل الأنا على ما سمعت.

بمقدورك القول لأبشع رجل، أو لأبشع امرأة: «يا إلهي، ما عرف العالم امرأة تشبهك، أنت جميلة إلى حد لا يمكن مقارنة جمال كليوباطرة بجمالك». وبالطبع، حتى أقبح امرأة ستجيبك: «أنت الإنسان الوحيد الذي يقدر الجمال».

هذه هي الأنا تعبّر عن ذاتها بألف وسيلة ووسيلة.

اللا أناني، هو من لا يشعر بالخجل... هو من لا يريدك أن تمدحه عما هو ليس فيه، هو من يريدك أن تتفوه بالحقيقة، كل الحقيقة.

وتأتي إلى القسم الأخير من الموضوع .. الخوف والتواضع المزيف والإحساس بالخجل، كل هذه المظاهر مختلفة للتعبير عن الأنا، فباستثنائها، لا عنصر في جسدك يشعر بالخوف. وحدها الأنا تخاف، تخاف من التغلب عليها، وتخاف من الموت، إنها مرتبطة كلياً مع الجسد، لذلك فالموت هو أكثر ما يخيفها لأنه يعني اضمحلال الجسد.

اضمحلال الجسد لا يعني الموت، بل يعني الانتقال إلى عالم أوسع وأرحب وأخلد... وحده الجسد يموت ويفنى وينتقل إلى المادة، إلى التراب، أما الوعي فيبقى خالداً وينتقل إلى عالم الخلود. من هنا، وكون الأنا مرتبطة بالجسد، فهي دائمة الخوف، وهي أساس

الإحساس بالخوف.

الإنسان اللاأناني، إنسان لا يعرف الخوف.

انطلاقاً من تجربتي، يمكنني القول: يوم تختفي الأنا، نتعرف إلى التواضع النقي، ولن يكون هناك أي داع للشعور بالخجل، والأهم، أنه لن يكون هناك شيء يخيفنا.

بمقدور هذه التجربة أن تكون تجربتك، وإن لم يحصل ذلك، فالتأمل قد يساعدك على التخلص من الأنا والخجل والخوف.

ما هي الأنا؟

ما هي الأنا؟ البقاء غير متنورين؟ هل نحن نعمل دائماً وفقاً لمشيئتها، أم أن هناك لحظات نكون متحررين منها؟

لكل واحد مركز غير منفصل عن مركز الوجود الأساسي... إنها الحقيقة... هناك مركز واحد للوجود وإلا لما كان وجوداً، بل هو مصدر الوجود... إنه واحد، ولهذا نسميه الكون، وله مركز واحد.

غير أن هذا يستوجب التأمل قليلاً. هناك من سيأتي ويقول: إنه مركزي، لكنه في الوقت ذاته هو مركزك أنت، ومركز أي كائن بشري. هذا لا يعني أن لا مركز محدد لك، بل يعني أنه ليس لك مركز مستقل. بكلمة أخرى، يمكننا خلق دوائر عدة حول مركز واحد. إنتبه إذا رميت حصاة في مياه بحيرة راكدة، ستتشكل على وجه الماء دوائر متعددة قد يصل عددها إلى المئات أو لربما الآلاف، إنما المركز هو واحد... إنه نقطة التقاء الحصاة بسطح مياه البحيرة.

كل واحد سيعلن أن هذا المركز هو مركزه... إنها الأنا تدفعه لإعلان مثل هذا الأمر... مع أن القول بـ «إنه مركزي أنا» يعني أنه مركز منفصل... وهذا ما تريده الأنا... الانفصال الكلي عن الوجود والكون.

يولد الطفل بلا مركز، لقد أمضى تسعة أشهر في رحم أمه معتمداً عليها كلياً... لكنه ولد الآن، صار إنساناً مستقلاً، وصار عليه الاعتقاد بأن له مركزاً مستقلاً، وإلا ستكون حياته صعبة، صعبة جداً، كي يحيا، عليه أن يناضل ويكافح. كل واحد يرغب بمعرفة من يكون، إنما في الواقع لن يتمكن من ذلك... أنت في الواقع لست فرداً، أنت كوني...

لهذا السبب، إذا سأل أحدهم بوذا «من أنت؟» فبوذا لن يجيب فوراً... لأنه في الواقع مستقل عن الكل، ليس فرداً، إنه كوني، لكنه مجبر على الرد بالقول: «أنا بوذا» إذا أحس بالعطش سيطلب من زوجته أن تسقيه هو وليس الكون... سيقول أنا عطشان، أنا جوعان، أنا متعب... وإلا كان كلامه بلا معنى، لن يتمكن من القول: الكون عطشان، الكون جوعان... أو الكون متعب.

يولد المرء بلا اسم... وبعد الولادة تعطى اسماً، ويوماً بعد يوم، تتعود عليه... على الاسم... ويصبح

جزءاً مهماً في حياتك يصبح لك اسماً: راما... رحيم... كريشنا... ولهذا إذا جاء من يسأل: «أين أنت يا رحيم؟»... فلن يجيب أحد سوى رحيم... حتى ولو كان رحيم يغط بنوم عميق، فاسمه سيبقى ملازماً له...

إنه نوع من القصص الخيالي، غير أني لا أقول إن لا ضرورة أن يكون للمرء اسم. إنه ضروري جداً.

هناك طفل صغير أرسل لله رسالة يطلب منه أن يمده بخمسين روبية... احتار موظفو البريد إلى أين يرسلون الرسالة، وبعد قراءتها، قرروا تلبية طلبه من حسابهم الخاص، لكنهم لم يتمكنوا من جمع أكثر من أربعين روبية، فما كان من الطفل إلا أن كتب لله رسالة ثانية جاء فيها: «أرجوك حوّل المبلغ باسمي مباشرة، وليس عبر موظفي البريد، لأنهم اقتطعوا نسبة الضريبة منها التي بلغت عشر روبيات، أي أني استلمت أربعين روبية فقط».

من هنا، فالأسماء ضرورية للمناداة. كلمة أنا

ضرورية لك لتقول: «أنا نفسي». بالرغم من هذا فما زلت أصرّ على القول إنه نوع من القصص الخيالي، لأنك كلما توغلت داخل ذاتك، كلما اختفى الاسم حتى فكرة الأنا اختفت... كل ما تبقى كينونتي النقية، كينونتي التي هي جزء من الوجود.

هذه الكينونة ليست مستقلة، وليست كينونتك أو كينونتي. هذه الكينونة هي كينونة الكل، كائنات بشرية كانت هذه الكل، أم غير بشرية، هي كينونة الكل، كينونة الصخور، كينونة الأشجار، كينونة الجبال... لا أحد ولا شيء مستثنى من هذه الكينونة وهكذا كلما تعمقت في داخل ذاتك، كلما اكتشفت أن لا إنسان موجوداً، ولا أفراداً أيضاً... الموجود هو الكونية... نعم لنا أسماء وهوية وأنا. ولكن كلما تعمقنا في داخل ذواتنا، كلما اختفت الأسماء، والهوية والأنا.

الأنا قصة خيالية مفيدة يمكنك استعمالها، إنما إياك أن تنخدع بها.

وسألت أيضاَ: أنبقى غير متنورين، وهل نحن نعمل دائماً وفقاً لمشيئتها، أم أن هناك لحظات نكون متحررين منها؟

لأنها نوع من القصص الخيالي، فحكماً ستكون هناك لحظات تحرر من أي ضغوطات تصدر عن الأنا... ولأنها نوع من القصص الخيالي، فإنها تتطلب اهتماماً وعناية... هذا هو الخيال، أما الحقيقة فليست بحاجة لا للاهتمام ولا للعناية. هنا تكمن جمالية الحقيقة، بينما عليك إخفاء نوع من الجمال على الخيال... إنه يستمد جماله من الخارج وليس من الداخل... وهذا ما يفعله الناس طيلة حياتهم، يحاولون جعل الخيال أقرب إلى الحقيقة...

مشكلة الإنسان مع الأنا أبدية أزلية، تولد معه ولا تقاومه إلا بعد انفصال الروح عن الجسد، يمضي الإنسان حياته ساعياً وراء المال، القوة، التنور والجاه. كل هذا يعتبر سعياً وراء دعم ومساندة وهذا ما يسمح للخيال بالاستمرار في تأثيره علينا، وفي الوقت ذاته

فالأنا تدرك أن الموت لا محالة آت، مهما فعلت، فالموت آت... آت ليدمر كل حياتك، إلا أن الأمل يبقي الإنسان مبتسماً، من يدري فقد يموت غيره وليس هو.

هناك حقيقة واضحة كعين الشمس، أنك ترى الآخرين يموتون، وتسير وراء نعوشهم وتحاول إدخال العزاء إلى قلوب محبيهم، لكنك لا ترى موتك ولا تسير في جنازتك... لماذا؟ سؤال في موقعه... لكن الجواب عليه لا يتطلب عناء التفكير... لماذا؟ لأن لا أحد مستثنى من الموت... يأتي الموت ويأسرك... وبعد الرحيل لن يبقى اسم. حياتنا قصور مبنية على مياه، وليس على رمل... وما يكتب على الماء لا يقرأ أبداً. لكننا نحاول جعل هذه القصور مبنية في الواقع... إنه الخيال... يتطلب جهداً دائماً، وما من أحد قادر على بذل الجهد على مدى أربعٍ وعشرين ساعة، لهذا تمر ساعات، تكون فيها متحرراً من ضغوطات الأنا، تعيش فيها الحقيقة... إنها لحظات ستأتي، رغم إرادتك تذكر هذا... كل إنسان سيجد نفسه متحرراً من الأنا ولو

للحظات.

حين تغط في نوم عميق على سبيل المثال، في نوم يمنع عنك حتى الأحلام... هكذا تختفي الأنا... النوم بلا أحلام هو نوع من الموت غير المستديم... الأحلام تعني إمكانية محاولة تذكرها، وهكذا يكون البشر يحاولون الاهتمام بأناهم حتى في الأحلام.

ولهذا السبب يحاول المعالجون النفسيون التعمق في دراسة الأحلام علّهم يجدون فيها ثغرات تقودهم إلى باب معرفة أسباب معاناتك، لو حلمت مثلاً، أنك قتلت عمك... لا شك أنه حلم مزعج، ولكن إن تعمقت في معنى الحلم ومغزاه، سيبين لك أنك راغب في قتل أبيك وليس عمك... لقد خدعت نفسك، وتوهمت أنك قتلت عمك، إنها لعبة الأنا القذرة... نادراً ما تكون هناك دواع لقتل الأعمام، لأنهم في الأغلب الأعم، أناس طيبون، ولكن قد تكون هناك دواع متنوعة لقتل الأباء... إنه الصراع بين الأهل وأولادهم.

هناك صراع دائم بين الأب والابن. الأب يريد تهذيب ابنه، وهذا يحدّ من حرية الابن، ويرسم له طرقاً، قد لا تكون مستحبة لديه، وهكذا تبدأ الغيرة، كل من الآخر. إلا أن الأب هو الأقوى. الإبن يريد أمه أن تهتم به وحده، دون سواه، وهذا ما يثير غيرة الأب.

تزوج الابن الأكبر للملا نصرالدين، وسكن مع والده. عاد ذات يوم، فإذ به يرى زوجته بين ذراعي والده الذي يتغزل بها ويشبعها تقبيلاً. ثارت ثائرة الابن وراح يصرخ في وجه أبيه: «ما هذا الذي تفعله؟ أما تخجل من ذلك؟».

ضحك الملا نصرالدين وقال: إني أفعل، ما كنت تفعله منذ زمن؟ أولم تكن تغمر زوجتي وتقبلها وتمارس الجنس معها؟ أم أن ما يحق لك، لا يحق لي؟ إنه الصراع، حول العلاقة بين الابن وأبيه، من علاقة بنوة وأبوة، إلى علاقة عداء وصراع. الابن يريد أمه له وحده، إنما هناك الأب، والإبنة تريد أباها لها وحدها، إنما هناك الأم الزوجة.

الأعمام غير الأباء، إنهم بشر طيبون... لذا، فأنت في الحلم ترغب بقتل أبيك، لكنه الحس الأخلاقي، منعك عن ذلك، فاستبدلته بالعم.

لو راقبت حلمك هذا جيداً، لوجدت أهمية الأنا فيه. فهي غير قادرة على تقبل فكرة الأب، وفي الوقت ذاته، ترفض الاستمرار في تقبل وجود الابن المطيع، الذي يتلقى الأوامر من أبيه وينفذها تعبيراً عن حبّه له وهكذا تحولت عدائيتها نحو الأب - وفي الحلم فقط - إلى العم، العم الذي هو البديل الأوحد عن الأب.

بينما في حالة الاستغراق في حالة النوم العميق تختفي الأنا، وتختفي الأحلام أيضاً... حالات النوم العميق، حالات النوم بلا أحلام، لا تطول لأكثر من ساعتين. ساعتان تجعلك إنساناً جديداً. فتستيقظ صباحاً، وكأنك تولد من جديد، يومك هو هدية، كل شيء حولك، يبدو وكأنك تراه لأول مرة.

ترى ما الذي يحدث خلال تلك الساعتين، حتى،

يصبح العالم بعدهما جديداً وجميلاً؟ الذي يحدث هو اختفاء الأنا واختفاء الأنا يعني تجديداً لحياتك، وفي حياتك، مع اختفاء الأنا، تشعر بوجود الله وتتعرف إلى معنى الألوهة.

الحقيقة، إن كنت حقاً إنساناً مملوءاً بالغبطة، فلا فرق بين ساعات الأحلام وغيرها من ساعات النوم... الفرق الوحيد هو أنك في ساعات الأحلام لا تكون واعياً، أما في غيرها فأنت واع ومدرك. إنما طالما الأنا مكبوتة، فستبقى متحداً بالله، ستبقى تسعى للوصول إلى مركز الكون ـ الوجود. ستختفي من المحيط وتظهر في المركز، وهكذا تنتعش الحياة. لذا، فالذين لا ينامون، هم فعلاً بشر تعساء، تعساء جداً. لأنهم افتقدوا لحظات التماس مع الله، لأنهم أضاعوا الطريق إلى مركز الكون ـ الوجود، لقد أغلقت أبواب الجنة في وجوههم.

عصرنا هذا، هو عصر تتعذب فيه بسبب قلة النوم لقد أغلقنا كل الأبواب، وها نحن نغلق آخر باب، ما

يعني فسخ العلاقة مع الطاقة الكونيةٍ... إنه الخطر الأشد والأدهى. واليوم، نرى بشراً أغبياء، يضعون المؤلفات، لإقناعنا بعدم ضرورة النوم... فالنوم عندهم، هو إضاعة للوقت. نعم إنه كذلك، ولكن بالنسبة لمن؟... إنه كذلك، بالنسبة لأولئك الذين لا يفكرون إلا بالمال والأعمال... إنهم مدمنون على التفكير بالمادة، مثلهم، مثل المدمنين على الخمور أو المخدرات. فالنوم، عندهم، هو إضاعة للوقت. هؤلاء لا يرغبون بأخذ قسط من الراحة، إنهم ليسوا هم، هم أناس آخرون، تشدهم إلى الحياة، أوهام لن تطول كثيراً، حتى بعد موتهم، لن يكونوا هم هم، بل بشر آخرون.

هؤلاء يحاولون إقناع الآخرين بعدم أهمية النوم... إنهم ما يزالون يعيشون في الماضي. الماضي الذي لم تكن فيه نارٍ ولا كهرباء حيث كان يضطر الإنسان للسهر خوفاً من الحيوانات. إنها عادة قديمة، قديمة جداً... أن نسهر ونسهر... إذا استمرينا هكذا، فسيأتي يوم، يختفي فيه النوم، ولا تعود تقرأ كلمة ندم ولو في

الكتب.

وهذا ما كان يحدث خلف الستار الحديدي ـ أيام الاتحاد السوفياتي ـ كان المنظّرون العقائديون، يصرون على تثقيف الجيل الطالع حتى في ساعات الليل، إنهم يريدون نشر ثقافتهم الشيوعية، متى؟ ليس هماً... الوقت عندهم، ليس من ذهب، بل من ماس، فلماذا إضاعته إذاً؟ وانطلاقاً من هذا التساؤل، واستمراراً في الإدمان على العمل، واللااستراحة أو الاسترخاء، كانت المدرسة التي يمضي الطالب فيها نحواً من سبع ساعات يومياً وعلى مدى سبعة عشر سنة على الأقل.

في الهند، كل المدارس تشبه بعضها، حتى باللون، والهندسة والبيئة الطبيعية، لا شجرة، لا عصافير، لا أزهار، ولا شيء مما يمت إلى الطبيعة. وهكذا يعيش التلميذ حالة انقطاع عن الطبيعة، ولماذا؟ مخافة أن يلتفت التلميذ إلى زقزقة عصفور، أو ثغاء بقر، فيلتهي عن سماع تفاهات أستاذ الجغرافيا أو التاريخ...

هؤلاء البشر، المتسلطون على مستقبل أولادنا، لا يتساءلون إلا سؤالاً واحداً، لماذا إضاعة الوقت؟ ويتابعون، لماذا لا يتعلم الطلاب حتى في الليل؟ إنهم لا يريدون أطفالاً مثقفين، بل أطفالاً مبرمجين.

لقد قال هؤلاء المنظّرون، إن التعلم أثناء النوم هو أسهل منه في ساعات اليقظة، إذ قد ينبح كلب أو ينشب شجار في الخارج، فيسترعي انتباه الطلاب، ويشتت أذهانهم عما يجب معرفته.

يبدو واضحاً، أننا نسعى إلى قطع علاقتنا مع مركز وجودنا الكوني، وإلى خلق جيل يتعاطى مع الأنا بإيجابية كاملة، مع ما تستدعي الأنا من نزاعات.

يوم ولد جنكيز خان، لم يبالِ أحد بذلك، ولماذا كان على أحد إبداء أي مبالاة؟... كتبت يوماً، كان من الأفضل لو لم يولد، فكانت النتيجة أن طردت من المدرسة لأربع وعشرين ساعة. غير أني اليوم وبعد نحو من ثلاثة قرون، ما أزال أردد ما سبق وقلته في

المدرسة. «كان من الأفضل لو لم يولد». واليوم أضيف، ولماذا على أولئك الأطفال، أن يحفظوا تواريخ ميلاد الملوك والاباطرة، وكذلك تواريخ وفاتهم؟ أية تفاهة هي هذه؟

ولماذا لا نطلب من الطلاب، أن يتعلموا كيفية النوم بلا أحلام؟ فمن النوم يمكن أنٍ تتعلمه... ونتعلم كيف نمنح أجسادنا أوقاتاً للاسترخاء وللاستراحة.

تعلم النوم لا يعنيٍ التقيد بحرفية ما تسمع أو يُقال لك، فلو لم تأوِ يوماً إلى فراشك، وفي الوقت المحدد، لن تتزلزل الأرضٍ ولن تعاقب بالذهاب إلى جهنم. كذلك الحال، بالنسبة للحفاظ على الصحة، دعونا نعش على سجيتنا، وهكذا نحافظ على طاقة أجسادنا ونقاء روحنا... إياكم وتحويل أجسادكم إلى مجرد آلات ميكانيكية، فالأجساد هي وعاء الروح، عوّدوها إذاً على تلقي النعمة الإلهية.

مثال آخر، على ثقافة قطع العلاقة مع مركز الكون ـ

الوجود، إياك ممارسة الجنس... إنها الخطيئة المميتة... ولكن الإنسان، لا يمكنه العيش، بلا حب، بلا ممارسة الجنس. فلماذا نشعره ـ إن فعل ذلك ـ بأنه يرتكب الآثام؟

إن أحببت، وعبّرت عن مشاعر حبك، تكون ثائراً ضد مجتمعك، وهكذا إن مارست الحب (الجنس)... القضية ليست قضية ثورة أو تمرد على المجتمع وعاداته، بل هي قضية حاجات جسدية لا بد من تلبيتها. هي قضية حاجات جسدية، كبتها ينعكس سلباً على الحياة، لا جسدياً وحسب، بل وروحياً أيضاً.

منذ آلاف السنين والناس يعتبرون الجنس إثماً وخطيئة ولكن ماذا لو كنت في قرارة نفسك لا تعترف بذلك؟ ماذا لو كنت لا تعتبر الجنس، إثماً أو خطيئة؟ الحقيقة، حتى في هذه الحال، تبقى تعمل وفقاً لما يريده المجتمع، وتبقى تعتبر الجنس إثماً وخطيئة.

ولكن، أتدري أن ممارسة الحب، تعني اختفاء للأنا،

تعني الوصول إلى ذروة الانتشاء بالسعادة، وتعني أيضاً، وهو الأهم أنك تتعاطى مع طاقة نقية طاهرة. أثناء الممارسة، تشعر بغبطة لا توصف، تكون تفجر الطاقة، وهكذا، بكل بساطة، ينفصل عمل العقل، وما الذي سيفعله؟ من الأفضل له ألا يتدخل في شيء. أن يترك الأمور تجري على سجيتها.

تحويل ممارسة الحب إلى نوع من التأمل، يعني اختفاء الأنا، هنا تكمن جمالية هذه الممارسة. أنت تقترب من الله، أنت الآن في حالة، هي أقرب إلى حالة النوم بلا أحلام، أنت يقظ متنبه، إنما دون عقل فاعل.

هكذا إذاً، يكون الوصول إلى «علم التانترا» سهل المنال، وكل شيء سيساعدك على تحويل النوم العميق ـ النوم بلا أحلام ـ إلى حالة وعي، بحيث تعرف من تكون، وتعرف بالتالي، من تكون بالنسبة للمركز.

تعتبر «التانترا» ممارسة الحب، بمثابة التقرب من الله، الذي قد يأخذ وقتاً طويلاً عن طريق رياضة

اليوغا... تحول اللاوعي، إلى وعي ـ عبر رياضة اليوغا ـ يحتاج مساراً طويلاً، وقد يحتاج إلى أكثر من دورة حياتية. وقد تصل إلى تلك النتيجة، وقد لا تصل.

قيل لك اليوغا تساعدك في الحفاظ على سلامة جسدك، لا تخف. هذا قول هراء، يمكنك فعل ذلك، وأنت تمارس رياضة الركض أو السباحة؟ كما ويمكنك الحفاظ على صحتك والعيش لفترة أطول، شرط أن تلقى العناية الطبية اللازمة.

القضية، هي في أن تكون واعياً مدركاً، حتى وأنت في حالة النوم العميق... أما مدربوك على رياضة اليوغا فيقولون لك، قف على رأسك ويطلبون منك محاربة جسدك. لقد تحولت اليوغا إلى حركات تشبه تلك التي يقوم بها الممثلون في السيرك، فأفقدوها معناها وأبعادها.

أنا اليوم أسعى لإعادة إحياء اليوغا، بمعناها الحقيقي وأبعادها الفعلية. وبهدف أن تتمكن من أن تكون واعياً،

أثناء وجودك في حالة النوم العميق... هذا هو أهم ما في اليوغا، وكل ما عداه فهو تافه وهراء.

أما التانترا فهي أقصر الطرق، وأكثرها إحساساً بالانتشاء. ممارسة الحب ـ بالنسبة للتانترا ـ هي بمثابة فتح نافذة على حديقة الوجود. كل ما هو مطلوب منك، عدم الالتزام بالشروط التي يفرضها عليك بعض رجال الدين، الذين يحاولون إقناعك، بأنهم الوسطاء بينك وبين الله، وأنهم وكلاؤه على الأرض... ما يعني قطع أي علاقة مباشرة بينك وبين الله. وهكذا يتحول هؤلاء إلى قوة متسلطة عليك، تزداد نفوذاً، يوماً بعد يوم.

ولكن من قال لك إن رجال الدين هؤلاء، هم أصحاب القوة الأفعل؟... وحده الله صاحب القوة الأفعل، وهم يحاولون الحلول محله للسيطرة على الإنسان. هناك كثيرون يحاولون هذا، فالعلماء اليوم يرغبون بالحلول، محل رجال الدين، لأنهم يعرفون كيف يفتحون الأبواب أو يغلقونها. رجال الدين يتحدثون عن علاقتك بالله، أما العلماء، فيتحدثون عن

علاقتك بالطبيعة. لكن رجل الدين يريدك ـ قبل كل شيء ـ أن تكون تابعاً خاضعاً له. وهكذا يقضي على فرديتك وخصوصيتك، ولا تعود متصلاً مباشرة بالله بكلمة واحدة... أنت لم تعد موجوداً، وجودك من وجوده.

مارس الحب ولا تخف... إنك لا ترتكب إثماً، مارس الحب، بحب، أرقص، غنِّ، تضرّع لله، حوّل غرفة نومك إلى معبد إلى مكان مقدس... لا تكن معجلاً في ممارسة الحب، مارسه لأطول وقت، وستتفاجأ من الذي ستشعر به، إنه النور يشكل هالة حول جسدك. إنه الاسترخاء والسعادة.

الحب هو ظاهرة من ظواهر الحب الإلهي، الحب يعني أن لا وجود للأنا، وأنك لم تعد فرداً واحداً، بل أنت جزء من الكل. هكذا، مهما كان الذي تفعله، أو متى كنت تمشي، صباحاً أو عند غروب الشمس، فيكون إحساسك بالانتشاء هو ذاته، وكذلك علاقتك بالوجود، ستبقى هي هي. استلقِ على الأرض، أنظر

إلى نجوم السماء، وسبح الله الذي خلق كل هذا الجمال.

شيئاً، فشيئاً، ستمنحك ممارسة الحب، القدرة على إقامة علاقة حب مع الوجود بذاته. وهكذا تتحول الأنا إلى ذكرى خيالية، تختفي كلياً، كما لو أنك قد تتعرض لحادث سير، في تلك اللحظة، تختفي الأنا، إفساحاً بالمجال لحسن التصرف والتخلص من الخطر المحدق بك.

كثيرون هم الذين يحاولون تسلق «جبال أفرست»، إنهم يمارسون التأمل، دون دراية منهم بذلك... تسلق الجبال عملية خطرة، وكلما ازدادت الخطورة، كلما كان الشعور باللذة أكثر، وكلما التفت الله إليك.

حين يقترب الخطر، يتوقف العقل عن الفعل... العقل يفكر، وأنت بعيد عن الخطر، أما في حالة الخطر، فلا ضرورة له، الخطر يجعلك عفوياً، يجعلك تتصرف بتلقائية لا حدود لها.

هناك حالات كثيرة لاختفاء الأنا، «كن جميلاً، ترَ

الوجود جميلاَ»، ورؤيتك جمال الوجود، تعني أن لا وجود للأنا... كذلك حين تلمح امرأة جذابة، يأخذك جمالها، تركز عينيك على شعرها، على صدرها، على خصرها، على شفتيها، تشعر وكأنك غير موجود، والحال هذه، هل يكون للأنا وجود؟

ماذا لو رأيت زهرة اللوتس تزهر في المستنقع؟ ماذا لو نظرت إلى غروب الشمس، إلى العصافير تحلّق عالياً في السماء، ماذا لو وجدت أن هناك أشياء كثيرة تثير أحاسيسك الداخلية، أو تستحوذ عليك للحظات، فتنسى ذاتك، تنسى من تكون؟ ماذا لو مررت في تلك الهنيهات؟ إنتبه إنها لحظات عبورك إلى مركز الوجود، إلى اتحادك مع مركز ذاتك ومع شفافية ألوهيتك. وهكذا، لن تكون بحاجة، لا لرجال دين، أو لعلماء، وتصبح أناك ذكرى من الماضي...

كل ما عليك السماح لتلك اللحظات أن تتكرر في حياتك خصص لها مساحة واسعة، كي تحصل من جديد... إنها الطريق الأقصر التي توصلك إلى الله.

عدم اتحادك بالأنا، يعني اتحادك بالله.

كيف تقضي على الأنا

ما علينا فعله للقضاء على الأنا؟ وهلِ هذا فعل يعتبر جزءاً من مهماتنا؟

الأنا أشبه بالظلمة التي تعيق خطواتك دون أن تكون موجودة، دون أن تكون قادراً على رؤيتها.

الأنا غير موجودة، فكيف يمكن القضاء عليها؟

الأنا هي قلق غير موجود.

الأنا، غرفة مليئة بالظلمة، وأنت تريد الظلمة أن تترك الغرفة

يمكنك فعل كل شيء، مستعملاً كل قدراتك وطاقاتك، لكنك ـ بالنسبة للأنا ـ لن تنجح، أمر غريب ومستغرب، ما هو ليس موجوداً سيتغلب عليك. قد يقول

لك عقلك: الظلمة قوية جداً، إلى حد أنك لن تتمكن من منازلتها... إنها نتيجة غير منطقية.

أفعلاً تريد التغلب على الظلمة؟... ما عليك إلا إضاءة قنديل صغير. وهكذا، لن تكون هناك ظلمة بعد الآن. أطفئ القنديل وتعود الظلمة... المعادلة الأصح، هي، لا يمكن القضاء على العتمة إلا من خلال الضوء... إلا من خلال إشعال حتى ولو شمعة... قد تستغرب ما أقول، لكنها حقيقة الأشياء.

كذلك بالنسبة للأنا، إنها غير موجودة، فكيف يمكنك القضاء عل شيء غير موجود؟

كن منتبهاً ولو قليلاً، كن واعياً ولو قليلاً، وانسَ أمر الأنا... ركز على ما هو أهم: على اليقظة داخل كينونتك... ولحظة تصل إلى اليقظة الكاملة، تكون قادراً على إيجاد الأنا، وساعتئذٍ يمكنك العمل للقضاء عليها... ما من عاقل يسعى للقضاء على شيء يجهله، أو يتجاهل وجوده.

الأنا هي نوع من السراب، يبدو أنه موجود، إنما هو ليس موجوداً، وفي الوقت ذاته، الأنا هي سبب الكثير من مآسيك. إنها السبب للتوتر، للقلق، إنها جحيم حياتك... ومن المنطقي أن تسعى للقضاء عليها. إنما، وحده الأحمق يرشدك إلى كيفية القضاء عليها، لأنه يجهل ماهية طبيعة الأنا... لكنه سيحاول إقناعك، إنه قادر على مساعدتك... والحقيقة، أنه ما لم تسقط الأنا، فلن تتمكن من تحقيق ذاتك... هكذا يقال لك، أما أنا فأقول، إسقاط الأنا أولاً، لا يعني أبداً تحقيقاً للذات، بل تحقيق الذات أولاً، سيؤدي حكماً إلى القضاء على الأنا.

الفصل السادس: حول التأمل

هناك مثل قديم يقول: «إزرع الأفكار، تحصد الأفعال. إزرع الأفعال، تحصد العادات، إزرع العادات، تحصد الشخصية، إزرع الشخصية تحصد المصير».

وأنا أقول: إزرع لا شيء، واحصد التأمل أو الحب.

نعم زراعة اللاشيء، هي التأمل حول كل شيء، وعند نهاية المطاف، سيكون الحب بانتظارك، وإن لم يكن الحب بانتظارك، فهذا يعني أن خطأ ما حدث أثناء رحلتك التأملية. إنما أنت فعلت ما عليك... لقد بدأت، لكنك لم تصل.

الحب، هو الاختبار الحقيقي للتأمل. الحب والتأمل، وجهان لعملة واحدة، مظهران لطاقة واحدة، حين يكون أحدهما، يكون الآخر والعكس صحيح.

التأمل ليس تركيزاً. التركيز لن يوصل إلى الحب.

حكماً لن يوصل إلى الحب... الرجل الكثير التركيز، قد يتحول إلى شخص عنيف... لأن التركيز هو نوع من التمرين لإبقاء التوتر، التركيز هو جهد لتضييق أفق العقل، إنه العنف عن وعي، وحين تكون عنيفاً عن كل وعيك، فليس بمقدورك أن تكون مسالماً مع الآخرين. كما أنت مع نفسك، كذلك أنت مع الآخرين.

دع هذا القول، قاعدة أساسية لحياتك: كما أنت مع نفسك، كذلك، أنت مع الآخرين... إن أحببت نفسك، تكون قادراً على حب الآخرين، إن كنت مزهراً في داخليتك، ستكون مزهراً في علاقاتك مع الآخرين... كل إناء بالذي فيه ينضح.

التركيز ليس تأملاً، التركيز هو أسلوب علمي... العالم بحاجة للكثير من التركيز بهدف الوصول إلى أعماق المسألة التي يريد معالجتها، لذا، فمن غير المتوقع أن يكون رجلاً محبًّا عطوفاً. وهكذا يتحول هذا الرجل إلى رجل عنف... كل تقدم علمي، هو نتيجة التعامل بعنف مع الطبيعة.

إذاً، تذكر دائماً، التأمل ليس تركيزاً ولا هو تأمل روحي... إنه ليس تفكيراً... قد تكون تفكر بـ «الله» عندئذٍ تكون أنت فعلاً تفكر... إذا كانت هناك «بـ» يكون هناك تفكير... قد تكون تفكر بـ «المال» أو بـ «الله». مبدئياً لا فرق، فأنت تقوم بعملية التفكير... التفكير متواصل، لكن الأهداف هي التي تتغير... لذا إن كنت تفكر بـ «العالم» أو بـ «الجنس»، فما من أحد يسمي هذا تأملاً روحياً، بينما، إذا كنت تفكر بـ «الله»، بـ «الفضيلة»، أو بـ «المسيح» فهذا هو التأمل الروحي.

الاستمرار في التفكير، لا يعني أنك تمارس التأمل. التفكير، يعني الاهتمام بالآخرين. في التأمل، ليس هناك آخر... التأمل الروحي هو أوسع مدى من التركيز... التركيز يعني انشغال العقل بنقطة محددة، بينما التأمل هو حول موضوع وليس حول نقطة محددة... ما يعني أن الموضوع سيبقى هو هو.

إذاً ما هو التأمل؟ التأمل هو مجرد كينونة نور في

حضورك. هو نور داخل كينونتك... إنه الاسترخاء الكلي، حين لا تكون تفعل شيئاً... لحظة تبدأ بالعمل، تصبح متوتراً وينتابك القلق مباشرة. كيف ستعمل؟ ماذا ستفعل؟ كيف ستنجح؟ هكذا تكون خرجت من الحاضر واتجهت نحو المستقبل.

إذا كنت تصلّي وتتضرع، فكيف بمقدورك فعل ذلك؟ كيف يمكنك أن تبتهل لمجهول؟ أو كيف يمكنك الابتهال لمن هو صعب إدراكه، ومن غير الممكن معرفته... فقط تمجيد المعلوم وأن تبتهل للمعروف.

إن كنت تعرف شيئاً عن المسيح، يمكنك التفكير به، كذلك الأمر بالنسبة لـ «كريشنا»، كما يمكنك أن تزداد معرفة عما هو معلوم ومعروف، إنما ليس بإمكانك ذلك بالنسبة لمن هو فوق طاقة إدراكك، بالنسبة لله.

التأمل، يعني الا تفعل شيئاً، ألا تفكر، ألا تنفعل جسدياً أو عاطفياً. التأمل يعني إشعاعاً براقاً، ولكن من أين جاء هذا الإشعاع البراق وأنت لا تفعل شيئاً؟ ليس

هماً، من أين جاء... المهم جاء من أي مكان، وبلا سبب، لأن الوجود، وجد لوجود الغبطة والفرح. السعادة، ليست بحاجة لسبب أو دافع... التعاسة وحدها، تكون بحاجة لتبرير، لإيجاد السبب الذي جعلك تعيساً... لأنك في الأساس ولدت لتكون سعيداً... إلا أن العقل، يبقى دائم الانشغال في البحث عن الأسباب، وإلا لاحتل موقعاً هامشياً. إعلم جيداً، أنك خُلقت لتكون سعيداً. أما أن تكون تعيساً، فما عليك إلا البحث عن سبب تعاستك.

أنظر إلى الأشجار، إلى الطيور، إلى الغيوم، إلى المجرات والنجوم، ولو كنت قادراً على الرؤيا، لرأيت الوجود كله فرحاً مغتبطاً. الأشجار ترقص وبلا سبب، وما الذي سيكدر حياتها؟ أرغبتها في أن تصبح رئيسة للوزراء أو للجمهورية؟ كذلك أنظر إلى الأزهار... إنه أمر يصعب تصديقه، إنها تتراقص مع نسيمات الريح، إنها تزهر، هكذا بلا سبب... كذلك هي تشعر بالغبطة، وبدون سبب أيضاً.

كل ما في الوجود، وجد من أجلك، فلماذا، تتجاهل

كل ما يسعدك، وتسعى وراء ما يتعسك؟ كَنْ سعيداَ، هكذا بلا سبب، كن سعيداً، لرؤية أبنائك أمامك، لسماعك صوت الديك قبيل الفجر. هكذا تكون تشكر ربك... كُنْ سعيداً، كن ممتلئاً بالسعادة، كي تتمكن من إشراك الآخرين في سعادتك.

التأمل هو الكائن مع ذاتك، والعطاء هو الفائض بوجود ذاك الكائن.

ما هو الذكاء؟

ما هو الذكاء؟ أهو حالة أبعد من العقل ومحدوديته؟ هل للتأمل علاقة بالذكاء؟ هل الذكاء هو إمكانية نمتلكها جميعاً وتفرض علينا أن نكون يقظين؟ هل بمقدورنا رفع مستوى وعينا من خلال الذكاء؟

إنه سؤال مميز... ما هو الذكاء؟ أهو حالة أبعد من العقل ومحدوديته؟ نعم، إنه لكذلك، الذكاء ليس العقل،

إنه واحدة من خصائص وجودك، والعقل هو العربة التي تجره، وهنا يقع الناس في الالتباس، فيعتقدون أن العقل هو مصدر الذكاء، والواقع أن العقل هو وسيلة إظهار مدى الذكاء.

العقل بحد ذاته، هو حاسوب بيولوجي، لديه جهاز ذاكرة، تماماً كتلك التي في الحاسوب. أنت تدخل المعلومات في جهاز الذاكرة، والعقل يحافظ عليها... إن الذاكرة ليست ذكاء.

الذكاء هو الرؤيا النقية الصاخبة لأشياء ليست لديك أية معلومات عنها. على عكس الذاكرة التي تعمل حول أشياء تعرف كل شيء عنها. إلا أن الحياة تشمل المعلوم والمجهول، وما هو فوق قدرة إدراكك، أو الذي يستحيل التعرف إليه، والذاكرة تتعاطى مع المعلوم فقط، ليس أكثر.

هذا كل ما تفعله الجامعات والإدارات المسؤولة عن نشر الثقافة... بكل بساطة إنهم يغذون جهاز الذاكرة

بمعلومات تلو الأخرى، وعن أشياء متنوعة ومختلفة... وهكذا تكون قادراً على الإجابة عن كل سؤال حول ما هو مخزون في جهاز ذاكرتك.

يلعب الذكاء دوره، في حالة المواجهة مع ما هو مجهول، مع ما، ليس لديك أي معلومات عنه، لا من بعيد ولا من قريب، وعليك التعاطي معه، بحيث لا تخرج من هذه المواجهة خاسراً. هكذا فمعيار الذكاء، يتوقف على كيفية تعاطيك مع الموضوع، إذ يمكنك التصرف بوعي وفطنة، أو بغباء وسذاجة.

لنأخذ مثلاً، عن التصرف بوعي وفطنة:

كان عدد سكان الهند عام 1947 نحواً من أربعماية مليون نسمة، وكل الدلائل تشير إلى أن العدد قد يتجاوز المليار نسمة بعد خمسين سنة، ولا شك سيتكاثر عدد الفقراء وتتفشى المجاعة، ولأن بريطانيا غير راغبة في تحمل هكذا مسؤولية، قررت منح الهند استقلالها، دون أن يكون هناك زعيم هندي واحد يطالب باستقلال

بلاده، منعاً لتكرار ما حدث عام 1942، حين هبّ الشعب الهندي مطالباً بالحرية، لكن جيش الاحتلال البريطاني، أخمد تلك الثورة بأسرع ما يمكن، خلال ثمانية أيام فقط. فاعتبرت أصغر ثورة في تاريخ الإنسانية.

عام 1942، لم تكن بريطانيا تهتم بالانفجار السكاني في الهند، وقمعت الحركة التحررية، أما اليوم، وبعد خمس سنوات فقط، تبدل الموقف، دون أن يتمكن سياسي هندي واحد، حتى «المهاتما غاندي»، من معرفة سبب الرغبة البريطانية المفاجئة، بإعطاء الهند استقلالها وقبل نهاية عام 1947... وحدهم الإنكليز قرروا ذلك.

كان الهنود في حالة حيرة وتساؤل، لماذا...؟ فعلوا ذلك، الذكاء كان ينقصهم، ولم يسبق لهم أن تعاطوا مع أمر مجهول، سبباً ونتيجة. إنهم لا يطالبون بالاستقلال، لكن المحتل مستعد لإعطائك الاستقلال، ويلح عليك بقبوله اليوم قبل غد. ترى، ما هي العوامل التي

استجدت؟ ما من أحد أتعب نفسه وأمعن النظر في سببية الموقف الإنكليزي، على عكس رئيس الوزراء البريطاني وليم آشلي، الذي أدرك أن الاستمرار في احتلال الهند، سيحمل بلاده نتائج تكاثر عدد السكان، وتفشي الفقر والجوع. فليكن الاستقلال إذاً، اليوم قبل غد.

اغتبط زعماء الهند، فرحوا وكأنهم أطفال أميركا، يتلقون الهدايا ليلة عيد الميلاد، فتحول وليم آشلي من رئيس لوزراء بريطانيا إلى بابا نويل آت ليهدي الهند استقلالها. ما حدث في الهند، لم يسبق له أن حدث في أي مكان من العالم... مستعمر يسعى جاهداً لإقناع المستعمرين ـ بفتح الميم ـ لقبول استقلال بلادهم، تاجر رقيق، يهب الحرية لعبيده، ويرجوهم تقبّل الحرية.

الموقف كان جلياً واضحاً، لكن يتطلب ذكاء وفطنة... ولأن ذاكرة زعماء الهنود، لم تكن مزودة بشيء من هذا القبيل، ولأن الموقف مستجد، لذا وقفوا عاجزين... الهند في طريقها إلى بلوغ حافة الانفجار

السكاني، والبريطانيون متخوفون من ذلك، متخوفون من اتساع دائرة الفقر والجوع، وليسوا راغبين في تحمّل مسؤولية هذا الأمر.

منذ العام 1950 وأنا أناشد الهنود، الحد من ازدياد عدد الولادات، ولكن ماذا كانت الإجابة؟

لقد اتهمت بالإلحاد، فالأطفال هم هدية من الله، فكيف لأحد أن يرفض هذه الهدية؟

ولكن حين يمرض المرء أوليس هو الله من أرسل المرض له؟ فلماذا تناول الدواء؟

وينبري أولئك المتزمتون: حبوب منع الحمل هي حبوب اصطناعية، وليست من عند الله.

بالفعل إنه لأمر يدعو إلى الضحك والسخرية... وهل حبوب الدواء لمقاومة المرض، هي من عند الله؟ أو تلك النظارات التي تصحح النظر هي من عند الله؟ أوليست هذه هي اصطناعية ومن فعل الإنسان؟

منذ ذلك الزمن وأنا أناشد الحكومات والمسؤولين، التنبه إلى ما سيحدث في المستقبل، ولكن، منذ ذلك الزمن، وحتى يومنا الحالي، على من تقرأ مزاميرك يا داود؟

توقع العلماء، وصحّت توقعاتهم، مع نهاية القرن العشرين، سيبلغ عدد سكان الهند نحواً من مليار نسمة أو ما يزيد وتوقعوا أيضاً، أن نصف عدد سكان الهند، سيكون مهدداً بالموت، إن بسبب الفقر والجوع، أو بسبب عدم وجود عناية طبية... وهنا يبرز سؤال ملح: ولكن ماذا عن أولئك الذين سيبقون أحياء داخل جثثهم المتحركة؟ لا شك، أن وضعهم، سيكون سيئاً جداً، إلى حد يعتبرون أن في الموت خلاصاً لهم.

مع نهاية القرن العشرين، اقتربت الهند من عديد سكان الصين، مع فارق مميز: الصين تصرفت بذكاء، وحدّت من النسل.

أما المثال الأكثر حيوية عن الذكاء، فهو في ألمانيا

وسويسرا على سبيل المثال لا الحصر، عديد سكان ألمانيا الأصليين يتناقص، فيما عديد المهاجرين إليها يتزايد أضعافاً مضاعفة، لدرجة التخوف من أن أرض ألمانيا لن تعود للألمان، لكن ردة فعل الحكومة كانت مناسبة جداً ومعبّرة عن حسن الإدراك للمشكلة... حدّت من عدد الوافدين، وألحت على الألمان بزيادة عدد السكان.

الذكاء يعني القدرة على التعامل مع الظروف والمستجدات، ولا شك أن هذه القدرة هي نابعة من ذاتك، وليس العقل، إلا شاحنة لنقل هذه القدرة إلى حيث يجب أن تكون. إنها تجربة الحياة التي ستحول مسرى حياتك وفقاً لما تريد.

الذكاء هو خاصية المراقبة... إنه يراقب العقل ويعطيه توجيهاته. مهما يكن، كل ما في العقل، هو آت من الخارج، بينما الذكاء نابع من داخليتك. وهذا ما يجب أن يُفهم كأساس لإخراج ما في داخليتك. أنت مملوء بالقدرات التي هي بحاجة لمعبر يوصلها إلى

الخارج، بحاجة إلى طريق، والتأمل، هو من يساعدك لإيجاد هذه الطريق، التأمل يجعلك السيد، والعقل مجرد عبد لك.

أنت تتذكر ما قد حدث، وما قد رأيت أو سمعت عنه. التذكر، إذاً، هو فعل غير نابع من ذات كينونتك. أما الذكاء فهو ينبع من عمق ذاتك... إنه حياتك، إنه كيفية تعاطيك مع المواقف.

وهل هناك أي علاقة بين التأمل والذكاء؟

التأمل، مرتبط بكينونتك التي لها مظاهر عدة: الذكاء، النعمة، البركة، الابتهال، الحب والعطاء. كنزك الحقيقي هو في لا نهائية وجودك، إنه الخلود الذي هو كنز كينونتك، والذكاء هو عنصر واحد من مجموعة عناصر تتداخل وتتفاعل داخل كينونتك.

وهل الذكاء هو قدرة نتملكها جميعاً؟ وهل علينا أن نكون يقظين؟ وهل الذكاء يساعدنا على رفع مستوى الوعي؟

خلقنا كلنا ونحن نمتلك القدرة المحتملة ذاتها، إنما الفرق يكمن في مدى استعمالنا لتلك القدرة.

قد تتفاجأ جداً، إذا عرفت، بأن رجلاً عبقرياً ومميزاً كـ «أينشتاين» لم يكن يستغل أكثر من خمسة عشر بالمئة من قدراته. حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ناجحين، فهم نادراً ما يستغلون أكثر من خمس أو عشرة بالمئة من قدراتهم، وإلا ـ لو وجد، من يستغل قدراته كاملة ـ لكان تغير وجه العالم.

التأمل وحده، يجعلك مدركاً لقدراتك.

التأمل وحده، يشق الطريق التي ستسلكه قدراتك من داخليتك، إلى العقل.

كيف توصلنا حالة المراقبة إلى اللاعقل؟

كيف توصل المراقبة إلى اللاعقل؟ أنا شخصياً قادر، دائماً وأبداً، على مراقبة جسدي، وأفكاري.

وهذا ما يشعرني بالسعادة. إنما حالات اللاتفكير هي قليلة، ومتباعدة. حين أسمعك تقول:

التأمل هو المشاهدة والمراقبة، أشعر وكأني أستوعب معنى ما تقول، غير أني لا أستوعب جيداً كلامك عن اللاعقل... هل من تعليق إذا أمكن؟

التأمل هو رحلة صبح طويلة، وحين أقول التأمل هو مشاهدة ومراقبة، فإنما أعني بداية تلك الرحلة. أما حين أقول: التأمل هو اللا ـ عقل، فإنما أعني أن الرحلة قد أنجزت... المشاهدة هي البداية، واللا ـ عقل هي إنجاز المهمة كاملة. المشاهدة هي الأسلوب الذي يرشد إلى اللا ـ عقل... وطبيعي جداً، أن تغير المشاهدة عملية أكثر سهولة من اللا ـ عقل.

المشاهدة هي مثل البذرة، وعليك انتظار متى ستتبرعم وتنبت، ليس عليك الانتظار وحسب، بل أن تكون واثقاً من أن تلك البذرة ستتبرعم وتنبت، وقد تصبح شجرة، وذات يوم، سيأتي الربيع، وتزهر

الشجرة، واللاعقل هو تزهر تلك الشجرة.

أن تزرع، أمر سهل جداً، أما أن تأتي بالزهور، فهذا أمر ليس في متناول يدك. كل ما بمقدورك فعله، هو تهيئة التربة وزرع البذور، أما الأزهار، فستأتي من تلقاء ذاتها، دون إرادة منك... كل ما عليك، هو الإعداد، وكلما أعددت جيداً، كلما جاء الربيع أبكر.

تذكر جيداً، الذي يتواجد للحظات، بمقدوره أن يتواجد إلى الأبد. أنت لم تمنح فرصتين، بل فرصة واحدة، وإن تمكنت من تحويل فرصة واحدة - لحظة واحدة - إلى لا تفكير، تكون قد اكتشفت السر، وهكذا، لن يكون هناك أي عائق يعيق رغبتك في تغيير الفرصة الثانية - اللحظة الثانية - التي ستأتي وحدها، متمتعة بالقدرات والإمكانيات ذاتها.

إن اكتشفت السر، فهذا يعني أنك قادر على الوصول إلى مرحلة اللاعقل، أي مرحلة اختفاء العقل كلياً. واللا تفكير يصبح جوهر حقيقتك وهكذا تكون تخطو على

الطريق الصحيح. ولكن، كن صبوراَ... الوجود يحب الصبورين، والأسرار لا تتكشف إلا لهم.

في التبت القديمة، كانت هناك عادة إرسال الأطفال إلى المعابد، ليتلقنوا مبادئ الدين والتأمل. كان على الأبناء قضاء ما لا يقل عن عشر سنوات بعيداً عن والديهم، عن أمهم وعن أبيهم وعن أخوتهم وأخواتهم وعن مسقط رأسهم. كان على الطفل الخضوع لامتحانات قاسية، قبل السماح له بالدخول إلى المعبد... كأن يبقى يوماً كاملاً دون حراك وتحت أشعة الشمس، بعدها تبدأ سنوات الطفل في تعلم ما جاء من أجله، وحتى يصبح قادراً للوصول إلى حالة اللاعقل، حيث لا مجال لأذية الآخرين، حيث لا طمع ولا جشع.

وتساءلت، كيف تؤدي المراقبة إلى اللاعقل.

هناك قانون جوهري، الأفكار لا حياة خاصة بها. إنها مجرد تشويشات وقلق. أفكارك تعبر عن حالتك النفسية، فحين تكون غاضباً لا شك ستتفوه بما يعبّر عن

الغضب. أما حين تتمكن من اتخاذ موقف المراقب للغضب، فساعتئذٍ، تكون تكبح الغضب ولا تزود طاقته بما ينميها. بمقدورك فعل ذلك، لأنك لم تعد متوافقاً مع الغضب، وهكذا أصبحت جزءاً من أي انتماء... أصبحت كما السماء، مساحة واسعة خالية من أية شوائب.

شيئاً فشيئاً، تصبح قادراً على التخلص من أفكارك، وسلوك الطريق إلى المشاهدة والمراقبة. بكلمة أخرى، إلى حالة اللا انتماء.

المراقبة تتطلب وجود مسافة، بين المراقب ـ بكسر القاف، والمراقب ـ بفتح القاف، بينما لا ضرورة لمثل تلك المسافة في الانتماء. الانتماء، كمن يضع المرآة ملاصقة لعينيه، فلا يعود قادراً على رؤية شيء. توائمك مع الأفكار يمنعك من المراقبة والمشاهدة، ويجعلك تتلون بألوان الأفكار، الغضب يجعلك غاضباً، الجشع يجعلك جشعاً، أنت مرتبط كل الارتباط بالأفكار ما يجعلك تلبي ما تريده منك دون أدنى محاولة

للرفض.

المراقبة تقضي على هذا الارتباط وتوجد نوعاً من الانفصال. وكلما كانت المسافة أبعد، كلما سهلت عملية المراقبة وأعطت نتائج أكثر إيجابية، المسافة تعني طاقة أقل للأفكار، علماً أن الأفكار تستمد طاقتها منك. إذاً، طالما ليس هناك طاقة، فموت الأفكار هو شبه أكيد، وهكذا تبدأ الإحساس باللا - عقل.

وهكذا أيضاً، تصبح قادراً على القول، وبصوت عال، إني أمتلك قدرة مراقبة جسدي وأفكاري ومشاعري، رباه يا لها من لحظات جميلة! إنها البداية، التي تشعرك بالاستراحة النفسية، حتى ولو لم تخطُ خطوة بعد. إنه الفرح يأتيك من تلقاء ذاته ودونما سبب.

أما حين تبدأ بالمسير على الطريق الصحيح، فستشعر بالنعمة الإلهية تحيط بك، ستشعر أن الحياة كلها ترحب بك وتقدم لك باقات الزهور.

قلت إن لحظات اللا تفكير هي قليلة ومتباعدة. إنه

أمر رائع يدل على أن أفكارك لم تعد متواصلة، لم تعد تضغط عليك، ليل نهار، وحتى في ساعات نومك. فما نسميها أحلاماً، ليست سوى أفكار اتخذت شكل صور، لأن الفعل اللاواعي لا يحسن قراءة حروف الأبجدية، بل يرغب برؤية صور... ليس هناك مدرسة أو مؤسسة تثقيفية تعلّم العقل اللاواعي قراءة الأبجدية.

اللاوعي هي حالة بدائية: إنها حالة الأطفال الصغار... هل حاولت يوماً، النظر إلى كتب أطفالك... كلها صور، صغيرة وكبيرة، صور ملونة، وأحرف صغيرة تحتها. الأطفال أكثر اهتماماً بالصورة، إنهم يفهمون لغة الصور.

هكذا، شيئاً فشيئاً تصبح الصورة مرادفة للغة، إن أردت أن تتكلم. الدب، مثلاً، تضع له صورة كبيرة، وتكتب اسمه تحت الصورة بخط صغير، إنما شيئاً فشيئاً أيضاً تصغر الصورة وتكبر الخطوط، ولهذا ليس في الكتب الجامعية صور، بل كلمات وكلمات. وهذا ما يفعله التلفاز هذه الأيام، أعادنا إلى العصور البدائية،

الكل يحدق في الشاشة ويرى صوراً تتلاشى... وعلى مدى ساعات وساعات، ما قد يؤدي إلى القضاء على القراءة وعلى الكتاب أيضاً.

تخيل رجلاً يمضي نحواً من سبع ساعات أو نيف، يومياً وهو مسمّر أمام شاشة التلفاز، فهل تتوقع من هكذا رجل، أن يقرأ إحدى روايات «شكسبير» أو كتاب النبي لـ «جبران خليل جبران»؟ الأدب العالمي، والكتب السماوية، كلها مجلدة ضمن كتب وكلمات وليس صوراً متحركة.

هنا لا بد من الحديث عن الحاسوب الذي بات يشكل أعظم خطر على ذاكرة الإنسان... إذ قد يأتي يوم، يستغني فيه عن ذاكرته ويعتمد على ذاكرة حاسوبه. هكذا إذاً، التلفاز يدمر الكتب الأدبية والحاسوب يدمر ذاكرة الإنسان التي أمضى عشرات السنوات حتى خزّن فيها معلومات هو بحاجة إليها، أو لربما يحتاجها يوماً ما. كل هذه اختراعات رائعة، لكن أحداً لم يفكر بمدى تأثيرها السلبي، وأنها قد تعيد البشرية إلى زمن

التخلف.

من هنا، فالسؤال عما إذا كنت تسلك الطريق الصحيح، أم لا، هو سؤال في محله. ولكن ما من أحد يضمن ذلك... هناك طرق عدة، متنوعة ومتشعبة، فأي منها هو الصحيح؟ التجربة هي الجواب. إن سلكت الطريق الصحيح، ستشعر بالغبطة، بالفرح، ستشعر بسعادة لا توصف، وسترَ أقواس قزح تتراقص أمام عينيك. وهكذا يمكنك متابعة المسير دون أي خوف... التجربة الشخصية الواعية هي التي سترشدك إلى الطريق الصحيح... تذكر دائماً، كلما ازددت إحساساً بالفرح، كلما كنت تقترب من حالة اللاتفكير.

كل ما عليك هو المضي قدماً، دون التطلع إلى الوراء، ولن يكون ذاك اليوم بعيداً، اليوم الذي فيه لا تخطر على بالك، ولو فكرة بسيطة واحدة. وهكذا، تكون قد بدأت الدخول في حالة اللا ـ عقل... والأهم من هذا كله، هو البقاء طيلة يومك، على مدى أربع وعشرين ساعة، وأنت في حالة اللا ـ عقل، هذا لا يعني

أنك لا تقدر على استعمال العقل، على العكس، فاللا ـ عقل يعني أنك قدار على استعمال عقلك، إنما هذا الأخير غير قادر على استغلالك، وفرض إرادته عليك.

اللاعقل، لا يعني القضاء على العقل، بل يعني وضع العقل جانباً، ويمكنك اللجوء إليه ساعة تشاء. ويعني أيضاً، أن العقل صار في موقعه الأصح، صار في خدمتك وليس سيداً عليك.

العقل هو مجرد وسيلة للتعامل مع الآخرين، أما، حين تكون وحيداً، لا حاجة لوجوده... إذاً، يمكنك استعماله عندما تريد، وتذكر أمراً آخر، كلما التزم العقل، الصمت، كلما صار أكثر طهراً ونقاوة، أكثر إبداعية وأكثر فرحاً.

مبدئياً، يبدأ العقل في العمل، منذ سن الثالثة أو الرابعة، ويبطئ عمله، حتى تأتي الساعة، لربما على مدى سبعين أو ثمانين سنة. الأمر الذي يؤدي إلى إصابته بالوهن، فلا يعود مبدعاً ولا خلاّقاً...

الرجل ـ اللاعقل، يبقي عقله في حالة استراحة، يبقيه متمتعاً بكامل طاقته، ما يعني أن الوهن لم يتمكن منه، إنه ـ أي العقل ـ ما يزال بكامل قواه، بطهارته بنقائه، يتصرف بعفوية أشبه بعفوية لمعان قطرات الندى، عند الصباح.

هكذا، فرجل التأمل، أو رجل اللا ـ عقل، هو ذاك الذي يتحمل المسؤولية، ويكون إثباته منه وفيه، ولا ضرورة لإثبات أحد له.

حقيقة إثبات الذات

لنعد إلى الوراء، إلى التاريخ، لنتعرف إلى أشخاص لن نعرف لهم مثيلاً، أمثال بوذا، المسيح، ومحمد... إنهم مرسلون لم يحاولوا إقناع أحد بالمسير وراءهم، بل أجبروا الناس على المضي خلفهم، اقتناعاً من الناس بسلوكيتهم ومناقبيتهم... إنها معجزة. المعجزة الأكبر... كانوا يعرفون، متى يستعملون العقل، ومتى يضعونه

جانباً، دون التخلي عن طاقاتهم... كانوا بذلك، يريحون العقل، حتى إذا ما اضطروا لاستعماله، يكون مستعداً بكامل قواه، دون وهن أو إحساس بالتعب.

حين أتكلم إليك، لا بد من استعمال العقل، بينما حين أكون وحدي في غرفتي، فلا ضرورة لذلك... أنا الآن وحدي، أعانق الصمت بينما العقل مرتاح أو لنقل مسترخٍ.

قلت: حين أسمعك تصف التأمل بالمشاهدة، أشعر وكأني أدركت ما تعني. أما حين تتكلم عن اللاعقل أشعر أني لا أعي شيئاً.

وكيف نعي شيئاً؟ اللاعقل هو احتمالية مستقبلك... لقد بدأت ممارسة التأمل، لربما على مستوياته الابتدائية، لكنك بدأت تكتسب خبرة، تخوّلك أن تفهمني، وتفهم من أنا. أما إذا كنت لا تدرك أهمية التأمل، فهذا يعني أنك لن تقلق بسبب شيء، لأنك لست مستعد للاهتمام بشيء.

حكماً، التأمل سيوصلك، إلى اللاعقل. تماماً كما النهر في مسيرته من النبع إلى المصب في المحيط. لا أحد يحدد له مساره، ولا أحد يرشده... كل ما يدريه أن المياه تتدفق غزيرة من النبع، ودون أن تتوقع، تجد نفسها تصب في المحيط. وهكذا هو التأمل، ينفجر في ذاتك، ومن ذاتك، ويصل أخيراً إلى اللا ـ عقل.

إنما، هناك فرق مهم وكبير، بين الأنهار والتأمل.

الأنهار تنبع من أعالي القمم، ووفقاً لقانون الجاذبية تتخذ الماء مجراها نحو الأسفل، دون أن تدري أن هناك محيطاً في الأسفل ينتظرها. الماء ـ إذاً ـ تنبع من الأعلى وتتجه نحو الأسفل، وعلى عكس التأمل، الذي يتخذ، اتجاهاً علوياً له، إنه يتجه إلى القمة، إلى اللاعقل...

اللاعقل، حكمة بسيطة، لكنها تعني التنور، التحرر من كل الشوائب، من العيوب، اللا ـ عقل هي تجربة اللاموت، تجربة الخلود الأبدي.

اللاموت والخلود الأبدي، كلمتان كبيرتان، تستوجبان الكثير من الشرح، والإيضاح. لذا استبدلتهما باللا ـ عقل.

حين يكون العقل غير مرتبط بمهمة ما، غير فعال، تصبح أنت جزءاً من العقل الكوني من عقل الوجود الشامل، ومتى تصبح واحداً من العقل الشمولي للكون، يتحول عقلك إلى خادم مطيع لك... لقد تعرّف إلى السيد ـ أنت ـ وتعلم شيئاً جديداً، من خلال اتصاله بالعقل الشمولي.

أنا... حين أتكلم إليك، يكون الكون الشمولي يأمرني أن أفعل ذلك، يكون يستعملني كوسيلة لمخاطبتك، فكلماتي، إذاً ليست كلماتي، إنها كلمات الكون الشمولي، إنها طاقته وقدراته، وسحر جماليته.

علاقة الوعي بالطاقة

نرجوك حدثنا شيئاً عن علاقة الوعي بالطاقة

اكتفشت الفيزياء الحديثة، أهم اختراع عرفته البشرية: المادية هي طاقة... إنها أهم وأروع هدية، قدمها «ألبرت أينشتاين» إلى الإنسانية جمعاء. المادة هي طاقة.

المادة، تُرى بوضوح، وإلا لما كان هناك شيء مثل المادة، لما كان هناك شيء صلب... حتى الصخرة الصماء، هي طاقة نابضة، وتمتلك من الطاقة، ما يوازي طاقة موج المحيط، إنما هناك أمواج تتحرك داخل الأجسام الصلبة، دون أن يراها أحد، لكن هذا لا يعني أبداً، أن الصخرة الصمّاء، لا تتنفس، لا تفيض... أنها حية فعلاً... نعم حتى في الصخرة حياة.

فريدريك نيشيه، صاح علناً: «لقد مات الله!». الله لم يمت، ولن يموت، بل المادة هي التي ماتت... المادة التي وجدت، لا لتحيا، ولا لتكون... إنها المرة الأولى التي يتوافق فيها العلماء، مع النساك المتدينين.

أدينغتون»، أحد أبرز علماء القرن العشرين قال:» لطالما اعتقدنا أن المادة هي شيء، إنما اليوم لم تعد كذلك. لم تعد شيئاً، المادة هي أقرب إلى الأفكار منها إلى الأشياء.

الوجود هو طاقة، هذا ما توصل إليه العلماء مؤخراً، أن الطاقة موجودة في كل شيء... جسدك طاقة، عقلك طاقة. وكذلك. ... ما الفرق إذاً بين هذه الثلاثة؟ لا شيء سوى طول الموجة الهوائية الصادرة عن كل منهم، كذلك في إيقاع العمل.

الجسد هو الطاقة الأكثر نشاطاً، وهو مرئي منك ومن الجميع. وكذلك حركاته، على عكس العقل، الذي نحس بنشاطه ولا نراه. ادخل غرفتك، استرخ قليلاً واغمض عينيك، فستلاحظ أن أفكاراً كثيرة تراودك. إنه العقل يعمل... أنت تلاحظ ذلك، إنما لا تراه، أفكارك ليست كجسدك، جسدك الكل يراه، بينما أفكارك تبقى ملكاً لك وحدك.

ويبقى الوعي، وهو قمة النشاط الإنساني، الوعي غير مرئي أبداً لا منك ولا من غيرك، ولا يمكن اختصاره على أنه من يقع عليه الفعل ـ المفعول به ـ لأنه شئنا أم أبينا، هو الفاعل، كان كذلك وسيبقى.

ولو اجتمعت هذه الطاقات الثلاث، وعملت معاً بتناغم وتناسق، فهذا يوجب الاعتراف بأنك إنسان سليم سوي وأنك متصل بالكل الشامل، وكونك متصلاً بالكل الشامل، فهذا يعني أنك إنسان مقدس.

أنا هنا، لأساعدك على كيفية بذل جهد لجعل جسدك وعقلك ووعيك، يعملون معاً وفق إيقاع واحد، بتناغم قوي وبيد واحدة، وفي اللحظة التي يعمل فيها هؤلاء الثلاثة معاً، تكون أنت تحولت إلى ثالوث مقدس، ومن ثم إلى الاتصال بالله، الخالق.

ويبقى أيضاً، أنك سألت عن العلاقة بين الوعي والطاقة... فعلاً، إنه سؤال مميز وجدير بالاهتمام.

بداية أقول لك: لا علاقة أبداً بين الوعي والطاقة...

قد تتعجب... لكنها الحقيقة التي لا تقبل ردعاً ولا حجباً. ذلك لأن الوعي هو طاقة، طاقة نقية جداً... بعكس العقل الذي فيه شيئاً من المادة وكذلك الجسد الذي هو خليط منها، لذا فهما غير نقيين. هكذا تبرز المشكلة، مشكلة التنافر بين هذه العناصر الثلاث منذ وجدت، وهم يقولون لك إن جسدك هو عدوك وعليك محاربة هذا العدو... جسدك هو سبب الخطيئة.

كم هي سخيفة وتافهة، تلك المفاهيم التي تعلمتها على مدى قرون وقرون... هذه ليست مفاهيم بناءة، إنها مفاهيم مؤذية تسمم حياتنا، وللأسف، تحولت هذه المفاهيم، إلى ركيزة أساسية لحياتنا. لذلك، أنا أدعوك إلى التناغم مع جسدك، أدعوك إلى الرقص، إلى سماع الموسيقى، إلى الاسترخاء، هكذا يرتاح العقل، ويرتاح الجسد، ويتفعّل دور الوعي.

الوعي، هو قمة الطاقة الفعالة، ولكن حينما، تعمل تلك الطاقات الثلاث معاً، وبتناغم كلي، فستكون هناك طاقة رابعة، طاقة هي موجودة أصلاً، إنما لا تبرز إلا

على إثر عمل الطاقات الثلاث معاً، وبتناغم... هذه الطاقة الرابعة، لا إسم لها... هكذا يقولون في الشرق، للطاقات الثلاث الأولى، أسماء، أما الرابعة، فلا اسم لها... ومحاولة معرفتها، تعني محاولة معرفة الله الذي لن تكون قادراً على التعرف إليه، إلا حين تكون وحدة عضوية متوافقة منسجمة. فالله لا يتواجد حيث الفوضى والإرباك.

حين تشعر بالسعادة المطلقة، حين تكون النعمة تغلفك، وحين تكون كل طاقاتك تعمل معاً، وكأنها جوقة موسيقية، يقودها مايسترو واحد وجدير بالثقة. حينذاك، يكون الله، ليس إلى جانبك فقط، بل وفيك أيضاً، الله ليس شخصاً، ولا أحد يستطيع أو يحق له، شخصنة الله، لأن الله هو الطاقة الرابعة...

هكذا، يا صديقي، فالطاقات الأربع هي الأساس، ليس مهماً أن ترسم لوحة، المهم هو جمالية اللوحة. الجمالية المعبرة عن تناغم وتناسق تلك الطاقات... فالكل الشمولي هو أهم من الجزء، وفهم هذا يؤدي إلى

فهم مفهوم الألوهة... فالله ليس، مسألة نقاش، إذ لا يمكن لأحد إثبات وجود الله، عن طريق نقاش لاهوتي أو عقلاني، كل ما عليك هو الإحساس بجمالية وجود الله.

كل ما عليك هو الإحساس بالجمال، بالموسيقى، بالرقص، وستشعر أن الرقص هو في جسدك، في عقلك وفي روحك.

عليك معرفة كيفية قيادة تلك الأوركسترا التي تضم الطاقات الثلاث، ساعتئذ يكون الله، دون أن تراه، إنه الذي يرى ولا يُرى... وهكذا، تكون قد خطوت أولى خطواتك على طريق التامل.

أطلب منك، التخلي عن كل المفاهيم التقليدية، عن التأمل التي تقول: إجلس تحت شجرة صامتاً، وهكذا تكون تمارس التأمل. هذه وسيلة واحدة من وسائل ممارسة التأمل، وقد تكون مناسبة لإنسان ما، وغير مناسبة لإنسان آخر، ذلك لأن الناس مختلفون... فقد

يكون الجلوس تحت شجرة، خير تأمل بالنسبة لإنسان ما، وذلك يعتمد على مقدار ما لديه من طاقة... فلو أحنيت جسدك، يميناً أو نحو اليسار، فهذا يعني، أنه عليك استهلاك طاقة أكثر لمقاومة جاذبية الأرض، وحفاظاً على توازن جسدك، فلا تقع أرضاً.

عليك معرفة، أن الأصابع هي مصدر تسرب الطاقة من جسدك إلى الخارج، فالطاقة لا تنطلق من الأشكال الدائرية، لذا فهي لا تتعتق من الرأس، بل من أنامل اليد أو أصابع القدم. وهكذا، إن جلست، يداك مضمومتان، قدماك متلاصقتان، فالطاقة لا تتسرب إلى الخارج، بل تشكل حركة دائرية ضمن جسدك، وهكذا تتحول إلى دائرة طاقة داخلية. فتتعرف إلى الاسترخاء الكلي، دون خسارة طاقة.

من هنا، فوضعية رياضة اليوغا، هي الوضعية الأفضل للاستراحة، على عكس وضعية الاستلقاء على السرير، حيث تكون كلك، مشدوداً إلى الأسفل بفعل قانون الجاذبية... وضعك الأفقي هو الأكثر إراحة

وإرضاء لك، لأنه يعيدك إلى وضعك الحيواني، يوم كنت تسير على الأربع، ولهذا، فوضعية الاستلقاء لا تسمح لك بالتفكير بوضوح... نعم يصبح التفكير صعباً... يمكنك أن تحلم، إنما ليس بمقدورك التفكير. حتى تفكر، عليك أن تجلس، وكلما، جلست منتصباً، كلما ازدادت إمكانية حسن التفكير، أما حين تستلقي، تكون الأحلام أسهل مثالاً وتكون الأفكار عصية.

نعم، كلٌّ يتأمل وفق ما يريحه، وفق ما يراه مناسباً، فالضحك قد يكون تأملاً، أو الرقص، أو السباحة.

من هنا، فأنا أحاول أن أجعل التأمل متوفراً لكل واحد، ووفق ما يراه مريحاً... يمكنه تحويل جلسات استراحته إلى جلسات تأمل... إن للتأمل أبعاداً كثيرة... إنما هو أساس الحياة، هو الذي ينبع من أعلى قمم الحياة، وتوزيع البركة الإلهية والنعمة السماوية على الآخرين.

الأهم من هذا كله، هو أن يبقى الجسد، العقل

والوعي، يعملون بتناغم وتناسق، رغبة في الوصول إلى الطاقة الرابعة، التي هي الطاقة الأسمى والأعلى... النيرفانا أو الألوهة.

الفصل السابع: عن الصواب والخطأ

إفعل ما تطلب منك الطبيعة أن تفعله، لا تصغ إلى أولئك الواعظين الذين يكثرون من الكلام. اصغِ إلى ما يقوله القلب... إنه الكتاب المقدس في حياتك... هذا ما أعتقده أنا، على الأقل. اصغ، باهتمام ووعي، ولن تكون على خطأ... اصغاؤكَ إلى قلبك، يعني أنك اتخذت الوجهة الأصح، بغض النظر عما هو صح أو خطأ.

الإصغاء إلى القلب، بوعي واهتمام، هو سر نقاء الجنس البشري... تذكر، أنك قد تفشل حيناً، ولكن ما عليك إلا المحاولة من جديد... إنما إياك والسماح لأحد أن يفرض عليك قواعد ومفاهيم. لأن هذه القواعد، هي من اختراع أناس، كل همهم السيطرة عليك، وإخضاعك لإرادتهم... لا أنكر، أنه هناك أناساً متنورين، بوذا، المسيح، كريشنا ومحمد... غير أن

هؤلاء، ما جاؤوا ليفرضوا مفاهيمهم على الناس، بل لمنح الناس حباً وعطفاً، وإرشادهم حيث النور الإلهي... إنما، عاجلاً أم آجلاً، سيخرج مدّعون أنهم أتباع واحد من هؤلاء المتنورين، ويبدأون برسم طرق يفرضون على الناس سلوكها... في حين أن المتنور الأساسي لم يرسم لك طريقاً، أما من ادعى أنه متنور، فيرسم لك طريقاً.

لقد فعل المسيح ما همس به قلبه في أذنه، أما المسيحيون فإنهم لا يصغون إلى همس قلوبهم، إنهم مقلدون، والتقليد إهانة للإنسانية ولله أيضاً.

لا تكن مقلَّدا لأحد، بل كن أنت، ذاتك وليس أحداً غيرك. إلا أن ما تشهده اليوم هو مخالف لما أوصاك به الأوّلون. واعلم أن المقلدين كثر.

ما هو مناسب لبوذا، قد يكون مناسباً لك... فكّر ملياً بالفرق الكبير بين كريشنا وبوذا، فلو قلد أحدهم الآخر، لكانت خسرت الإنسانية واحداً من عظمائها، تخيل

بوذا، جالساً تحت شجرة، يعزف على الناي... فلا شك، أن لعنات الرعاة، كانت ستنصب عليه، لأنه، في الأساس، لا يحسن العزف على الناي... ولكن تخيل كريشنا يجلس تحت شجرة وارفة، وألحان نايه، تذهب إلى حيث تأخذها الريح، وانظر إلى الكون كيف يرقص، وكيف يشارك كريشنا فرحه.

بوذا هو بوذا، وكريشنا هو كريشنا، وأنت هو أنت. ولا أحد أفضل منك، فاحترم نفسك، احترم الصوت المنبعث من داخليتك واتبعه، هذا لا يعني أنه سيأخذك في الاتجاه الصحيح، ولكن معرفة أن الوصول إلى المكان الصحيح، قد يتطلب تجارب كثيرة تسبقه. إذ قد تقرع عدداً من الأبواب الخطأ، قبل أن تقرع الباب الصح.

تذكر، أن ما من جهد يذهب سدى... فلا تقلق، ولا تتردد، لا تخف إن أخطأت التصرف، مرة، أو اثنين أو ثلاثاً. ففي النهاية ستحسن التصرف... إياك الخوف من الوقوع في الخطأ، لئلا يجعلك أسير الوساوس

والهواجس، ويمنعك من التحرك.

ارتكب ما شئت من الأخطاء، إنما عليك ألا ترتكب الخطأ ذاته مرتين.

هل هناك أمر خطأ بقدر ما هو صح؟

ليس هناك، ما هو خطأ بقدر ما هو صح، لأن الذي يصلح لليوم قد لا يصلح غداً، الصح والخطأ، ليسا مفهومين ثابتين لا يتغيران، لذا لا يمكنك تحديد ما هو خطأ وما هو صواب، وكون الناس هم الذين يفعلون ذلك، لذا، فهم يخدعون البشرية بأجمعها.

«ما ماتي»، حدد للهندوس ـ ومنذ خمسة آلاف سنة ـ ما هو خطأ، وما هو صواب، نعم فعل ذلك منذ خمسة آلاف سنة، وحتى اليوم، ما يزال الهندوس ملتزمين بتعاليمه... خمسة آلاف سنة، أمم اندثرت، حضارات اندثرت، أشياء كثيرة، لا تعد ولا تحصى، تغيرت حتى

ولو عاد «ماتي» وجاء في هذه الأيام، فلن يكون قادراً على التعرف إلى العالم.

وبعد خمسة آلاف سنة، ما يزال هناك ملايين البشر، في الهند، يعاملون وكأنهم ليسوا بشراً، يعاملون وكأنهم قطعان ماعز أو غنم... حتى البقرة أهم منهم... هناك، من يزالون يتعبدون للبقرة... البقرة مقدسة... هذا ما قاله «ماتي» منذ خمسة آلاف سنة وما يزال معمولاً به حتى الآن.

ليس عجباً، أن نرى بشراً مستعدون للإضراب عن الطعام، استنكاراً لذبح البقر. لكن هؤلاء البشر ذاتهم، يلتزمون الصمت حيال قتل آلاف البشر، حيال اغتصاب النساء، وإزهاق أرواح الأطفال... مدن بكاملها تدمر، ولا يتفوه أي من أولئك عبدة البقر، ببنت شفة. كل همهم إنقاذ البقر، لماذا؟ لأن ماتي أوصاهم بذلك، ومنذ خمسة آلاف سنة.

قد يكون ماتي محقاً في ما قال، وفي ذاك الزمن،

حين كانت البقرة ركن الاقتصاد الأسري، تدر الحليب، تحرث الأرض، تجر الأحمال، أما اليوم فكل شيء تغير، ماتي عاش وسط مجتمع قليل العدد سكانياً، وضمن مساحة جغرافية محدودة، أما اليوم، فالمساحات مفتوحة على بعض، وتزايد عدد السكان، وبالرغم من هذا، فهناك من ما يزال يتبع وبدقة، ما قاله ماتي منذ خمسة آلاف سنة.

جاء في الوصايا العشر: «أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى غيري»... كان هذا منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف. ولكن هل كل شيء ما يزال على حاله؟ ماذا عن الملحدين، الذين يزيد عددهم عن عدد نصف سكان الأرض فالوصية يجب أن تكون: «لا تكن ملحداً، لا تكن غير مؤمن بالله».

كما الزمن يتغير، كذلك مفهوم الخطأ والصواب، ويمكنك معرفة ذلك، من خلال تجربتك الحياتية، الأشياء تتغير يومياً، ولا شيء يبقى ثابتاً، والإنسان الذي يعتقد، أن الأشياء ثابتة ولا تتغير، هو إنسان ميت،

وأنه يفتقر إلى العلاقة مع الأوضاع التي تستجد.

بالنسبة لي لا شيء هو خطأ دائم، ولا شيء هو صواب دائم، لذا أنا هناك، لأعلمك الوعي، ليس التصنيف، أو تحنيط الأمور ضمن فئات... أنا هنا، لأدعوك إلى التصرف بوعي. بكلمة أخرى، كل تصرف صادر عن الوعي، هو تصرف صائب، وكل تصرف ناتج عن اللاوعي هو تصرف خاطئ.

انتبه، ركز، ليس على العقل بحد ذاته، بل على مصدر العقل ـ الوعي واللاوعي. إذا كنت واعياً كلياً، فكل ما تفعله هو صواب، أما إذا كنت تتصرف ميكانيكياً، كأولئك الذين يسيرون أثناء نومهم، فكل ما تفعله هو خطأ.

الوعي صواب، اللاوعي خطأ.

إن قصدت كاهناً، رغبة في النصيحة، فلن يقول لك شيئاً أكثر، من أن هذا خطأ، وهذا صواب، دون أن يقدم لك أدنى فكرة عن كيفية التمييز بين الإثنين... إنه

يريدك أن تبقى متكلاً عليه. أن تبقى بحاجة إليه... إنه يقدم لك عكازاً تستند عليه، ولا يساعدك للوقوف على رجليك.

التقى أحدهم بصديقته، وراحا يتبادلان أطراف الحديث، فقال لها: أعتقد أن طبيبي النفسي هو أفضل وأنجح طبيب في العالم، لذا يجب عليك زيارته.

غير أني لست بحاجة لمعالج نفسي... قالت الصديقة، أنا طبيعية جداً، ولا أشعر أني بحاجة لعلاج نفسي.

لكنه ناجح جداً، قال الصديق ملحاً: «لربما، إن زرته، سيجد أن هناك شيئاً ما خطأ في حياتك».

نعم... هناك، من هم، لا هم لهم، إلا إيجاد خطأ فيك، يفرحون ويغتبطون. إن وجدوا أن هناك خطأ فيك. إنهم يرفضون تقبلك كما أنت. إنهم يريدونك تبعاً لما هم يرغبون ويحبون وإلا ستكون مجرماً، ولا تستحق صداقتهم، سيجعلونك أسير هواجس ووساوس، وتنسى

كل شيء عن الحرية.

بالطبع، ستنسى كل شيء عن الحرية، لأنهم سيجعلونك ترى كم أنت سيء، كم أنت مخطئ، ولو كنت حراً، لكنت ستتصرف خطأ. إذاً كن تابعاً لأحد، جد أحداً تعتمد عليه، أحد يرشدك إلى الخطأ والصواب، وإلا فأنت مجرم بحق نفسك.

لا شيء صح، ولا شيء خطأ... إياك الاعتماد على أحد ولا تكن متشبثاً برأيك... تصرف بوعي، كن واعياً، فالمعجزة آتية.

إن قصدت كاهناً، وقلت له إنك غاضب، فلا شك سيقول لك، الغضب فعل غير مستحسن. لا تغضب... فماذا ستفعل إذاً؟ إكبح مشاعر الغضب، ابتلعه، وستصاب بالسرطان.

أنا لا أقول إن الغضب هو خطأ، بل أقول: الغضب هو طاقة، طاقة خفية، حين تشعر بالغضب، كن واعياً منه، وانتظر المعجزة التي ستحدث، ستصاب بالدهشة،

سيختفي الغضب، لقد تحول الغضب إلى طاقة، طاقة نقية، الغضب تحول إلى عطاء وإلى تسامحٍ وإلى حب. ألم تعد بحاجة لكبحه، أنت لم تعد غاضباً، ولن تؤذي أحداً، فالكل في أمان: أنت والآخر، الذي من المحتمل أن تصبّ جام غضبك عليه، كذلك لن يتعذب أحداً.

لا ضرورة أن يتعذب أحد... كن واعياً فقط، ليكن الوعي رفيق دربك... بالوعي تتغلب على مشاعر الغضب، وبوجوده يختفي الطمع وتختفي الغيرة... الوعي هو المفتاح الذهبي الذي يفتح لك أبواب الجنة.

هل الوعي، كاف وحده، ليرشدنا إلى حسن التصرف؟

تحدثت عن التنبه والوعي، بحيث صار يُعتقد وكأنهما وحدهما كافيان لإرشاد المرء إلي حسن التصرف. هل هذا يعني أن تلك الجرائم ارتكبت من غير تنبه أو وعي. وكذلك العديد من حالات الاغتصاب والسرقة؟

نعم... الحقيقة الوحيدة، والأهم، هي عدم الإدراك والتنبه... أما الفضيلة فهي التنبه.

يستحيل على المرء ارتكاب جريمة قتل وهو في حالة إدراك وتنبه، كذلك يستحيل عليه، وهو في هذه الحال، أن يغتصب أو أن يسرق، أو أن يقوم بأي عمل مُنافٍ للأخلاق والقيم.

قال بوذا: اللصوص يتجنبون دخول البيت المضاء، كذلك إذا شعروا أن فيه حركة وأن سكانه لم يخلدوا إلى النوم بعد.

هكذا أنت. أنت أشبه بمنزل معتم... الإنسان العادي، أشبه بالآلة، مبرمجة لتقوم بعمل ما، وهكذا أنت... أنت إنسان بالاسم فقط، لذلك، فكل ما تفعله هو خطأ بخطأ... انتبه، قلت كل ما تفعله، حتى ولو فعلت الإحسان وقدمت التضحيات، إذ كيف يكون بمقدورك فعل الإحسان، وأنت غير مدرك لما تفعل وغير متنبه لما أنت مقدم على فعله؟ إن فعلت ذلك، فلأن الأنا هي التي

دفعتك، والحال هذه، حتى تمسكك بأهداب الفضائل، لن يكون إلا مظهر من مظاهر التعبير عن الأنا، لأنك لن تكون إنساناً بسيطاً، أو إنساناً متواضعاً، وهذا ما لن يوصلك إلى مرحلة الخلود، التي لا وصول إليها، إلا بعد اختفاء الأنا.

بوجود الأنا، قد تعيش حياة محترمة، إنما ستكون فقيراً مثلك مثل الملايين من البشر، ستكون داخلياً يائساً، ورائحة العفونة تصدر منك، ولن يكون لوجودك معنى، حتى أفعال الخير تتحول إلى خطايا.

أنا لا أدعوك إلى التمسك بالقيم والأخلاق، بل أدعوك لتكون مدركاً متنبهاً، وإلا ستبقى تشعر وكأنك تعيش خلف قضبان سجن لا خروج لك منه.

وحده الإدراك يخلصك من عذاباتك، إنه المفتاح الذي بواسطته تفتح أبواب الوجود الكوني. الإدراك يعني العيش كل لحظة بذاتها، يعني اليقظة، يعني وعي ذاتك، ووعي كل ما يجري أمامك وحولك. الإدراك

يعني أن كل ما تفعله، فإنما تقوم به بتناسق وتناغم مع الكلي الشامل، وأنت تكون تعكس نقاء الوجود... وفي الوقت ذاته كل ما تفعله، هو ليس من فعلك، بل يصدر منك، أنت لست الفاعل أبداً، فلست أنت من قرر أن يفعل أو لا يفعل. أبداً أنت لست الفاعل، مهمتك، كانت في السماح لما حدث أن يحدث.

تماماً، كما ولو كنت خرجت صباحاً، الشمس لم تشرق بعد، فإذ بأفعى تنسل أمامك... لن يكون لديك القدرة للتفكير بما يجب أن تفعل، إنما تقفز «فوراً» إنتبه لكلمة «فوراً». تعني أنك لم تهدر حتى ثانية واحدة... فوراً وفجأة قفزت لتكون بعيداً عن الأفعى. بعدها يمكنك الجلوس تحت شجرة، لتفكر بالذي حدث، والتأكد من صوابية ما فعلت. في الواقع إن الذي حصل لم يكن بإرادتك، بل هو حدث، حدث خارج نطاق السياق كله. أنت والأفعى والخوف من الموت، وكل الجهد الذي بذلته لإبعاد الخطر عنك. كل هذه وغيرها، حدثت هكذا، أنت لم تكن الفاعل... الموقف هو السبب

في كل ما حدث. أما أنت، فكنت مجرد وسيط.

الآن، وقد حصل ما حصل، أنت لست الفاعل. دينياً، يمكنك القول، الله أراد ذلك... هكذا إذاً؟ الله أراد إحداث ذلك من خلالك، لكنه الله، وهو ليس بحاجة إليك.

الذي حدث قد حدث وانتهى... ولن يترك أثراً نفسياً عليك مدى الحياة... لقد حدث، لم يجرحك جسدياً، وقد لا يتكرر ثانية. إنه ليس جزءاً من قدرك.

الحدث الذي يتحول إلى قدرية، هو ذاك الذي، ليس فعلاً بل ردة فعل، متأتية من الماضي، من الذاكرة أو من التفكير. ردة الفعل، أنت تختارها، وأنت تقرر أن تقوم بها، وهذا هو عدم الإدراك. إذاً هذه هي الخطيئة.

لحظة تصبح مدركاً، لا تعني فقط، أن تحولاً أصاب حياتك بل، أنك أصبحت تتصرف بطريقة جديدة... تعني أنك بدأت تساعد الآخرين، كي يتحولوا، لأنك حين ترى نور الإدراك وحين تخرج من كهف اللاوعي، ستتفاجأ من أن كل ما فعلته سابقاً، لم يكن

أفعالاً حقيقية، بل كان مجرد ظل الواقع... وأنت كنت تحلم بما هو واقعي.

وحين ترى النور، ستكون على استعداد، على مشاركة الآخرين في رؤية النور، ستعود فوراً إلى الكهف، لتحرر السجناء الآخرين. وهذا ما فعله الأخيار على مدى قرون وقرون. هذا ما فعله «فيتاغوراس»، لقد تحرر، تحرر من عتمة كهف اللاإدراك، والغباء والجهالة. لقد خرج من الكهف، وهكذا أنت حرّر نفسك واخرج من كهف الظلمات.

للوهلة الأولى قد تحس بتعب في عينيك، إنه تعب بداية التأقلم مع رؤية النور، للوهلة الأولى، قد تشعر برغبة في العودة إلى الكهف، إلى القمة، إلى حيث تعودت أن تكون... ولكن، ما إن تبدأ بالتعامل مع الواقع، حتى تختفي هذه الرغبة وترى نفسك راغباً في العيش مع النور، راغباً في التعود على رؤية النور، فالواقعية هي البركة، ومن خلال اختبار الواقعية يأتي الإيمان.

أنا مدرك لسبب تساؤلك. لقد حاولت كثيراً أن تتخلص من نوبات الغضب، حاولت ألا تكون حسوداً، ولكن عبثاً كنت تحاول. حاولت الكثير لإحداث تغيير في ذاتك لكن لا شيء حصل... فأنت ما زلت كما أنت.

دعني أقول لك، كن مدركاً منتبهاً، نعم وحده الإدراك يساعدك على التخلص من كل ما تعاني... إنه مفتاح الباب الذي يدخلك إلى قاعة الهدوء النفسي والاسترخاء الروحي.

كن كذلك الذي أصابه كابوس ليلي، عذبه، جسدياً ونفسياً. حلم أن هناك من يريد قتله، وأن عليه الصراع من أجل البقاء حياً. ولكن، ماذا يفعل وأعداؤه كثر، وسيوفهم مسلولة... بدا الحلم وكأنه حقيقة. أخذ جسده يرتجف، شعر بضيق في التنفس... وفجأة صحا من نومه، تطلع حوله، لا بشر، ولا سيوفاً مسلولة... ضحك، أدرك أن لا أحد يريد قتله. صحا من نومه، واختفى الحلم... إذاً لم يعد بحاجة لمنقذ... فأعداؤه الذين رآهم في الحلم هم مجرد خيالات وأوهام. هذه هي

الحال معك، ومع كثيرين غيرك.

الغضب سراب، ومن بمقدوره التغلب على السراب؟ كذلك الشهرة، كذلك الجشع... كل هذه ليست حقائق واقعية. الواقعية هي تلك التي تترافق مع الإدراك وتتزامن مع التنبه، لذا فالمدركون، لا يعرفون الغضب، ولا يعانون من الشهوة... الإدراك هو النور، وحيث يوجد النور، تتبدد العتمة... إنها معجزة... إنه أمر لا يصدق... شمعة صغيرة تنير دروب الحياة.

ابتسم بوذا حين شعر أنه أصبح متنورا، وقال: إنه أمر لا يصدق، أنا متنور الآن. وكل تلك القيود التي كانت تكبلني. كانت مجرد خيالات وأوهام. كنت أعيش في كابوس وها أنا صحوت من النوم. لهذا راح يوصي أتباعه ومريديه وسائليه أن يكونوا مدركين متنبهين.

تذكر أمراً، ليس بمقدورك مشاركة أحد في أحلامك. لكل واحد أحلامه الخاصة. وهكذا لكل واحد مشكلته وخوفه. ولكن ما هو الدواء؟ استيقظوا، هذا هو الدواء،

فتختفي الأحلام ولن تعودوا بحاجة لمعين أو مساعد... هذا هو الدواء، إنه أشبه بالتأمل. ولكن المشكلة هي أن هناك كثيرين لا يعون أنهم مدركون. إنهم ليسوا نائمين، لكنهم يحلمون، ألف حلم وحلم... إنهم ليسوا هنا، بل في مكان آخر. هذا هو اللاإدراك. هذا هو الاستمرار في الماضي، في استرجاع الذكريات... أنت تحلم... أو لربما ترغب بالعيش في المستقبل، فأنت تتخيل وتخيلك هذا هو حلم أيضاً.

كن هنا... دائماً كن هنا.

الإدراك لا يعني الماضي ولا المستقبل، إنه يعني الحاضر. لذا كن هنا. في هذه اللحظة... وكن خالي الذهن. كن نقياً كما الماس والكريستال، ولن تكون هكذا، إلا إذا كنت هنا، وفي هذه اللحظة بالذات. هكذا تختفي الأنا التي هي سبب العديد من المشاكل، بوجود الأنا، لا يمكنك أن تكون متواضعاً، لأن للأنا أنانيتها، والتواضع والأنانية ضدان لا يلتقيان، إنهما أشبه بالخطوط المتوازية. بوجود الأنا، لن تكون مدركاً، فقط

يمكنك الانتقال من زنزانة إلى أخرى داخل السجن.

حتى تخرج من السجن، عليك أن تكون يقظاً متنبهاً، وستنال كل شيء، لن تقدم على سرقة شيء. ولماذا تسرق؟... لن تقدم على ارتكاب جريمة، ولماذا تفعل ذلك؟ أنت الآن غير قادر على تخيل وقوع جريمة... أنت أزلي أبدي، لست قادراً على القتل أو السرقة... أنت، مذ رأيت كينونتك الداخلية تلفها حالة من النور، تحولت إلى متنور قادر على رؤية كينونة الكل... إنه الخلود. الموت كذبة... الموت يحدث في الأحلام، وليس في الواقع... الإدراك يقودك إلى الوعي، والوعي يزودك بالحب... الوعي يمنحك، أكثر ما تريد من الحب، حتى تتمكن من مشاركة الآخرين فيما أعطيت من حب. وهكذا تتحول حياتك إلى تناغم، تناسق، وعطاء... ليس مهماً أن يكون الرجل والمرأة، متزوجين، بل المهم، أن يتصرفا بتناغم وتناسق. أن يمارسا الحب وليس الجنس، وإلا تحول الرجل إلى مغتصب ـ نعم مغتصب، ولمن؟ لزوجته التي تقبل

بمضاجعته. لا تعبيراً عن حب، ولا رغبة بالمضاجعة، بل تنفيذاً لواجباتها الزوجية. بكلمة أخرى، إنها تفعل ذلك مجبرة ومكرهة... أوليس هذا اغتصاباً؟

الحب، يكون، حيث يكون الإثنان مدركين متنبهين، وحين ينصهر كل بالآخر... لكنك، تعودت الدخول إلى بيتك والخروج منه هكذا بتلقائية كما تعتقد. إذاً لا ضرورة للتنبه، ولا حاجة للإدراك، ولكنك لا تدري أنك تتصرف وكأنك آلة وهذا ما يوقعك في الأخطاء. الآلية تحول حياتك إلى جحيم، وتجعلك غير موجود في اللحظة الحاضرة، والجنة تعني أن تكون هنا، وفي الحاضر.

اللاإدراك قد يدخلك غرفة غير التي تقصد... إذاً أنت في الغرفة الخطأ، في الغرفة التي قد تكون محجوزة لغيرك. قد تكون قدِّيسا، لكن وجودك في المكان الخطأ يجعل منك مذنباً... والحال هذه، يجب إحداث تحويل في انطباعاتك الفعلية، وهذا ما يسمى الإدراك... أنت مشغول في الماضي، ومتشوق لمعرفة

ماذا سيحدث في المستقبل، هذا يعني أنك متلازم للعقل. والعقل هو الغرفة الخطأ ـ المكان الخطأ... اخرج من تلك الغرفة، وتعال عشْ فِي الحاضر، هكذا لا تعود مرتبطاً بالعقل، ولست جزءاً منه... وهكذا أيضاً، تنقشع الغشاوة عن عينيك. هكذا تصبح أنت المرآة، المرآة النقية التي تعكس كل شيء بوضوح. إنه الوعي يوصلك إلى الغرفة الصح، إلى المكان الصح.

أنا أدعوك لتكون متنبهاً واعياً، ولا أدعوك لكبت أي من مشاعرك أو غرائزك... أنا لا أشجعك على عدم استعمال العنف، أنا لن أذكر كلمة عنف على سمعك. لن أذكر كلمة جريمة على مسمعك. أنا أدعوك أن تفعل كل شيء باهتمام. أن تكون مدركاً لما ستفعل، ولماذا ستفعله. أنا أدعوك للتخلص من ماضيك، وعدم التطلع إلى المستقبل، لئلا تنشغل بأمور، لست قادراً على تغيير شيء فيها. فالذي حدث قد حدث، والذي سيحدث لا أحد يعرف ما سيحدث. هناك من يتوقع... إنتبه ـ يتوقع ـ ولكن قد لا يتحول التوقع إلى واقع... لهذا، أنا

أدعوك للعيش في الحاضر. وكلما كنت أكثر تواجداً في اللحظة الحاضرة، كلما ازددت إدراكاً ووعياً، كلما امتلأت حياتك براحة البال وبالحب، وكلما غمرتك الحياة بصمتها المعبر... كل هذه، هي من منتوجات الإدراك والوعي.

كيف لي أن أتأكد أني أسير على الطريق الصحيح

مع كل خطوة نحو المجهول، كيف لي أن أتأكد أني أسير على الطريق الصحيح؟

دلائل مسيرك على الطريق الصحيح، واضحة جداً: عدم الشعور بالتوتر، الإحساس بالراحة النفسية، والهدوء... وجودك على الطريق الصحيح، يعني أن الدنيا كلها ترحب بك، تكشف لك عن جمالها.

كل شيء، حتى أصغر الأشياء، ستبدو وكأنها مميزة، والأيام تتحول إلى حلقات رقص مع الوجود -

الكون... يوماً بعد يوم، تصبح أكثر تحرراً من العقل والأفكار، تصبح أكثر براءة، تصبح كذاك الطفل الذي يركض وراء فراشة، تنتقل من زهرة إلى زهرة، أو يسعى وراء نحلة، تمتص أريج العسل من هذا البرعم أو ذاك.

وجودك على الطريق الصحيح، يعني أن لا مشاكل تواجهك، وأن حياتك صارت أشبه بهدية إلهية. صارت بركة ونعمة.

هذه هي دلائل وجودك على الطريق الصحيح، وفي المكان الصح.

الفصل الثامن: عن الحرية والمسؤولية والالتزام

الحرية والمسؤولية توأمان. إنهما وجهان لعملة واحدة. إن أردت الحرية، فعليك تحمل مسؤولية كل ما تفعل... وإلا لن تكون حراً.

الكل يريد أن يكون حراً، وفي الوقت ذاته، ما من أحد يرتضي تحمل المسؤولية، بل يريد إلقاء تبعاتها على أكتاف الآخرين، وهذا يناقض أدنى وأبسط شروط الحرية... إن ارتكبت خطأ ما، فأنت من ارتكبه، وليس غيرك.

مهما حدث، فهو من خياراتك... أنت اخترته بطريقة، أو بأخرى. قد لا تكون تدري كيف اخترت هذا وليس ذاك، لكنك أنت من اختار... إعلم أنه كثيراً، ما تكون راغباً بشيء، لكنك تختار غيره، وهذا ما يوقعك في المآزق.

على سبيل المثال، إن أردت السيطرة على الآخرين، فلا شك أن هؤلاء الآخرين سيقاومون، تعبيراً عن رفضهم لسيطرتك عليهم، ولأنهم، في الوقت ذاته، يرغبون بالسيطرة عليك، وهكذا يبدأ الصراع، وتفتح أبواب الجحيم، فتصرخ عالياً: ما هذا، أنا أريد الدخول إلى الجحيم، لكن هذا، هو نتيجة رغبتك بالسيطرة على الآخرين.

فتش دائماً عن السبب، عن الدوافع، إن كان لها تأثيرات، الناس دائماً يتحدون التأثيرات ويتناسون السبب والدوافع... هؤلاء هم البشر العاديون. أما البشر الأذكياء فيتصرفون بطريقة مغايرة، إنهم يتصرفون بمسؤولية، لأنهم أحرار.

الخوف من كونك حراً

لماذا أنا هكذا خائف من كوني حراً؟

الجميع أحرار، الحرية مشتركة... الكل يتحدث عن الحرية، وفي الواقع، لا أحد يريد أن يكون حراً. الكل يريد أن يكون معتمداً على الآخرين ملقياً المسؤولية ـ كل المسؤولية ـ على غيره. أن تكون حراً هو أن تكون مسؤولاً عن كل عمل عن كل فعل، عن كل فكرة وعن كل حركة، ولا يمكنك إلقاء اللوم على أحد آخر.

إليك كيف يتعامل الأطباء النفسيون مع مرضاهم، يجعلونهم يتمددون على كرسي طويل ويقفون خلفهم، حتى لا يراهم المريض، ومنهم من يستخدم الستائر كفاصل بينهم وبين مرضاهم، بحيث يشعر المريض بالطمأنينة وبأنه وحده، فيبوح بأسراره لنفسه ويقول كل شيء يثير قلقه. لو قيض لك واستمعت خلسة إلى ما يقوله المرضى للمعالجين النفسيين، كل واحد منهم، يدّعي أن أمه هي السبب في علته، وذاك يضع اللوم على والده... ما من أحد يعترف أنه هو المسؤول، لربما هناك بعض من الحقيقة، فيما يدّعون، إذ يحدث أن الأم تدفع ابنتها لتكون، أنيقة، لتكون سيدة إنكليزية «ليدي»

والأب يلح على ابنه ليكون رجلاً حقيقياً، رجلاً مهذباً، يحترمه الجميع. نعم هذا شيء من الحقيقة.

ولكن، ماذا يفعل الأبناء حين يبلغون سن الرشد؟ هل يحاولون التخلص من هيمنة الوالدين؟ لا... لأنهم وبكل بساطة لا يرغبون بتحمل المسؤولية، مسؤولية تصرفاتهم وأعمالهم وسلوكهم. فإن كان ما يقولونه هو الحقيقة، فإنهم اليوم، يفعلون الخطأ... نعم بمقدورك دائماً توجيه الاتهام للآخرين، ولكن هل تساءلت يوماً، «أنا ماذا فعلت؟»».

الكل يخاف من الحرية، ولهذا نرى نزعة العبودية تحيا داخل النفوس، منهم من يرى نفسه عبداً لأبيه، وآخر لأمه، وثالث لرب عمله أو أستاذه في الجامعة... ولماذا؟ لأنهم يخشون تحمل مسؤولية الحرية.

في المدينة الجامعية، كان يشاطرني الغرفة، تلميذ مهذب، ذكي طلق اللسان، سلس الحديث ولحديثه وقع في قلوب الصبايا، حتى ذات يوم، قبيل انتهاء العالم

الدراسي، جاء والده، لزيارته... ويا لهول، ما سمعت ورأيت... زميلي لم يعد هو ذاك الذي أمضيت عاماً كاملاً معه، بدا واضحاً أنه مرتبك، وأخذ يتلعثم في الكلام، حتى ركبني العجب، وعرفت في ما بعد، أنه يتصرف هكذا، في حضرة نائب رئيس الجامعة.

السبب، هو أن أباه، لم يكن يسمح له أن يتكلم ساعة يشاء ولا كيفما شاء، هذا ما أخبرني إياه شخصياً، بعد ذهاب والده. فسألته، وأنت ماذا فعلت؟ لا شيء.

قلت هذا اللاشيء، أوصلك إلى ما أنت فيه، اسمع يا صاحبي، أبي كان مثل أبيك، غير أني، لم أكن مثلك، أنا رفعت راية التمرد... وذات يوم، هددت والدي، بأني لن أعود إلى البيت أبداً، طالما هو يعاملني بهذه الطريقة - طريقة الآمر الناهي - وكأن لا وجود لي البتة.

حسناً وماذا حدث؟ سألني صاحبي.

الذي حدث يا صاحبي، أنه عند منتصف الليل، خرج أبي يبحث عني، وحين وجدني، قال: «سامحني

يا ولدي... أرجوك ادخل إلى البيت، يكفيني ما عندي من مشاكل». أجبته، أنا لا أسبب لك المشاكل، بل أنت تجلبها لنفسك ولي.

في السنة الأخيرة من مرحلة التعليم الثانوي، كنت أجلس في الصف مطبق الفم، لكني أردد كلمة «أوم» وكما تعلم هي إحدى الكلمات المقدسة عند الهندوس... ولهذا، كنت حين يطلب الأستاذ مني عدم تردادها ثانية، أدّعي أنه يحرمني من ممارسة شعائري الدينية، علماً، كنت أردد تلك الكلمة تعبيراً عن الثورة والتمرد، وليس لغاية دينية.

كان الأستاذ يرسلني إلى مكتب المدير الذي كان يستفسر عن الذنب الذي ارتكبته. هذا في البداية، أما في ما بعد، فكان يمتنع عن الاستفسار، لأنه بات يعرف السبب.

ذات مرة قال: عقابك أن تركض سبع مرات حول مبنى المدرسة. فقلت ولماذا سبع مرات وليس تسعاً؟

تعجب المدير وقال: هذا عقاب وليس مكافأة. أجبته أعرف هذا، ولكني سأركض تسع مرات ولا أقبل بأقل منها... اسمع يا أستاذي الطقس معتدل، الأشجار بدأت بالتزهر، والريح عليك تفي، فلماذا سبع مرات فقط؟ صدقني، لست بقادر على تقبل عقابك، لذا سأركض تسع مرات.

أتعرف يا صاحبي لماذا كنت أفعل هذا؟... لأثبت لأستاذي، ولنفسي أولاً، أني حر وأتحمل مسؤولية حريتي.

بالفعل، هذا ما هو مطلوب من أجيالنا... أن يتحرروا، أن يثوروا بهدف تحقيق الذات. نظامنا التربوي مبني على مبدأ تسلط الأستاذ على التلميذ... ذات يوم تقدمت من رجل بحدود الأربعين من العمر، وكان يدخل من الباب الخارجي للمدرسة، تقدمت منه وسألته: «ماذا تفعل هنا، هل يمكنني مساعدتك؟» فأجاب بصوت فظ: «أنا أستاذك، وأنت لست أستاذي، ولا حق لك بسؤالي عما أفعل هنا». هذا نموذج صارخ

عن كيفية تعامل الكبار مع الجيل الصاعد في بلادي المشرقية. إنه نموذج الكبت والقهر والتسلط.

استبدل مدير المدرسة بآخر وأراد إثبات وجوده من خلال التشدد في العقاب.

نظر إلي بعينين جاحظتين وقال: «أنا رجل جدي، ومنذ اليوم الأول أريد إفهام الطلاب أن عقابي شديد، لذلك سأضربك بشدة».

قلت: يمكنك فعل ذلك، ولكن هل ترى... أنظر من النافذة، هناك مركز الشرطة، وكما تعلم فالضرب ممنوع، لذا ما إن تبدأ بضربي حتى تعتبر نفسك في قفص الاتهام في المحكمة، وعندي محام صديق لوالدي، إنه محام مشهور جداً، وقد أخبرته بأنك تهوى معاقبة الطلاب بالضرب، فقال: دعه يضربك ولو مرة واحدة، وسأسلط سيف القانون على رأسه.

أنت تلميذ أم محقق عدلي؟ سألني المدير.

أجبته: أنا تلميذ عادي، تلميذ يرفض التسلط عليه... إن أخطأت، أنا مستعد لتقبل العقاب المناسب. أما أن أعاقب لمجرد الرغبة بإثبات الوجود، فهذا ما أرفضه رفضاً باتاً.

اليوم لم أكن مخطئاً أبداً، كل ما في الأمر، أن هذا الأستاذ الذي أرسلني إليك، تعود إرسالي، كل يوم، لسبب أو بدون سبب لمكتب المدير. كل ما كنت أفعله اليوم أني كنت مسترخياً على المقعد... هل هذا جريمة؟

الاسترخاء يساعد على الفهم، ولكن على إدارات المدارس وضع مقاعد مريحة تساعد على الاسترخاء، ولا تتعب التلميذ، فيحتار كيف يجلس ليكون مرتاحاً.

على المرء أن يفهم أمراً حيوياً... ما الذي قد يحدث، سيحدث... لذا، تأمل خيراً وانتظر الأسوأ... هكذا لا يحبط أحد، ولا أحد يستعبدك لا باسم العقائد السياسية أو باسم المعتقدات الدينية. هكذا الهندوس، يريدونك عبداً لآلهتهم، وكل ما يقدمونه لك، هو نوع من العزاء.

يطلبون منك الإيمان الأعمى. إنهم يريدونك أن تبقى معتمداً عليهم كل ما عليك، هو أن تتضرع وتتضرع، حتى يتحول التضرع إلى نوع من التسول.

أنا لا أسألك أن تتضرع لأحد، كن علي تواصل مع الكينونة الأسمى، مع الله كن متواضعاً وليس وضيعاً. تقبل الآخرين كما هم، ولا تسمح للأنا أن تسيطر عليك...

إعلم أن الحرية هي أسمى القيم وأعلى فضيلة... إنها الحياة بحد ذاتها، إذاً كيف يمكن لإنسان ما إن يتخلى عن حريته؟ أنا شخصياً أرحب بالموت، شرط ألا أتنازل عن حريتي.

كن متيقظاً. قد يكون هناك، من يريد استعبادك، عليك مقاومته، وإلا تحولت عبداً له.

إلى جانب الحرية، أدعوك لتحمل المسؤولية، ولكن ليس كما يفهمها الآخرون... ستصادف من يقول لك: «كن مسؤولاً عن والديك» هذه ليست مسؤولية، إنها

عبودية... كذلك حين يقولون: أنت مسؤول عن تراب وطنك، إنها كلمات معسولة، يغلفون بها «العبودية».

المسؤولية تعني، أنك مهما فعلت، فأنت مسؤول عن ذلك، لأنك فعلته باختيارك، لم يجبرك أحد على ما قمت به... إن سئلت هل الله موجود؟ وأجبت بنعم، لأنه هكذا مكتوب في الكتب السماوية، فأنت هنا لا تتحمل مسؤولية جوابك، لأنه ليس نابعاً منك ولا معبراً عن خياراتك وقناعاتك. أما إذا قلت نعم الله موجود، والبرهان هو ما أشعر به، وهو هذا الكون الرحب بجماله، إذا قلت إنه موجود، لأني اختبرت وجوده، تكون أنت مسؤولاً عن جوابك.

الحرية تمنحك المسؤولية، والمسؤولية، تساعدك لتكون أكثر تحرراً.

وحده ذاك الذي تذوق طعم الحرية، وتعرّف إلى جمالية المسؤولية، وحده يستحق أن نقول عنه، إنه كائن بشري، وإلا سيكون أقرب إلى المرتبة الحيوانية

ليس أكثر.

الالتزام والمسؤولية

مع الأخذ بعين الاعتبار، استمرارية مطالب رجال الأعمال والالتزام والمسؤولية وأشياء أخرى غير ضرورية ومتعارضة مع «كون موجود في اللحظة الحاضرة» الحرية، العفوية وكل ما يتمناه القلب. أرجوك حدثنا، عن أي من هذه يساعدنا على العيش بسلام.

عليك معرفة أمر مهم، لا يمكنك ركوب حصانين في آن واحد، فإن أردت أن تكون حراً وعفوياً وموجوداً في اللحظة الحاضرة، فلن يكون بمقدورك أن تكون رجل أعمال. ما عليك إلا اختيار أمر من اثنين. كما عليك السعي إلى تحويل المغترب الاقتصادي، إلى مغترب إنساني روحاني. إذ يمكن، أن تكون رجل أعمال، وصادقاً في آن، ولا ضرورة لتكون مخادعاً أو

محتالاً. من هنا، لا تسل عن إمكانية التوفيق بين: الأخذ بعين الاعتبار استمرارية ضرورية رجال الأعمال الالتزام والمسؤولية من جهة، وكونك موجود في اللحظة الحاضرة والحرية والعفوية، وكل ما يتمناه القلب، من جهة أخرى.

إصغ إلى القلب، الذي هو في النهاية، من يقرر معيارَ كينونتك، ومصدر نمو وعيك. والأهم هو الذي سيمنحك القدرة على تخطي مرحلة ما بعد الموت، وكل ما عداه فهو دنيوي مبتذل، فكن مع السماوي الأسمى.

ما هي الاستمرارية؟... بكل بساطة، الاستمرارية تعني أن الماضي ما يزال حياً في داخلك، تعني أنك ما تزال تسير على خطى آبائك وأجدادك... فهل أنت مستعد للبقاء متعلقاً بما مضى؟

متى ستمتلك الجرأة لإيجاد شيء جديد، ونفض غبار الماضي؟ متى ستكون قادراً على تنفس الهواء النقي والعيش في حياة فرح وسرور. ما هي الاستمرارية؟

ليس هناك من سؤال حول هذا الموضوع. لأنه في الحقيقة، ليس هناك استمرارية، عليك دائماً قطع صلاتك بالماضي، بآبائك وأجدادك، حتى عليك، قطع صلاتك الذاتية، مع كل لحظة، من لحظات ماضيك... فاللحظة التي انقضت قد انقضت، وما من أحد يجبرك على الاستمرار بحمل جثة اللحظات التي انقضت.

أما الالتزام، فهو عملية لا واعية، إذ كيف يمكنك أن تلزم نفسك بعمل ستقوم به في ما بعد - في المستقبل الذي هو خارج إرادتك. وقد لا تكون - أبداً، قادراً على التأثير عليه. غداً، ليس شيئاً كي تمتلكه وتدّعي أنك قادر على التحكم به، غداً هو المجهول بحد ذاته، ولا قدرة لك في التأثير عليه. من هنا، أتعجب من رجل يقسم لزوجته، أنه سيبقى يحبها، ويعمل لإسعادها، حتى آخر لحظة في حياته. من يدري قد يزول الحب غداً، فما الذي سيفعله؟

والحال هذه، ما عليك إلا الزعم، إلا أن تكون منافقاً. إنها الحقيقة، كل التزام يجب أن يكون للحظته، وفي

لحظته، وإلا تحول إلى زعم وادعاء، إلى نوع من النفاق غير المقصود. لذا، لا تلزم نفسك بحب هذه المرأة أو تلك، ليس على مدى الحياة، بل لمدة شهر ليس أكثر... قل لها «أحبك». ردد هذا القول يومياً على مسمعها، هكذا تكون تزرع الابتسامة على شفتيها والأمل في حياتها، ولا تكون تلزم نفسك بأمر - ليس قد - بل أنا متأكد، من أنك لن تتمكن من الوفاء به. في الوقت ذاته، لا يمكنك خداع أنثى، للأنثى حاسة إدراك المشاعر، لا توصف. لذا، أقرن قولك «أحبك» بفعل يثبت صدق ما تقول، واعلم أن تعابير الوجه قد تفضح الكذب، وكذلك طريقة كلامك.

وتبقى مشكلة، مشكلة عدم الوعي كفاية لأهمية الموضوع. ولا يمكنك القول لامرأة «كيف يمكنني إلزام نفسي بحبك إلى الأبد، وأنا لست واعياً كفاية، وأنا غارق في بحور العتمة... لا أعرف ما الذي سيحدث غداً؟ لا أنا قادر على معرفته، ولا أنت أيضاً».

لذا، دعيني لا ألزم نفسي بشيء تجاهك، وكذلك

أنت. سنبقى نحب بعضنا، طالما الحب مستمر في جمعنا، وإلا لو قلنا غير ذلك، نكون ندّعي أننا نحب بعضنا، وأكون أنا كاذب، منافق، وكذلك أنت... دعينا نعش كل لحظة بلحظتها، كل يوم بيومه. وإن ما جاء يوم افترقنا فيه، سنتذكر أيامنا التي أمضيناها معاً. أقول لك هذا، لأني أحبك، حتى الآن ما أزال أحبك ـ ولا أريد تدمير ذكرياتنا، بالزعم والادّعاء والمراوغة.

من هنا، أنصحك ألا تلزم نفسك بشيء...

أما عن المسؤولية... فأنت مجبر على إعلان مسؤوليتك بوضوح، عن أبويك، عن زوجتك وعن أولادك وعن الجيران، حتى تبدو وكأنك مسؤول عن العالم كله، باستثناء نفسك... إنه لأمر غريب ومستهجن.

كانت امرأة، تلقن ابنها مبادئ المسيحية، فقالت: «المبدأ الأهم في ديانتنا يا ولدي، هو أن تضحي في سبيل الآخرين وتخدمهم».

فقال الطفل: «فهمت، ولكن الذي لم أفهمه، هو ماذا سيفعل الآخرون إذا».

ابتسمت الأم، وطبعت قبلة على خد طفلها وأجابته: «لا شك أنهم سيخدمون آخرين».

إنه أمر غريب. قال الطفل، ومضى مخاطباً والدته: «إذا كان على كل واحد، أن يخدم الآخر، فلماذا لا أخدم نفسي بنفسي، وأنت تخدمين نفسك؟ لماذا هذا اللف والدوران؟ لماذا هذا التعقيد للأمور؟ لماذا علي خدمة الآخرين، وانتظار آخرين ليخدمونني؟»

لقد عبر هذا الطفل البريء، عن حقيقة مرة... حقيقة تشويه معنى المسؤولية. لقد جعلوها مرادفة لمعنى كلمة واجب... هكذا تصبح مسؤوليتك، تعني واجبك.

عليك ألا تفعل شيئاً، لأنه واجب عليك، فإما أن تفعله بحب، وبكل طيبة خاطر، أو من الأفضل ألا تفعل. إنتبه، إجعل الحب أساساً لكل خطوات حياتك. وهكذا، فالمسؤولية هي وليد فعل حب. ما من قوة في العالم

تجبرك على فعل شيء لا ترغب القيام به، وحده الحب، يجعلك تتجاوب، وإلا تكون تحمّل نفسك أحمالاً ثقيلة.

هنا، علي أن أتذكر جدي. كان يرغب بتدليك قدميه قبل النوم، ولكن سرعان ما كان يدخل الغرفه، حتى يختفي كل من في البيت، ما عداي أنا..

سألني ذات مرة، لماذ هذا؟ فأجبته بصدق وصراحة ووضوح، إنهم يختفون، لأنهم لا يريدون تدليك قدميك، لأنهم يعتبرون عملية التدليك هذه واجباً عليهم، هم يرفضون القيام بهذا الواجب.

ولماذا تبقى أنت؟ سألني.

قلت: لأني لا أعتبر قيامي بتدليك قدميك واجباً علي، أنا أفعل هذا، من تلقاء نفسي، ولا أحد بمقدوره إجباري على فعله، لذا، إن شعرت يوماً، بأني غير راغب بتدليك قدميك، من تلقاء نفسي، فسأخبرك وأقول لك الحقيقة.

ضحك جدي وقال: لقد توضحت الأمور... هناك فرق كبير بين الواجب والحب.

بالمناسبة، روى لي أحد الأصدقاء الحكاية التالية:

كان رجل في الخمسينات من العمر، يتسلق قمة جبل، وعلى ظهره أحمال كثيرة، فإذ به يلمح صبية في مقتبل العمر، تحمل على ظهرها صبياً بديناً. اقترب منها وقال: «أما تشعرين بالتعب إن حملك ثقيل». فما كان منها إلا أن قالت: حملك أنت ثقيل، فأنت تحمل متاعاً، يمكن الاستغناء عنها، أما أنا، فأحمل أخي غير القادر على المشي، ولا يمكنني الاستغناء عنه».

نعم... إنه الحب، يحول الحياة نعيماً والصحراء حدائق غنّاء، إنه الحب يزيل التعب ويقاوم الجاذبية، ولولا الحب، لتحولت المسؤولية، إلى عبء كبير.

من هنا، وإن كنت مثلاً، راغباً بالتحرر والعفوية، وبأن تكون في اللحظة الحاضرة، فما عليك إلا تغيير نمط حياتك، إلا تغيير نظرتك للأعمال. إجعل قيامك

بأعمالك، أشبه بممارسة التأمل... كن حرًّا وهكذا تتعرف إلى حقيقة الحياة. إياك إلزام نفسك بشيء. فالوقت ليس ملكاً لك، حتى الحب ليس ملكاً لك... وبموجب أي اعتبار ستلزم نفسك؟

في هذه الحال، تكون أشبه بصديقين حميمين، مدمنين على المخدرات، كانا مستلقيين على الأرض، ينظران إلى قمر منتصف الليل.

قال الأول: أنظر إلى القمر... كم هو جميل، سأشتريه مهما كان ثمنه.

ابتسم الثاني وقال: إنس أمر شرائه، لأني لن أبيعه، إنس الموضوع نهائياً...

قال الأول، الذي بدا أنه مصر على تملك القمر: أولسنا صديقين حميمين... سأدفع لك المبلغ الذي تراه مناسباً... المهم، سأشتري القمر.

قال الثاني: إنسَ الموضوع نهائياً... الصداقة هي

الصداقة، أما حكاية البيع والشراء، فهي أمر آخر، أمر مختلف جداً... اسمعني جيداً. لن أبيعه ولا بأي سعر مهما كان مرتفعاً...

أرأيت الأول يريد تملك القمر، والثاني، أوهم نفسه بأنه مالك القمر فرفض بيعه...

قال رجل لامرأة «سأحبك إلى الأبد». إنه صادق فيما يقول، في تلك اللحظة بالذات، إذ بعد أسبوع لا أكثر، وجد نفسه مغرماً بامرأة أخرى. كذلك الرجل الذي كان يرغب بشراء القمر، فعلاً كان راغباً ـ وبحماس ـ بشراء القمر، حتى ذاك الذي رفض بيع القمر كان صادقاً... ولكن، هل فكر أحدهم، ولو لبرهة، قبل أن يقول ما قال؟

حين يقول رجل لأمرأة «سأحبك إلى الأبد»، يكون يعبر بصدق عن مشاعره. لكنه لا يكون واعياً، أو مدركاً لما يخبئه له الغد... لذا من الأفضل أن يقول لها: «إني أحبك أما بالنسبة للغد، فلست أدري... عملياً،

أتمنى لو بمقدوري أن أحبك إلى الأبد... ولكن أخاف من قول هذا، لأني لا أتحكم بالمستقبل».

لماذا ترهق نفسك بالتزامات، قد لا تتمكن من الوفاء بها... إن وعدت أحداً... ستبقى تفكر ليل نهار، لقد وعدته، ماذا لو لم أتمكن من الوفاء بوعدي؟.. إذاً، علي ـ منذ الآن ـ إيجاد ذريعة...

الخوف من أن الحرية قد تعيق مسيرتي

حين أسمعك، تتكلم، أشعر بشوق للحرية، أشعر أني مشدود للحياة وللفرح، إنما، وفي الوقت ذاته أشعر بالخوف، وأحس، أني بحاجة للأمان والسلامة. هذا الخوف، يفقدني الشجاعة على الغوص في أعماق الحياة، لاعتقادي أن ذلك قد يعيق مسيرتي.

منذ القدم والإنسان يود لو بمقدوره الوصول إلى النجوم، لكن جاذبية الأرض تشده إليها، فيبقى حيث

هو، فيصاب بالخوف، هذه ليست مشكلة تتطلب حلاً، بل قضية يجب فهمها.

حين تكون محاطاً بالخوف، تذكر أنه في الحياة، شيئاً واحداً مؤكداً... إنه الموت. ومن يدرك هذا، يتخلى عن الخوف... لأن الحياة وحدها هي مصدر الخوف، أن تحيا، يعني عليك توقع الموت في أي لحظة... القبر وحده، سبب الأمان، ولا أقول الشعور بالأمان، لأنه ما من أحد أدخل القبر، عاد إلى الحياة، أو مات ثانية.

قيل لـ «كونفوشيوس»: هاتِ حدثنا عن الخوف من إمكانية التعرض للخطر.

فأجاب كونفوشيوس بوضوح: لماذا أنتم قلقون، وحده الموت يمنع الخطر عنكم... والحياة تعني أنكم دائماً، وفي كل لحظة، معرضون للخطر.

روى أحد الصوفيين الحكاية التالية:

كان هناك ملك طغى وتجبر، أرسل جيشه الجرار

لاحتلال ممالك وإمارات، حتى أصبح مستهاباً من الجميع، إلا أن هذا أكثر من أعدائه، وقلّل من أصدقائه، وجعله في خوف دائم، من أن أحداً قد يقدم على اغتياله، إن للحلول محله، أو لاستعادة ملك، كان قد سلبه إياه. فما كان منه إلا أن أمر ببناء حصن منيع، له باب واحد، حتى يتمكن من مراقبة كل داخل أو خارج، وأحاط الحصن بسبعة خطوط دفاعية، ووضع على كل خط دفاعي، جنوداً يراقبون الجنود الموجودين على الخط الدفاعي إلذي هو أمامهم.

وكان له صديق ملك، على مثاله وشاكلته، فجاء يزوره، لا حباً به، بل طمعاً بالتعرف على الحصن، كي يبني واحداً مثله. وعند انتهاء الزيارة، خرج الملك المضيف، ليودع ضيفه، أمام باحة الحصن، حيث كان شحاذ يضحك ويقول: «سبحان الذي يعطي العقل ويزرع راحة البال في النفوس». تعجب الملكان، فسألاه، عما يتكلم، فقال: «يبدو أنكما غير مكترثين بالموت... الموت الذي لن يتمكن الحراس من إبعاده...

لذا أنصحك يا صاحب الجلالة، الإيعاذ لمعلمي البناء، كي يغلقوا الباب الأوحد، حتى لا يدخل الموت منه..».

أمعقول هذا؟ قال صاحب القصر ـ الحصن... هكذا، لن يعود قصراً، بل سيتحول إلى قبر... أهذا ما تريد؟

نعم هذا ما عنيت في كلامي... وحده القبر يجلب الأمان الكلي... أنا، سبق لي وكنت ملكاً، ومثلكما كنت أبحث عن الأمان، وبعد تفكير وجدت، ألا مفر من التخلي عن الملك، للعيش هكذا... كما ترياني... إنساناً عادياً، لا أحد يهتم بأمري، ولا أحد يخطط لاغتيالي.

الناس في إياب وذهاب عبر الشوارع، وأنا أكون جالساً مرتاح البال، لا هم عندي أبداً... حتى الموت لا أخافه، لأني بانتظاره... هكذا وجدت الأمن والأمان. ما عليكما إلا التخلي عن الخوف، فساعة يأتي الموت، لن يتمكن أحد من إبعاده... نعم، وحده إبعاد الخوف من شبح الموت، يبعد الموت... لماذا أنتما لا تفكران إلا به... لماذا جعلتماه رفيق حياتكما؟

وقلت يا سائلي: «حين أسمعك تتكلم، أشعر بشوق زائد للحرية... وما الذي تنتظره إذاً؟... أهكذا، ستبقى منتظراً أن تتحرر، دون القيام بشيء يحررك؟ لماذا تؤجل ما عليك اليوم فعله، إلى الغد؟ هل أنت متأكد، أن غداً سيأتي؟ إن كنت كذلك فأنت واهم».

حوّل رغبتك إلى واقع... الشوق، يعني تأجيل عمل اليوم إلى الغد. «سأذهب في نزهة، سأشتري قصراً» وغيرها الكثير، وكلها تعني أنك لن تفعل اليوم شيئاً.

إذاً... لا تتمنَ أن تكون حراً... فمن يردعك؟ لا أحد سواك.

عجيب أمرك، أنت... أنت تعيق مسيرتك التحررية، إلى متى ستبقى تتمنى؟ إلى متى ستبقى تهدر الوقت، بالتوافه وبما لا يجدي نفعاً. تُرى ما الذي ستخسره؟ والأهم من هذا كله ما هي حياتك؟ إنها أغلى وأثمن هدية، تلقيتها من الله، فلماذا لا تغذي هذه الحياة؟

دع العقل يتوقف عن التفكير ـ ولو للحظة واحدة ـ

بالخوف وبالخطر اللذين تتوهمهما أنت... والحال هذه، هل تبقى لحياتك معنى؟ لا... أنت عاشق لكنك لست حياً، لأنك ترفض أن تحيا الحياة، وتريد أن تعيشها فقط... توقف عن التفكير بمثل هذه الأمور، وفكّر بالحب والوعي... أسرع لالتقاط الحب والحياة بوعي...

ما بالك كأولئك الذين ينتظرون العلماء، ليتمكنوا من إعادة إحياء الموتى... من خلال اختراع قطع غيار لجسد الإنسان؟ وهكذا تتحول المستشفيات، من مراكز علاج، إلى ورش عمل، حيث يقصدها الناس، لتغيير البطارية أو الرِجِل أو العين.

لن تتمكن من نيل حياة آمنه، طالما الخوف يسيطر على تفكيرك، طالما أنت هارب مما لا مفر منه، مما لا قدرة لك على الهرب منه... عش حياتك بكلها وبكاملها. لـ «كارل ماركس» قول مشهور ومعبر: «يا عمال العالم اتحدوا، فأنتم لا تملكون شيئاً قد تخسرونه، سوى قيودكم وأغلالكم»... هكذا أنت، اتحد مع الوجود - الكون، اتحد مع الفرح والغبطة... هكذا تكون تربح

الوجود الكلي والشامل».

تمتع فعلاً بالحياة، وإياك والأحلام... الأحلام نوع من الإدمان، على المخدرات أو على الكحول، الأحلام لا تسمح لك بدخول عالم ذاتك الداخلية، لأنها تعني غداً وليس الآن.

لا تسمح للعقل إعاقة مسيرتك... إسمع هذه الحكاية...

كان هناك امرأة غنية، مصابة بالشلل، عجز الأطباء عن شفائها، وأعلنوها صراحة، أنها ستبقى طريحة الفراش، طالما هي على قيد الحياة. وذات يوم أخذت النار، تأكل المنزل حيث تقيم، فأسرع الجيران لإطفاء الحريق، وكانت المفاجأة... المشلولة، تركض مع الآخرين محاولة الخروج من المنزل... صاح أحدهم: أولست مشلولة، فكيف تركضين؟... في اللحظة ذاتها، عادت عاجزة عن تحريك رجليها، عادت إلى حالة الشلل.

النار أنستها أنها مشلولة، أما الرجل فقد ذكرّها بذلك، وهكذا عاد العقل ليلعب دوره: «رباه، ما الذي أفعله؟ أنا مشلولة..». إنه العقل سبب إعاقتنا... إنه العقل، أشل حركتنا وجعلنا عاجزين عن فعل شيء لا يرضيه.

هناك قصة قديمة عن أمير مؤمن بالديانة اليانية، وكان يصطحب زوجته معه إلى المعبد... ذات يوم، وبعد العودة من المعبد، أراد أن يستحم.

عادات تلك الأيام، كانت تقضي، أن تقوم الزوجة بصب الماء على رأس الرجل وجسده لمساعدته على الاستحمام... وفيما هما كذلك، كانا يتحدثان عما قاله ماهاتيرا ـ الكاهن الياني الأكبر ـ أو نبي اليانية، فقالت الزوجة، أخي يرغب في أن يصبح كاهناً...

ومنذ متى، وهو يرغب بذلك؟ قال الزوج.

منذ خمس سنوات على الأقل. قالت الزوجة.

ضحك الزوج وقال، أعتقد أنه سيمضي طيلة حياته، يرغب من أن يكون كاهناً، لكنه لن يكون.

شعرت الزوجة بالإحراج والإهانة...

وهل تعتقد أنك قادر على القيام بما لم يتمكن أخي من القيام به؟

لم يجب الرجل، بل وقف وهمّ بالخروج من المنزل، وهو عاري الجسد، فصاحت زوجته: «إلى أين؟ أنسيت أنك عارٍ؟».

لا لم أنس... قال الرجل، إنما الرهبان هم عراة، لذلك فأنا ذاهب لأرتسم كاهناً.

لا شك أنك تمزح... قالت الزوجة.

لا يا عزيزتي، فأنا لا أمزح. واعلمي إن أردت فعل شيء، فافعليه الآن ولا ضرورة لانتظار خمس سنوات.

وبالفعل أكمل طريقه، وصار كاهناً، دون أن يلتفت

إلى الوراء.

هكذا، أولئك الذين، يرغبون، فعلاً، بالاستفادة من وجودهم في هذه الحياة... لا يعرفون الخوف، لا يفكرون، ولا يؤجلون عمل اليوم إلى الغد... لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد...

هذه هي وصيتي لك، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.

الفصل التاسع: الإبداع

الإبداع، لا يمكن أن يكون عدم مبالاة، الإبداع هو الاهتمام بعينه. الإبداع هو الحب، وهو مولود تزاوج الحب والاهتمام، لذا، فاللامبالاة تعني القضاء على الإبداع.

الإبداع بحاجة إلى انفعال وطاقة وعواطف جيّاشة.

لو نظرت إلى أي زهرة بلا مبالاة، فلن تراها جميلة. عدم الاهتمام يحول كل شيء إلى شيء مبتذل أو تافه... وهذا ما حصل في الشرق، بسبب الديانات القديمة التي طالبت معتنقيها بعدم الاهتمام بكل أمر دنيوي، وكذلك بالحياة ككل.

أحد الكهنة الهندوس، جاء لزيارتي مرة، فوجدني أعتني بحديقتي وبأشجارها وورودها، فتعجب وقال: «كنت أعتقد أنك مؤمن». كان يعتقد أني مؤمن، أما

اليوم، فهو لا يعتقد ذلك، أما لماذا؟ فلأني أولي الحديقة اهتماماً، لأني أهتم بما يدخل البهجة إلى حياتي.

أنا لست عديم الاهتمام، لئلا أكون سلبياً، لئلا أكون أهرب من حياتي، لئلا أكون أنتحر ببطء، لأني إنسان جبان لا أقدر على مواجهة الموت مباشرة، فأنتحر ببطء، دون أن أدري أني أفعل ذلك.

أصحاب الديانات القديمة، وفي الشرق خاصة، يعتبرون اللامبالاة، جزءاً من معتقداتهم الدينية، إنهم، هكذا، يهربون من الحياة، ومن أنفسهم... إنهم لا يبدعون شيئاً، بكل بساطة، إنهم يعيشون ببلادة وخمول، ويتوهمون أنهم حققوا شيئاً... أقول يتوهمون.

الإنجاز، عمل إيجابي إبداعي... الله مبدع، فكيف نتصل بالله ونحن لا مبالون؟ الله محبة، والمحبة اهتمام وعناية... إنه يهتم بأدق تفاصيل وجودنا، حتى أنه اهتم بتنسيق ألوان جوانح تلك الفراشة التي تنتقل من زهرة إلى زهرة.

الوجود الكلي، هو محبة، وليس بمقدورك أن تكون واحداً من ذاك الوجود الكلي، دون أن تعرف كيف تحب. عش حياة الحب بعمق، بصدق، وسيأتي يوم، لا تعود فيه موجوداً، لأنك ستنصهر في الحب، وتصبح طاقة خلاّقة نقية صافية. عندئذٍ ـ وعندئذٍ فقط ـ يمكنك الاتصال بالله، عندئذٍ، يأخذ الله بيدك إلى بر الأمان.

بالنسبة لي، الإبداع صلاة... الإبداع تأمل، الإبداع هو الحياة.

كيف أتعرف على الخلق والإبداع؟

منذ زمن وأنا أعتبر نفسي غير مبدع ولكن، إلى جانب الرقص والرسم، أين يمكن أن تجد الإبداع؟ وكيف يكون ذلك؟

الإبداع، ليس عملاً مرتبطاً بموضوع محدد، إن بالرقص أو بالرسم أو بالغناء أو بنظم الشعر.

العمل بحد ذاته، بغض النظر عن نوعه، قد يكون عملاً خلاقاً، وقد يكون العكس... الإبداع، هو عمل مصبوغ بالحب، هو نشاط ينبع من الذات دون طلب من أحد، ينبع من الذات عفوياً وتلقائياً.

الإبداع هو قيمة مضافة لأي عمل، إنه يعبّر عن «كيف تنظر إلى الموضوع». إذاً، لا تربط الإبداع بموضوع معين أو محدد... فالمبدع، سيبدع مهما فعل، حتى في طريقة مشيه.

ليس من الضروري أبداً، أن نكون كلنا رسامين، أو راقصين، أو شعراء. لأنه في هذه الحال، يختفي التنوع، وتتحول الحياة إلى ملل، إلى لا حياة. كل ما تفعله، بدافع الحب، بدافع إسعاد الآخرين، بعيداً عن الغاية المادية، هو إبداع وخلق.

كل الأديان تقول: «الله هو الخالق». أنا لا أهتم بما تقوله الأديان، بل أهتم بما يعطي الله ويقدم للبشرية... إنه يتعاطى مع مخلوقاته بحب، يهتم بهم بحب، يريدهم

سعداء، من هنا، هو الخالق المبدع. ولا ضرورة لبرهان ذلك، فبرهانه منه وفيه. فكلما كنت مبدعاً، كلما اقتربت من الله، وكلما سموت بالإبداع، وكلما حولت حياتك إلى إبداع، كلما صرت تعيش في قلب الله. إذاً، هو الخالق المبدع، الآن كل الناس المبدعين، يسعون للوصول إليه. إنه الخالق المبدع الأسمى.

الإبداع يعني حب أي عمل تقوم به، حتى ولو كنت تكنس شوارع المدينة، أو تعمل طاهياً في مطبخ، لا أنكر أن التاريخ لن يتحدث عن أمثال هؤلاء، بالرغم من أنهم مبدعون، ذلك لأنهم لم يتركوا ـ بحكم عملهم ـ أثراً يدل على الإبداعية، كما يفعل الرسام أو المغني أو الكاتب.

هنا، أرى ضرورة لفت نظرك: لا ترسم بهدف الشهرة، لا تكتب رواية بهدف الشهرة، لا تفعل شيئاً بهدف الشهرة، بل إفعل ذلك، لأنك أحسست أنك بحاجة أن ترسم وأن تكتب وأن تغني. إن أردت أن تكون مثل بيكاسو، فهذا يعني لن تكون كذلك أبداً، لن تكون

بيكاسو، ولن تعود أنت الذي كان... ولن تكون مبدعاً... كل ما عليك هو أن تفعل ما تفعل، بتلقائية وعفوية. إفعل هذا، دون هدف بالشهرة. دع الشهرة، تأتي من تلقاء ذاتها. الشهرة هي تكريم للحب الذي قدمته للآخرين.

يقول السائل: «أعتبر نفسي غير مبدع». والحال هذه لن يكون مبدعاً ولا خلاقاً... فهو يحكم، مسبقاً، على نفسه بالفشل، فهو ـ وإن أراد الإبداع ـ لن يتمكن من ذلك. وهل الخوف يعطي حباً وإبداعاً؟... إنه خائف... الخوف يغمض العيون عن الحقيقة، عن حقيقة النور. وكيف لمن لا يرى النور، أنها تنير دروب الآخرين؟ كيف لمن لا يثق، بنفسه أن يجعل الآخرين يثقون به؟

إنه لأمر متعارف عليه، قلة من الرسامين هم مبدعون، كذلك من الشعراء، أو المغنين... لكن هذا مخالف للطبيعة. ما من أحد يولد إلا ويكون مبدعاً خلاقاً. ولكن، يوماً بعد يوم، تدمر تلك الذات المبدعة،

يوماً بعد يوم، تجعل الأطفال، يتوجهون نحو الاقتصاد والأعمال والرغبة في الشهرة والطموح، أو الطمع بالحري.

حين يبرز الطموح، يختفي الإبداع... لأن الرجل الطموح، يستحيل أن يكون مبدعاً، لأنه، لا يفعل أي شيء بحب. الرسام الطموح، يرسم وهو يفكر بجائزة نوبل، أو بأي جائزة أخرى، وهو يفكر، كم سيتقاضى ثمناً لهذه اللوحة. إنه، بهذه الحال، يعيش للمستقبل وفي المستقبل، أما الحاضر، فلا يعنيه ولا يهتم به.

نحن بتربيتنا نقضي على الميل الإبداعي، داخل كل منا... ما من أحد يولد غير مبدع... لكننا نحن من نجعلهم غير مبدعين. هذا، لا يسمح لنا، بإلقاء المسؤولية على الآخرين... بل يوجب علينا رفض كل المقترحات الخاطئة، رفض الأنا، يوجب علينا تنقية نفوسنا من الشوائب التي علقت بها. إن عبر نصائح العائلة، أو من خلال عادات المجتمع وتقاليده.

أن تكون يعني حكماً أنك مبدع، وإن لم تكن مبدعاً، فذلك بسبب، ما علق على جلدك، من غبار أثناء تطور نموك من مرحلة الطفولة إلى المراهقة، فالشباب فسن الرشد، بسبب ما قيل لك: إفعل هذا، إياك ذاك، حتى بت لا تدري ما الذي يرضي والديك معاً... إنهم في صراع، وكيف لك أن توفق بينهما؟ بسببهما لم تعد حراً، فكيف ستكون مبدعاً؟

يطالبك المجتمع، أن تكون ثرياً وقوياً... وأن تكون ثرياً، معناها أن تأخذ أموال الآخرين وتكدّسها في خزائنك. وأن تكون قوياً، معناها أنك تتسلط على الآخرين، معناها أنك تدمر طاقاتهم وقدراتهم، والتدمير ليس عملاً إبداعياً، ولن يكون كذلك...

إعلم، العمل الإبداعي، هو ذاك المأخوذ من جمالية العالم، ليضيف إلى العالم جمالاً. إنه الذي يعطي، وليس الذي يأخذ... والإنسان المبدع، يروح يفكر، كيف سيغير ما حواليه، إلى ما هو أفضل، إلى ما هو أجمل... إن عزف على ناي أو كمان، فإنما يعزف، لا

من أجله، بل من أجل الآخرين، وكذلك إن رقص، أو رسم أو كتب. حتى إذا ما رحل عن هذا العالم، يكون العالم أفضل وأجمل.

المال والقوة والنفوذ، كل هذه أعمال تدميرية، وليست أعمالاً إبداعية. كنٍ حذراً منها. أعمالك الإبداعية، قد لا تجعلك ثرياً، ولكنك ستكون كذلك داخلياً، وستكون حياتك مسرح غناء، وساحة رقص، وستتلقى، كل يوم، بركة الله ونعمته وغفرانه... سيكون الله فيك... لأنك أنت من يطلبه، لا خوفاً منه، بل حباً به. قد لا تصبح مشهوراً، وقد لا تكون معروفاً حتى من جيرانك، ليس هماً، معرفة الجيران قد تسبب المشاكل والأذى، ومن ثم، ما الذي ستجنيه من معرفة الكثيرين، وأنت لا تعرف نفسك؟ ما الذي ستفعله إن امتلكت العالم كله وخسرت نفسك؟ الرجل المبدع هو من يعرف نفسه ويمتلكها.

الإبداع، عطاء ـ عطاء بلا حدود، ودون انتظار كلمة شكراً. ابتسم، هكذا تكون مبدعاً، إفعل كل الأشياء

بحب، هذا هو الإبداع. الحب هو أساس الوجود، لا وجود بلا حب... وإلا تحول إلى أيام عذاب وألم. إلى هنيهات تنهد... ويختفي الإبداع.

أنت خلقت مبدعاً خلاقاً، وليس لتكون - إنتبه لكلمة لتكون - مبدعاً... قد لا تكون متفوقاً بين أترابك، المهم أن تكون محباً لهم والأهم ألا تقلد أحداً. بل كن أنت نفسك، إن كتبت، اكتب ما يعبر عنك، ما ينبع منك. كذلك إن عزفت الموسيقى... ليس مهماً أن ترسم، الأهم أن تجعل اللوحة تضج بالحياة، واعلم أنه ليس بمقدورك فعل كل شيء. أنت وحدك، تقدر على معرفة مجالات نجاحك، أنت من تقرر مصيرك.

لا شك قيل لك، الله هو من حدد لك مصيرك، وحدد لك مجالات نجاحك... هذا قول مردود مرفوض، لأنك في مثل هذه الحال ستتحول إلى نوع من الآلة، والله لا يريدك أن تكون هكذا... الله خلق إنساناً وليس آلة... الله خلق إنساناً، متعدد المواهب، متنوع الميول، وقال له إكتشف نفسك، إكتشف قدراتك وطاقاتك... الإنسان

الحقيقي هو من يقف أمام ألف باب وباب، لكن إحساسه وحدسه، يدلانه إلى الباب الذي يدخله إلى الوجود ـ الكون الأرحب. والأهم، ولن يكون لك هذا، إلا إذا أحببت حياتك. وإلا وجدت نفسك أمام مآزق ومتاعب... إن أحببت المال، لا يمكنك أن تكون مبدعاً، وكيف، وبماذا ستكون مبدعاً؟... بالاحتيال، باختلاق أساليب تساعد على إزاحة الآخرين والاستيلاء على مؤسساتهم أولاً وأموالهم ثانياً... المال والشهرة لا يتعايشان مع الخلق والإبداع.

عد إلى التاريخ، إقرأ أسماء المشاهير، الأغلب الأعم هم مجرمون، جنكيز خان، هولاكو، هتلر، موسوليني، ستالين وغيرهم الكثير. إنه تاريخ الحروب والفتوحات. هذه هي مأساتنا الكبرى، تهتم بكل ما يدمر الحياة، ويغذي الجشع والطمع فينا... لماذا، نادراً ما نقرأ عن بوذا؟ عن المسيح؟ عن محمد؟... لماذا نادراً ما نقرأ، عن جبران خليل جبران، عن بيكاسو، عن فان غوغ؟...

هذا لا يعني أن الإبداع والشهرة لا يلتقيان، على العكس هناك كثيرون من المبدعين، مشهورون ومعروفون، لكن شهرتهم لا تكون إلا بعد وفاتهم بسنوات، إن لم تقل بمئات... خذ المسيح مثلاً.. كان هنا على الأرض، وكان مضطهداً، أما بعد صدور الأناجيل تعرف الناس إلى حقيقة وجوده، إلى حقيقة الأهداف التي عاش من أجلها، فأحبه الناس، وهكذا وجدت المسيحية.

لم يكن المسيح يسعى لأن يكون مشهوراً، ولا حتى، كي يقال عنه إنه مبدع، كذلك محمد، وكذلك بوذا. كان المسيح يقوم بما يقوم به، عفوياً وتلقائياً، وبحب، ودون اهتمام لردات فعل الآخرين... كان يقوم بما يقوم به، ويقول، لست أنا من فعل، بل هو أبي الذي في السماوات. بمعنى، أنه كان يفعل ولا يدعي أنه يفعل، ويعيد الفضل لغيره، لأبيه الذي في السماوات.

إياك والاعتقاد أنك لست مبدعاً ولا خلاقاً... من يقول لك هذا هو إنسان يريد تدميرك، يريد القضاء

عليك... ما من شيء على هذه الأرض، غير مبدع أو غير خلّاق... حتى الأشجار والطيور والأنهار، هي مبدعة.

أحد كهنة الزن، كان نجاراً مشهوراً، وكان الناس يتهافتون على شراء مصنوعاته الخشبية، خاصة الكراسي والطاولات... سئل يوماً، كيف تصنع هذه الأشياء؟ فقال: أنا لا أصنع ولا أفعل شيئاً، أنا أذهب إلى الغابة بحثاً عن الشجرة التي ترغب أن تتحول إلى كرسي أو مقعد... قد أمضي أياماً في الغابة، ليس هماً، المهم أني واثق دائماً، من أني سأجد شجرة ترغب في ذلك. وحين أجدها لا أكتفي بسؤالها عن رغبتها في التحول إلى شيء رائع، بل أسألها إن كانت مستعدة للتعاون معي...

صادف أن أحد ملوك الصين، أراد أن يكون لديه مكتبة تضم كتبه، وأرسل وراء ذاك الكاهن الزني... فاستمهله الكاهن، ليبحث عن شجرة، تحب أن تكون في هذا القصر، وتبدي رغبتها في التعاون «معي»... وبعد

نحو من سبعة أشهر عاد الكاهن ليعتذر، إذ لم يجد شجرة تقبل أن تكون في قصر الملك. تعجب الملك، فما كان من الكاهن إلا أن قال: لكل مخلوق وشيء على هذه الأرض خصوصية وخاصيته... حتى الشجرة... وأنا لا أريد إكراه أحد، أو شيء، ليكون، ما لا يرغب هو أن يكونه. إنه الحب يجمعني بمن حولي، وبالوجود الذي يحيط بي...

نعم... إنه الحب الذي يرشدك إلى الاتجاه الصحيح...

ما من إنسان أتى إلى هذا العالم صدفة، بل جاء ليحقق شيئاً، جاء لينفذ مهمة... أنت، هنا إذاً، لفعل شيء، فافعله بحب، إفعله وأنت تفكر بإسعاد الآخرين... واعلم، أنت لست الفاعل بل الوسيلة.

أهناك احتمالية وجود الرضا الكامل؟

أيعقل ألا ترسم لوحة، تنال رضاك بالكامل؟

طالما أنت ممسك بالريشة، وعيناك تحدقان بالألوان المتماوجة على القماش، طالما هناك إحساس بالرضى يلفك وكأنه هالة من نور... وما إن تضع الريشة جانباً، حتى يختفي ذاك الإحساس بالرضى، ويحل محله إحساس بالحزن والتعاسة، التعاسة الحبلى بمولود إبداعي جديد... وما اختفاء الإحساس بالرضا، إلا دلالة على استمرارية الحياة، وإلا، لماذا تعيش بعدما أعطيت كل ما عندك؟

الحياة، هي توق وشوق وصبوة... الحياة هي أن تصبو دائماً للأفضل والأسمى، هي العمل للوصول إلى عمق، عمق الوجود. وهكذا تعيش لحظات حب وعشق لما تقوم به. هذا ما عليك أن تتذكره وتعيه. وأنت ترسم، تشعر أن ملامسة الفرشاة للقماش، هي أشبه بملامسة شفتيك لشفتي الحبيبة، وأن الألوان، هي إشراق عينيك، وأنت ترى جمال بزوغ الشمس من خلف الجبال... وأنت ترسم، بأنك لست موجوداً... بأنك خالق ينتظر

مخلوقة، وإلا تحولت إلى تقني في الرسم.

التقني لا يشعر بانتشاء الانهار مع اللون والريشة... إنه يقوم بعمل ليس أكثر. إنه يستعمل ما تعلمه من تقنيات... إنه يعرف كيف يرسم، قلبه لا يخفق لتمازج الألوان، ولا في لوحاته شاعرية وغناء... إنه يرسم فقط، إنه تقني وليس فناناً... التقني لا علاقة حب تربطه بعمله، بل بما سيكسبه من عمله، أما الفنان، فكل لحظة رسم، هي لحظة تأمل، هي لحظة خلق وإبداع... هي لحظة تمجيد وتسبيح للخالق، وشكره على ما أعطاه.

لهذا السبب، ينسى الفنان حاجاته الجسدية أثناء مسكه الريشة، وتطلعه إلى القماش، ينسى جوعه وعطشه، ينسى أنه بحاجة للنوم، وتتحول لحظاته إلى لحظات انسلاخ عن هذا العالم، والارتقاء إلى عالم آخر، عالم السمو والإبداع.

ما أن ينتهي الفنان من رسم لوحته، حتى تنتابه ندبة من التعاسة. أما التقني فيشعر بالسعادة... لقد أتم ما

طَلب منه من عمل... إنه يريد نيل قسط من الراحة، بعد فترة تعب... على عكس ما يشعر به الفنان... هو سعيد طالما هو يرسم، طالما ريشته مغموسة باللون... وما إن تنتهي اللوحة، حتى يشعر بالتعاسة... إذا انتهى الأمر؟.. أيعقل هذا؟ كما عاشقان كانا يمارسان الحب، ووصلا إلى ذروة النشوة، لا يشعران بالسعادة... إنهما يريدان المزيد، والمزيد من ممارسة الحب. إنهما غير قادرين عن الانفصال جسدياً... خلف حزن الفنان، هناك لوحة جديدة، خلف حزنه، هناك صبوة جديدة. إنه كالمرأة، ما إن تضع مولودها البكر، حتى تبدأ بالتفكير بإنجاب ابنها الثاني... إنها امرأة حبلى بألف لون ولون.

قيل إنه ما إن انتهى المؤرخ غيبون[1] من كتابة كتابه عن تاريخ العالم، حتى أصيب بيأس كبير كاد يصل حدود الإحباط... ثلاثة وثلاثون عاماً أمضاها في كتابة ذاك العمل الجبار، وثلاثة وثلاثون عاماً، ما شعر خلالها، أنه كان يكبر في العمر، وأن الشيب، بدأ يغزو مفرقيه... ولكن... ما العمل الآن.

لم تصدق زوجته ما ترى... تقدمت منه، طبعت قبلة على خدّه، وقالت: ما لي أراك حزيناً، فيما يجب أن تكون سعيداً؟ نظر إليها وقال: نعم لقد انتهيت من الكتابة، ولكن ماذا سأفعل بعد الآن؟ ثلاثة وثلاثون عاماً، توقف الزمن خلالها، ولكن، ماذا عن الآن؟ وبالفعل، مات غيبون بعد سبع سنوات من الانتهاء من كتابة تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها.

كذلك، يقال إن ((فنسنت فان غوغ))[2] ، انتحر، أما لماذا؟ فلأنه وجد نفسه عاجزاً عن رسم أفضل ما رسم، ولماذا يستمر في الحياة. إنه يريد الخلق والإبداع... المغني يعيش للغناء، وليس ليؤدي أغنية، الراقص يعيش ليرقص، ولا يرقص كي يعيش... والعاشق يعيش لمعشوقته. حتى الشجرة، فهي تحيا لتزهر وتثمر، وإلا ما نفع وجودها؟..

نعم يا صديقي. طالما أنت ترسم، طالما أنت تشعر

بالرضا الكامل وما إن تنتهي من الرسم، حتى تشعر بالحزن... إنما حتى هذا الحزن، هو شعور إبداع وقلق، لأنه تعبير عن رغبة بولادة جديدة... وما من أحد يبلغ الكمال في هذه الحياة.

كما هناك أشياء تكاد تقارب الكمال، هناك أشياء أخرى مناقضة للأولى... أشياء ناقصة... إنها الحياة تتطلب الشيئين معاً، وإلا لكانت انتهت منذ زمن، مهمة الحياة، هي في جعل ما هو دون، يرتقي إلى ما هو الأعلى، طموح الحياة، يتجلى في تحويل البشاعة إلى جمال.

ما من أحد بلغ، أو سيبلغ مرحلة الكمال. هذا ما نعتقده، نحن الشرقيين، وإلا لكان وصل إلى نهاية حياته، هذا ما تؤكده لنا كتبنا المقدسة... بوذا حين وصل مرحلة الكمال، اختفى في عالم الغيب... إذ لا ضرورة لوجوده بعد... ليس بإمكانه، مشاركة الآخرين بكماله...

شاعر هندي صوفي Rabind ranath «رابيند رانات» النزعة، كتب ما لا يقل عن ستة آلاف قصيدة... تهيّب لحظة بلوغ الكمال، فركع وراح يتضرع إلى الله: «إني ما أزال غير كامل، فابقني هنا على هذه الأرض... عالمك جميل، أعطيتني منه ما لا يقدر بثمن، أعطيتني الحياة. وها أنا اليوم أريد الاحتفاظ بهذه الهدية، ما أزال راغباً بإنشاد أغنيات، لم أنشدها من قبل... أرجوك أبقني في هذه الحياة، كي أغني الأغنية التي طالما حلمت بإنشادها».

وهكذا مات... مات وهو يتوسل لله، مات وهو يشكر الله، عالمك جميل، وأنت عطوف جداً ومعطاء... امنحني فرصة ثانية في الحياة.

إنها الحياة، استمرار دائم، ولا أحد يبلغ مرحلة الكمال، وإلا اختفى من هذه الحياة... كذلك الحال، بالنسبة للرسام، يستحيل عليه بلوغ مرحلة الكمال، وإلا لفعل كما فعل «فان غوغ»...

ما تزال لوحات عدة بانتظاره. هناك رؤى جديدة يرغب بتحويلها إلى ألوان تتراقص على القماش... لذا، ما من رسام، شعر بالرضا الكامل عن لوحة أنجزها: «ليس هذا ما أردت التعبير عنه... لو فعلت كذا، لو. .. لو». وهكذ يبدأ برسم لوحة جديدة... مثله، مثل الشاعر الهندي رابيند رانات الذي كتب ستة آلاف أغنية. إلا أنه ما يزال يشعر، أن هناك أغنية لم يكتبها بعد فخاطب ربه: «حتى اليوم لم أنشد الأغنية التي طالما حلمت بإنشادها».

إلى جانب سريره كان صديق حميم، فخاطبه مستغرباً ما يسمع «أجننت يا صديقي... ستة آلاف أغنية».

وقاطعه الشاعر، قائلاً: «نعم ستة آلاف، إنما ما يزال في داخلي أشياء كثيرة... ما تزال هناك كلمات لم تُقل».

أولئك الذين يرون، لا يستطيعون وصف ما رأوا،

والذي يرى يستحيل تحويله إلى لوحة، يستحيل اختصاره بالكلمات... إنما يستمر الإنسان يحاول، ويحاول، وبسبب هذه المحاولات يصبح العالم أكثر جمالاً، أكثر حيوية... يستمر الإنسان في محاولاته. إنما يعجز عن الوصول إلى مرحلة الكمال.

لذا أنصحك يا صديقي، أن تستمر في محاولاتك، أن تستمر في الرسم والإبداع. حتى ولو كنت غير راض عما ترسم... هذا هو «الإبداع». هكذا، ما عليك إلا جعل كل لحظة من لحظات محاولاتك، لحظة إنشاء، لحظة انصهار بجوهر الوجود، أنت تمتلك قدرات لا حدود لها، روعتك أنك لا تعي ما بإمكانك فعله، وأنك ستبقى كذلك حتى تقوم به.

إذا كان الخالق الأسمى، أحس بالقلق، وهو يخلق هذا العالم، فكيف للإنسان العادي، الإنسان الذي لم يسبق له أن خلق وأبدع... هكذا، ليس بمقدورك معرفة ما بإمكانك فعله إلا بعد إنجازه. إنما عليك وأنت تنجزه، أن تتأكد من أن هذا هو الذي تريده، أنك تجسد بعملك

أحاسيسك الداخلية، إن فشلت، لا تخف... لا تيأس، بل حاول مرة ثانية وثالثة ورابعة، وكلما ازدادت محاولاتك، كلما اقتربت من الكمال لكنك لن تصل إليه أبداً.

الفصل العاشر: عن الضحك والفرح

وحده الإنسان من بين جميع مخلوقات الله، يقدر على الضحك والفرح. تشرق الشمس، لكنها لا تضحك. تغرد الطيور لكنها لا تضحك... وحده الإنسان حياه الله هذه النعمة، نعمة الضحك.

الضحك ضرورة، والجدية مرض وعلة.

الطفل يضحك ويرقص ويغني، وما إن يبلغ سن الرشد، حتى ينسى الضحك والرقص والغناء، ويتحول إلى إنسان جدي. وهكذا خسر معنى الحياة. لن يعود كموجٍ البحر الذي يروح ويعود لمعانقة رمل الشاطئ. تعبيراً عن اشتياقها للعناق... إنها تريد حياة المرح وترفض الجدية.

أنا شخصياً، ضد الجدية وكل ما ينادي بها... الجدية تدمر الذات الداخلية للإنسان... هناك من يرون في

الضحك نوعاً من تدنيس الحياة... أما أنا، فأقول: الضحك هو تقديس للحياة. لا يعتقدن أحد، أن رجال الدين وحدهم يقدرون الجدية، بل هناك كثيرون غيرهم، أنظر إليه إنه رجل جدي، جدير بالاحترام...

لست أدري لماذا رجال الدين المسيحيون، يدعون المسيحيين ليكونوا جديين، حتى صور المسيح، كلها تظهره وكأنه إنكليزي المولد والنشأة والتربية، أي لا يعرف الابتسامة ولا الضحك. ما من صورة له إلا وهو حامل صليبه، حتى أنه قال: «من أراد أن يتبعني فليحمل صليبه ويتبعني» لماذا على أتباعه حمل الصليب وليس حمل ناي أو أي آلة موسيقية أخرى؟

إن أخبرت إنكليزياً نكتة ما، يضحك مرتين: يضحك أولاً حتى لا يعتقد أحد أنه لم يفهم معنى النكتة ومغزاها. ويضحك ثانية حين يصبح وحيداً، هزءاً من نفسه لأنه ضحك لدى سماعه النكتة أما الألماني فيضحك مرة واحدة، يفعل ذلك على سبيل المجاملة، بمعنى أنه يضحك من فمه فقط، فيما داخليته تبقى جدية

رصينة.

كل يتجاوب مع النكتة، انطلاقاً من تربيته وتنشئته... لهذا، رحت أبحث في الأدبيات الشعبية الهندية عن نكتة، عن طرفة تثير الضحك، فوجدت أن كل النكات التي يتداولها الهنود، هي نكات مستوردة...

كل الديانات الهندية، ديانات جدية، تحرض معتنقيها على رفض الضحك والابتسام وتدعوهم لمعاقبة أجسادهم، وحتى أرواحهم. أحياناً، طمعاً بالحياة الآتية... حدق جيداً في تماثيل بوذا... في مئات آلاف التماثيل، المنتشرة، في الهند والصين وأفغانستان، وفي كل مكان من العالم... إنه جدي رصين.

هذه هي الهند، بلاد الفقر والعوز والمنبوذين والعابسين. وقد يكون هذا أحد أسباب إبقاء الهند على حالها. الصمت رائع، لكنه ليس مدعاة للجدية، قد يلتزم إنسان الصمت وهو يبتسم، وهو يشعر بالسعادة والفرح.

ما من أحد اختار عدم الابتسام والضحك من تلقاء نفسه، إنما هو يفعل ذلك، تلبية لتوصية مستدامة منذ قرون وقرون... قد يكون هؤلاء يرغبون بالضحك، لكنهم يخافون من الآخرين، يخافون من المجتمع الذي لا يحترم إلا الجديين، إلا أولئك الموقورين كما يحلو للبعض أن يطلق عليهم...

قد يكون للحياة ومتطلباتها تأثير على امتناع الأغلب الأعم عن الضحك، فهم مطالبون بتحقيق أهداف، تتطلب جهداً ونشاطاً، بحيث لا يبقى لديهم وقت لتبادل الطرائف والنكات. كثيرون يتعبون أنفسهم في البحث عن أشياء، لن يتمكنوا من إيجادها، لا في قاع البحر، ولا على قمم جبال هملايا، ولا حتى على سطح القمر... لأن الذي يبحثون عنه، هو ليس في الخارج، بل في الذات الداخلية.

لذا فكل الطرق لن توصل إلى الكنز المفقود... فحتام ستبقى تبحث وتبحث... توقف قليلاً أمام المرآة، أنظر إلى نفسك، لا شك ستلاحظ آثار التعب بادية على

وجهك، وستتعجب من نفسك وتتساءل لماذا هذا الإحساس بالفتور؟ ابتسم ولو قليلاً، فسترى كيف تغيرت ملامح وجهك، وستشعر أن بصيص أمل، أضاء دروبك.

هناك أسطورة هندية قديمة تقول: أراد الله بعد خلقه للعالم، أن يبقى مقيماً على الأرض، قريباً من مخلوقاته، إلا أن الناس أخذوا يتوافدون إليه، مشتكين متذمرين، ولكل منهم مع اليأس حكاية ومع الإحباط قصة. وما من أحد أتى شاكراً حامداً، حتى أحس الله بالتعب وراح يبحث عن وسيلة تنجيه مما هو فيه. نصحه أحد مستشاريه بالسكن على أعلى قمة جبل أفرست... فقال ومن يدري فقد يصل إليها إدمون هيلاري، ويلحق به الناس... قال آخر إذاً، ليس لك إلا القمر... ضحك الله وقال: لا شيء يصعب على هذا الإنسان، فقد يأتي يوم ويصعد إليه.

وخيم صمت رهيب... الكل يفكر، إلى أين تهرب من الإنسان الدائم التشكي؟ وإذا بعجوز يقترب من الله،

ويهمس في أذنه: «ادخل إلى ذاته... وهكذا لن يجدك أبداً... لأنه دائم التطلع إلى الخارج». وهكذا كان، إذ سكن الله في داخل الإنسان.

ها أنا أخبرتك بسر الأسرار. قلت لك أين تجد الطمأنينة والسلام الداخلي وراحة البال... ادخل إلى ذاتك، فالخالق موجود هنالك، إنه بانتظارك... فادخل مبتسماً، غير مشتكٍ، دعه يفرح بلقائك، وهكذا تصل إلى قمة الوعي، وصار بمقدروك الاحتفال بالنصر الذي حققته. لقد انتصرت على العبوس واليأس والقنوط، إنما هل بمقدور إنسان عادي مشاركتك فرحتك هذه؟

بالنسبة لي، ما من إنسان عادي... كل مخلوقٍ هو على صورة الله ومثاله. الله ما خلق بشراً بائسين حزانى... الله جمال، وكيف للجمال أن يخلق غير الجمال... كل مخلوق له خاصيته وميزته... كل مخلوق هو جزء من هذا الوجود ـ الكون... إنتبه، هذا لا يعني أن عليك الاعتداد بـ«الأنا». الأنا عدوة التمايز،

وليست جزءاً من الوجود ـ الكون. الأنا هي تجاوز لمقدرة الله وتطاول على إرادته ومشيئته.

أنت مخلوق لا تقارن بأي من المخلوقات الأخرى، إنما هناك من يريد أن يجعلك تشعر بالدونية. هناك من يريد استفزاز الأنا عندك... اسمع لحظة يقول لك أحد ما، أنت إنسان عادي جداً، فهو يحثك للسعي كي تكون إنساناً مميزاً، إنها الحياة، ما من أحد يرضى أن يكون أدنى مرتبة من غيره. أنت لست كذلك، لكنهم يريدون إيهامك بذلك، فلا تستجب لاستفزازاتهم.

سألني أحدهم ذات يوم: ما هو هدف الحياة؟ إن لم يكن عندي هدف خاص، هدف مميز، فلن أتمكن من العيش؟ الحياة عنده، هدف مميز وخاص به وحده، وإلا تحولت إلى أمر تافه لا معنى له... أتعرف أن سؤاله هذا، كان، كأنه يقول: «لأي مهمة جد فائقة الأهمية خلقني الله، ومن أجل ماذا جئت إلى هذا العالم؟».

هذه أسئلة الأنا... الأنا المتعالية... الأنا التي تدمر

الحياة والمخلوق معاً، بسبب رغبتها بالتمايز وحبها للتعالي على الآخرين...

الحياة، مميزة بحد ذاتها، الحياة لا هدف لها. الحياة أشبه بأغنية، أشبه برقصة، أو قل «إنها زهرة» تزهر بلا هدف، تزهر لأنها بحاجة لتزهر. لأنها وجدت لتزهر، إنها تزهر، ليس من أجل أحد معين بحد ذاته... إنها تزهر... فقط تزهر، وتنفث عطرها في كل الاتجاهات... إنها تنفث العطر، ليس طمعاً في أن يتنشقه أحد...

ما من أحد قال لك هذا... الكل يطالبك بأن تكون شاعراً ذائع الصيت، رساماً تباع لوحاته بمئات ألوف الدولارات، قائداً عظيماً، أن تكون سياسياً ناجحاً، أن تكون رئيس وزراء، أو رئيس جمهورية... وما من أحد قال: «كن ذاتك... كن أنت أنت... وأن الكل متساوون في حضرة الله».

ليس مطلوباً إثبات عظمتك، لأنك عظيم... ولدت

عظيماً، فلا تسمح لهم بتدمير عظمتك... أنت مخلوق الله، وهو يرعاك ويهتم بأمرك... أما يكفيك هذا؟

ليس من الضروري أن تكون رساماً تباع لوحاته بمئات ألوف الدولارات، بل من الضروري أن تكون نفسك، أن تفعل، أي شيء، نعم أي شيء، يجب أن تسكب فيه ذاتك.

أنت إنسان جدير بالاحترام، قد لا تكون مدركاً ذلك.

أنت إنسان واعٍ مدرك حقيقة وجودك، وقد لا تكون عارفاً بذلك.

لماذا؟

لأنك لم تحاول النظر إلى داخل ذاتك لترى ذاك المميز القابع فيها، فيما أنت تعتبر نفسك متسولاً لا قيمة له. حدق في داخل ذاتك، فتكتشف أنك ملك الملوك.

أسرع واحتفل... لا تؤجل هذه الفرصة إلى يوم آخر... أولست ترغب بالحياة؟ إنها ملك لك. أولست

ترغب بالتعرف إلى جوهر كينونتك؟ ها أنت تعرفت. ها هي النجوم، ها هي الطيور، كلها مستعدة مشاركتك الفرحة... فماذا تريد غير ذلك؟

أتريد أن تتوج وتجلس على كرسي العرش، وتصبح سجين قصر ذهبي؟ وما نفع الاحتفال ساعتئذ؟ شاهد كل أفلام السينما التي تروي حياة الأباطرة والملوك. هل ترى امبراطوراً أو ملكاً، ضاحكاً أو مبتسماً. لن ترى أياً منهم يسير في الشوارع بحرية تامة... لأنه تعود أن يكون سجيناً... «أناه» هي التي حكمت عليه بالسجن.

يتحدث الفيلسوف البريطاني برتراند راسل، عن انطباعاته بعد زيارته لإحدى القبائل التي ما تزال تعيش حياتها البدائية، وحتى اليوم لم تدنس الحضارة حياة تلك القبيلة فيقول: «شعرت بالغيرة القاتلة... تمنيت لو أني واحد منهم وليس برتراند راسل. أحسدهم على طريقة رقصهم، على طريقة تعاطيهم مع بعضهم البعض ومع الآخرين. صدّقوني رأيت فيهم ملوكاً غير متوجين، ملوكاً توجت رؤوسهم بأكاليل من الأغصان

والزهور. كل رجل كان ملكاً، وكل امرأة كانت صاحبة جلالة... قد لا يكون لديهم من المال، بقدر ما لدينا، لكنهم يشعرونك بالفرح، يرقصون طيلة الليل. ومتى يأوون إلى النوم، حيث كانوا يرقصون، وعند الصباح يذهبون إلى العمل، يتعبون، يشقون، وما إن تغرب الشمس، حتى يعاودوا الرقص وينتهي الفيلسوف إلى القول فعلاً: «أحسست أني أغار منهم، أني أحسدهم، وتمنيت لو أني واحد منهم».

فلماذا لا تكن فرداً من أفراد تلك القبيله؟ أما تلاحظ أن هناك أمراً غير طبيعي في حياتك؟ لماذا لا ترقص، لماذا لا تغني؟ أن تكون إنساناً عادياً، لا يعني أنه لا يحق لك الرقص والغناء!!! كن جميلاً ترَ الوجود جميلاً. واعلم أن ليس للفرح مناسبات، لأنه ضرورة لاستمرار وجودك... إذاً، لماذا تنتظر إلى الغد؟ قم واحتفل الآن، وإلا ستموت وأنت لا تعرف معنى الإحساس بالفرح والغبطة.

هذه نصيحتي لك... إبدأ الآن، وستشعر بالطاقة

تفيض عنك... الحياة تأتيك صاغرة، لا تطلب منك شيئاً، على عكس الأنا التي تفرض عليك إنجاز أشياء كثيرة... أنظر إلى الطيور، كلها تتراقص مع نسيمات الريح... ما من زهرة تتساءل عن سبب لتمايلها، ولا لماذا نتمايل...

خُلق الإنسان ليعيشٍ حياة احتفالية... إن كانت الطيور تحتفل يومياً، فلماذا لا تتشبه بها يا أيها الإنسان؟ لماذا تضع الحواجز التي تعيق مسيرتك؟ لماذا تحول دون تحقيق ذاتك؟ لماذا تتحول إلى عدو لنفسك؟ لماذا تصغي إلى أولئك الذين يوهمونك بأنك مجرد إنسان عادي، والإنسان العادي لا يحق له الاحتفال بإنجازات خاصة به حتام سيبقى يصغي إلى أولئك الذين يقولون له، كن بوذا أولاً، كن المسيح أولاً، كنٍ محمداً أولاً...

إنهم يطلبون المستحيل، إذ يستحيل عليك أن تكون واحداً منهم وأنت عاجز عن الرقص، عاجز عن الغناء، رافض الإحساس بالغبطة والفرح... كيف

ستكون المسيح وأنت ترفض استقبال البركة الإلهية؟ كيف ستكون محمداً، وأنت ترفض أن تكون جزءاً، لا يتجزأ، من هذا الوجود الحياتي؟

يقول: إنسَ بوذا، أبعده عن Zen أحد كبار كهنة الزن تفكيرك وعن طريقك، لئلا يمنعك من الوصول إلى الحياة التي تفيض حباً وفرحاً وسعادة... سيكون عليك، المرور بحياة تلو حياة. كي تصبح بوذا... وقد تصبح بوذا، وقد لا تتمكن من ذلك، فماذا تفعل إذاً؟ تبقى متجهم الوجه، عاقد الحاجبين؟

هذا الكاهن الزني، كان يخاطب تلاميذه، قائلاً: «إن كنتم تمارسون التأمل، لا تفكروا ببوذا، لئلا يفسد عليكم تأملكم». هناك من يطلب منك أن «تصبح»، ولماذا عليك أن «تصبح» فلاناً أو فلاناً. لماذا عليك الانتظار كي تصبح ما يريدونك أن تكون؟ أنت... أنت... ولا ضرورة أبداً أن تصبح غيرك أنت. إنهم يمهلونك كي «تصبح». أما أنا فلا أمهلك، حتى ولو لحظة واحدة. أنا أطلب منك أن تكون مستعداً دائماً، أطلب منك ألا تؤجل

شيئاً إلى الغد، أو حتى إلى ما بعد ساعة واحدة ليست أكثر، من يدري ماذا سيحدث خلال هذه الساعة؟ قد يقال: عليك الاستعداد جيداً وإعداد نفسك. ولكن هذا قد يستغرق زمناً طويلاً، قد يستغرق مرورك بعد «حيوات»... ويعني أيضاً، وهو الأهم، «ممنوع عليك الاحتفال بحياتك». لماذا؟ لأنك بنظرهم ما تزال غير تام... ومن هم كي يقرروا إن كنت تاماً أو غير تام؟ وهل ستبقى حزيناً تعيساً، حتى يقرروا هم، أنه صار لك الحق أن تفرح؟ والحال هذه، ما معنى وجودك إذا كان هناك من يسيّرك ويقرر عنك؟

سيقولون، عليك أن تتمرن على كيفية الحصول على السعادة... ولكن، أما تساءلت: «كيف يمكنك أن تكون تعيساً بلا تمرين، وليس بمقدورك أن تكون سعيداً إلا بعد تمرين؟ «التعاسة والسعادة وجهان لعملة واحدة هي الحياة. كن جريئاً، وارقص، وغنِّ...».

أنا لا أقول لك ستكون راقصاً محترفاً ومشهوراً. هذا يتطلب جهداً وتمارين، أنا أقول لك أرقص، حتى

ولو كنت لا تنقل قدميك وفق الخطوات المطلوبة... الرقص وحده يكفي، يكفي لنقلك من عالم التعاسة، إلى عالم السعادة... يكفي لأنه سيساعدك على إشراك الآخرين في طاقتك.

لا تدّعي أنك في قمة الوعي... بل تساءل: أين أنا؟ أين أعتقد أني موجود؟ أنت ـ والحقيقة تُقال ـ تعيش في ظلمة حالكة. أنت تعيش مغمض العينين، وإلا ستكون إلى جانبي، ستكون، معي هنا، في حدائق النور والتنور. انتبه أنا لا أدّعي أني أسكن على القمم، غير أني متأكد جداً أني لا أسكن في قعر وادٍ. أنا هنا، وأنت كذلك، إنما هناك فرق كبير بيننا. أنت تخلد إلى النوم، وتحلم أنك في لندن، باريس، نيويورك، أو في أي مدينة من أجمل مدن العالم. أما أنا فلا أحلم إلا بالمكان الذي أنا فيه، فهل أنت كذلك؟

قد تقول إنها معتمة جداً. أما أنا فأحدثك عن النور... قد تقول إننا بشر عاديون، ولا يحق لنا العيش، إلا وسط العتمة... إنما لو سمحت لنفسك أن تدخل إلى ذاتك،

لعرفت أن العتمة لا تكون، إلا بوجود عيون مغمضة... وهكذا أنت، تجهل من تكون، وتجهل الحياة... الحياة، هي ألا تفعل شيئاً كواجب، بل افعله بحب وبإحساس. وحين أقول لك احتفل بحياتك، أكون أقصد، أن تكون أكثر وعياً وتحسساً للأشياء. أن تعرف، أن الرقص ـ رقص الفرح ـ هو جزء من الحياة... الرقص تعبير عن الفرح، فافرح بكل ما تعمل.

دع الحياة تدخل إليك. كن أكثر انفتاحاً، إحساساً ومحبة... راقب الطفل كيف يتصرف. إن تركته يلعب على سجيته في حديقة عامة... راقب حركاته فقط، ولا تتدخل، حدق في ملامح وجهه، كيف تعكس أحاسيس الدهشة، ومشاعر التعجب... أنظر إليه راكضاً خلف فراشة، أو وهو يحاول قطف زهرة... أنظر إليه وهو يلعب بالوحل... إنه رمز البراءة، وها هي الألوهة تتجسد فيه... إنه يتصرف، غير آبه لما ستقوله أنت أو أمه حتى، بل همه أن يكون فرحاً، همّه ألا يغضب أحداً، مع أننا نغضب أحياناً من تصرفاته، لأننا لا نفهم

لماذا يتصرف هكذا؟ لماذا لا يتصرف كما نحن نريد؟ إنه يعيش في دهشة وتعجب دائمين...

فلماذا لا تكن مثله، لماذا لا تتعرف إلى أحاسيس الدهشة والاندهاش، ومشاعر التعجب؟... لماذا تدّعي أنك تعرف كل شيء؟ ما دمت تعرف كل شيء، فاعلم أن الحياة في تغير دائم واستمرارية تحول، فما يعني، أنها تتجدد كل يوم، وكل يوم تتغير، والذي تراه اليوم، لن ـ ولن تراه ـ غداً. ما من لحظة، تشبه التي سبقتها أو التي ستليها، فافرح في كل لحظة، على أنها هي بداية حياتك، وهي نهاية حياتك. ولماذا أنت مدمن للتعاسة؟ لماذا تسعى وراء لحظات الحزن، وكأنها أغلى وأثمن ما في الوجود؟

هناك نوعان من البشر: الساديون، والماشيسيون... الساديون يتلذذون بتعذيب الآخرين، والماشيسيون يتلذذون بتعذيب أنفسهم... وفي الحالتين هناك عذاب، إما للغير أو للذات... فلماذا هذه العدائية؟ لماذا هذه النزعة العنيفة؟

هذه هي السلبية بعينها... أنت تعذب نفسك، لأنك عاجز عن إسعادها... لأنك عاجز عن الحب، ولأنك لا تعرف ما معنى ـ ولا أهمية ـ التسامح والعطاء... هذه هي السلبية بعينها... الطاقة ذاتها، قد تكون سبباً للعذاب، وسبباً للسعادة. كن واعياً، فالطاقة ذاتها تتحول عن العنف، لتصبح طاقة تسامح وعطاء. وفي حال اللاوعي، في حالة الغفلة، تعود إلى طاقة تعذيب، إما للغير أو لذاتك. حين تكون واعياً، تتحول إلى طاقة حب، لنفسك وللآخرين... إنها الحياة، تمنحك الفرصة تلو الأخرى، ولكنك لا تستفيد منها.

أما تلاحظ، أنك تبدي الحب واللطف، نحو الحزانى واليائسين، وأنك تشعر بالغيرة من الذين يعيشون السعادة والفرح؟ مع الأوائل، أنت تتماهى، دون أي إحساس إنساني. أنت تشفق وتعبّر عن الشفقة بإظهار مشاعر الحب والعطف، أما مع الآخرين، فأنت تحسدهم، لأنك تتعجب من وجود إنسان سعيد. لأنك أنت لست سعيداً... اسمعني جيداً، إن كنت أنت عاجزاً

عن الوصول إلى لحظات سعادة، فلماذا لا تسمح للآخرين أن يصلوا إلى تلك اللحظات؟

يولد الطفل بريئاً، إنما يوماً بعد يوم، يتعلم أشياء كثيرة، أشياء تبعده عن براءته، يتعلم، أنه طالما هو فرح، طالما هو يلعب، ويلهو، وطالما علامات الدهشة والتعجب على وجهه، طالما الابتسامة على شفتيه. لا أحد يهتم به، بينما إن بكى تركض أمه نحوه. كذلك إن ارتفعت حرارته... فتعلم كيف يجذب الانتباه، وكيف يجبر الكل على البقاء إلى جانبه، يهتمون به... أتدري يا صاحبي، نحن من علمناه ذلك، نحن من أفسدنا حياته وأبعدناه عن البراءة.

لماذا لا تشاركه فرحته؟ لماذا لا تشاركه اللعب في ما يلعب؟ لست أدري... أنا لا أقول إنه علينا عدم الاهتمام به حين يمرض، بل أقول علينا العناية به وليس التماهي مع مرضه... الاهتمام والعناية واجب، أما التماهي فلا... لأننا نكون ندمر طفولته، ونجعله ينزح نحو البكاء والتمارض...

أنا لا أحمّل الأهل المسؤولية عن سوء هذا التصرف، لأنه تصرف موروث... إننا نعيش وسط مجتمع، لا يستند نفسياً على الأقل ـ إلى أسس سليمة... فحتى للأهل مبرراتهم في ما يتصرفون، وهكذا فالأخطاء تستمر في الانتقال من جيل إلى جيل، وكأن لا أحد قادراً على القيام بحركة تصحيحية.

ولكن دعونا نتساءل عن المبررات التي تسمح للأهل بعدم مشاركة الطفل فرحه وسعادته... أقراءة الجريدة أهم؟ أم استقبال الآخرين؟ وكذلك بالنسبة للأم... هل إعداد الطعام أهم من العناية بالطفل؟ لا أعتقد ذلك... لأنه ـ أي الطفل ـ هو هذه اللحظة وهو اللحظة القادمة، هو من سيكون مسؤولاً عنها، وعن زوجها، في سنوات الكبر والشيخوخة... من هنا، علينا إعطاء الأفضلية للطفل. الجريدة، ممكن قراءتها في ما بعد، وكذلك إعداد الطعام.

هل سبق لك ورأيت أماً، تراقص طفلها، أو تقفز معه من زاوية في البيت إلى أخرى؟... لا لن ترى ذلك

إلا في ما قدر... وكذلك بالنسبة للأباء... إنهم يظهرون مظاهر الجدية في تعاملهم مع أطفالهم... إنهم يحملون هموم الدينا على أكتافهم، ويتركون أطفالهم في عالم مختلف جداً... لماذا لا يحملون أطفالهم على أكتافهم؟... إنه سؤال بلا جواب، لأن الجواب يكمن في نزعتنا نحو التعاسة... وهل للتعيس أن يعطي فرحاً وسعادة؟ لا... وألف لا...

والأبشع، أن ما من ثورة من الثورات التي عرفها العالم عبر التاريخ، تمكنت من تغيير نمط الحياة هذا. لا الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية أو الصينية، قد تكون غيرت في كيفية التعاطي ظاهراً. أما في الجوهر فلا شيء تغير... الحزن هو الأهم.

الثورة الحقيقية، هي في قول المسيح «دعوا الأطفال يأتون إليّ، ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات». نعم هذه هي الثورة الحقيقية. الثورة التي تدعو إلى العودة للطفولة.

قد يتعجب أحد لمثل هذه الدعوة... ويتساءل، وكيف سنبقى أطفالاً؟... الجسد ينمو ويكبر، أما نوعية الوعي هي التي يجب أن تبقى طفولية، تبقى بريئة، كما الأطفال.

حتام تبقى حيث أنت، وحيث التعاسة؟ لماذا لا تحاول الخروج إلى مكان آخر؟ لماذا لا تحاول الاستثمار في الفرح بدلاً من الحزن؟ لماذا لا تتخلى عن العقول وتمضي نحو الحياة؟

عدم الاعتماد على العقل ـ أو حالة اللاعقل ـ هو الذي يبقي الطفل بريئاً.

أنت ضد الجدية والرصانة

أنت تتخذ موقفاً عدائياً من الجدية والرصانة... وأنت في موقفك هذا، تكون تناهض رجال الدين وما يدعون إليه، فكيف تتوقع ردة فعل الناس العاديين

على ما تقول؟

ومن قال لك، إني أتوقع أن تأخذ الناس ما أقول على محمل الجد؟... أنا أسعى، كي يتفهم الناس، أني داعي سعادة، داعي فرح وضحك.

ومتى أراك ضاحكاً سعيداً أدرك أنك فهمت ما أقول، أما رصانتك فتدل على العكس... الجدية هي لا شيء، سوى المرض، هي لا شيء، إلا الإسم الآخر للخوف... إنها ظل الموت... وأنا أدعو للحياة.

أنا أدعوك لرفض وجودي، ولكن ليس لرفض مبدأ الضحك والرقص والفرح والمرح...

لماذا عليك معاملتي بجدية؟

لهذا السبب أنا لا أتعامل معك ـ ولا مع غيرك ـ بجدية... ولا أطلب من أحد أن يتوقع ذلك... أنا أدعوك ـ كما أدعو الآخرين ـ لمشاركتي الضحك واللعب والفرح. إنما إكراماً لله، ابتعدوا عن الجدية التي تدمر

الإنسانية والتي أثبتت الدراسات والأبحاث العلمية، أنها سبب من أسباب مرض السرطان.

أنا أدعو إلى الفكاهة، إلى روح الفكاهة... وأرجوكم ألا يعتقد أحد، أني غير مؤمن، وأن الفكاهة هي تجديف على الله، على العكس هي تجربة حياتية مقدسة.

إني مستعد لأبرهن خطأ اعتقادك أن روح الفكاهة ليست مناقضة للدين والتعاليم السماوية.

وحده الإنسان من بين جميع المخلوقات، يرقص ويمرح ويغني... أرأيت بقرة تضحك؟ أرأيت كلباً مرحاً؟ أبداً... الحيوانات جدية، فلماذا نتخلى نحن عن حياتنا البشرية لننزلق إلى مستوى الحياة الحيوانية؟ بسبب عدم الوعي وبسبب العقل وسيطرته.

الحياة ليست خطيئة، الحياة هي بركة إلهية وهدية إلهية، فكيف ستكون خطيئة، أو مدنسة؟ إفرح بما أعطاك الله، وتهلل بما منحك وأهداك، الحياة. أما أولئك الرافضون الفرح بما أعطاهم الله والتهلل لما منحهم

وأهداهم، فهم ناكرو جميل جاحدون.

تعلّم كيف تشارك الأزهار تفتحها والنجوم إشراقها. وستشعر بانعدام الوزن، وتصبح قادراً على الطيران كما الفراشات والعصافير.

الفصل الحادي عشر: عن الشرق والغرب

الغرب، يمثل العقلية الذكورية... النزعة العدائية. أما الشرق، فيمثل العقلية الأنثوية... الحب والحنان... الاستشراق والحدس. هناك فرق كبير بقوله المأثور: «الشرق Kipling «بين الإثنين... وهذا ما أكده «كيبلينغ والغرب لن يلتقياً أبداً، إنهما خطان متوازيان». إنها الحقيقة الساطعة. .هناك انقسام عامودي بينهما، فكرياً وحياتياً

الغرب، عدائي، علمي غير آبه بالطبيعة

الشرق مسالم محب للطبيعة

الغرب جائع للمعرفة... الشرق صبور... الغرب يسعى بكل الوسائل والسبل لفك لغز الحياة والوجود، أما الشرق فهو غير مهتم بمثل هذه .الأمور، لأن الحقيقة ستأتيه من تلقاء ذاتها

.الغرب يركز على التفكير العقلاني

.الشرق لا يتهم بالتفكير

الغرب هو العقل والشرق هو اللاعقل... من هنا أعود وأكرر، لقد .«أصاب كيبلينغ في قوله «الشرق والغرب لن يلتقيا أبداً

الشرق والغرب، لا يمثلان الانقسام الحاصل في الكرة الأرضية وحسب، بل ذاك الانقسام الحاصل في الدماغ البشري أيضاً... حتى الدماغ

مقسوم إلى قسمين، كما الأرض، فيه شرق وغرب... القسم الأيسر من الدماغ هو الغرب، المرتبط بيدك اليمنى، والقسم الأيمن من الدماغ هو الشرق المرتبط بيدك اليسرى. الغرب يستعمل اليد اليمنى والشرق يستعمل اليد اليسرى... إنه فرق كبير بينهما.

القسم الأيسر من الدماغ، هو القسم الذي يهتم بالحسابات والمنطق والتفكير، وبكل ما يعتمد عليه العلم، والقسم الأيمن منه، هو الصوفي الشاعري. هو الأحاسيس والمشاعر، هو تلك الضبابية التي تسبب الفوضى الخلاقة، هناك شاعرية في هذه الفوضى، كذلك أغنيات وإيقاعات رقص.

العقل الحسابي، هو عقل متصحر، أما العقل اللاحسابي ـ العقل الشاعري ـ هو حديقة غناء. العصافير تتنقل فيها من شجرة إلى أخرى، والزهور تتفتح في كل ركن من أركانها. إنهما عالمان مختلفان.

إني أحاول إعطاءك صورة واضحة عن الشرق والغرب، عن العلوم والدين، عن العقل والحدس، عن الذكورية والأنثوية، عن الرأس والقلب، عن اليمين والشمال. إني أحاول بكل الطرق الممكنة إيجاد تناغم بينهما... وحده هذا التناغم، يمكنه بعثك من جديد.

الصمت، الاحتفال والحياة

في الغرب، الاحتفالات تعني تمضية أفضل الأوقات بالاستماع إلى الموسيقى الصاخبة ومشاهدة الأفلام السينمائية وممارسة الجنس

وتدخين السجائر وتعاطي المخدرات، واستهلاك جزء من الطاقة في حين أن الصمت والصفاء يؤديان حكماً إلى الملل، وإلى تراكم الطاقة التي ستنتج التوتر والقلق. هل لك أن تحدثنا عن الصمت والاحتفالات والحياة؟

إنه سؤال يحتوي مضامين عدة ذات أهمية، لذا سأتحدث عن كل مضمون من هذه المضامين، وعليك استخلاص الجواب.

أول ما عليك تذكره، أن الإنسان يتألف من عالمين متناقضين ومتكاملين في آن: العالم الخارجي والعالم الداخلي، إنها ثنائية الإنسان، الجسد والروح، ومن هذه الثنائية الرائعة تبرز العديد من المشاكل، والأهم من هذا كله، أنه يستحيل على المرء الاهتمام بهذين العالمين معاً، إذ عليه الاختيار إما الاهتمام بالجسد أو الاهتمام بالروح.

في الشرق، الإنسان هو روح فقط، تتمثل بالوعي والكائن الداخلي... الذات النيّرة. وهذا يعني التنكر لوجود الجسد وضرورة التعامل معه، ويعتبرون وجود الجسد نوعاً من الخداع والوهم، فالروح هي الأهم، هي التي تبقى بينما الجسد يفنى.

أما الغرب، فقد اختار العالم الآخر، العالم الخارجي رافضاً حتى محاولة الدخول إلى العالم الداخلي... الإنسان هو جسد فقط، هو مادة نيسيولوجية وبيولوجية وكيميائية ، ليس وعياً، ولا روحاً، التي هي ظاهرة ثانوية مصاحبة لوجود الجسد الذي هو العالم الداخلي، الأمر الذي سمح للغربيين أن يتقدموا علمياً، وعلى كافة المستويات التكنولوجية حتى وصلوا إلى القمر، وتعرفوا إلى أسرار كوكبي المريخ والزهرة. لكن هذا لم يمنع الغربيين من الإحساس، أن هناك شيئاً يفتقدونه: إنه العالم

الداخلي... لكنهم يرفضون الاعتراف بذلك.

نعم يرفضون الاعتراف أنهم يفتقدون عالمهم الداخلي... إنهم أشبه بالمنزل الذي يعج بالضيوف، ورب البيت غائب عنه... لدى الإنسان الغربي، كل ما في العالم، إلا أنه عاجز عن إيجاد نفسه. يا للتعاسة التي لا توصف... لديك كنوز لا تعد ولا تحصى، والمال الوفير، وكل ما يحلم به إنسان، وبعد عقود من الجهد، صُدم الإنسان الغربي، إلى أنه وجد نفسه أمام حقيقة صعبة... حقيقة أنه هو غير موجود، داخله مجرد مساحة فارغة.

التعاسة عند الغربيين، هي ذاتها عند الشرقيين الذين أولوا اهتمامهم للعالم الداخلي، وتجاهلوا العالم الخارجي، ما أعاق تقدمهم العلمي. اهتموا بكشف أسرار الطبيعة، دون معرفة كيف يمكنهم فعل ذلك، فكانت النتيجة، قروناً من الفقر، والجوع وأنواع عدة من العبودية.

ألفا سنة ونيف من العبودية والجوع والفقر والتقهقر دون أن يحاول الشرقيون معرفة أسباب ما هم فيه... ألفا سنة ونيف وهم يحلمون، رافضين الاعتراف أن هناك عالماً آخر، غير عالم الروح. تعلموا كيف يصمتون، كيف يعيشون بسلام، كيف يستمتعون بالنعم التي تفيض من الداخل، لكنهم لم يدركوا أنهم عاجزين عن مشاركة الآخرين بهذه الأشياء، فالآخرون هم العالم الخارجي الذي يأبون الاعتراف بوجوده. إنهم يتكلمون عن الروحانية وعن الوعي وعن التنور وعن التأمل، أما خارجياً، فكانوا وما يزالون مرضى وجياعاً ومتسولين وعبيداً.

ومن - يا ترى - سيصغي إلى أولئك العبيد وعظماء فلاسفتهم؟ الغرب يهزأ منهم، وهم بدورهم يهزأون من الغرب... إننا نعيش في حالة انفصام

...حاد

وحدهم البؤساء بحاجة للتسلية، لأوقات المرح، تماماً كما المرضى بحاجة للطبابة. يا لها من سخافة! الإنسان بحاجة للأوقات الجيدة، ولماذا؟ ليتخلص من تعاسته... وبالرغم من هذا فالتعاسة تبقى ملازمة له. يحاول تعاطي المخدرات ومعاقرة الخمور وممارسة الجنس، ولكن التعاسة تختفي لفترة وجيزة، وتعود لتطل برأسها من جديد. ماذا تفعل يا أيها الإنسان؟ إنك تحاول الهروب من ذاتك الفارغة الخاوية. أنت مستعد لتجربة أساليب عديدة ومتنوعة، لكنك تتجاهل ذاتك.

يتصرف الغربيون، وكأنهم مجانين أحياناً... إنهم في حالة هروب دائم، ودائماً بحاجة لأوقات تسلية، لذا نراهم يتجمعون بمئات الألوف، وبالملايين حتى، لمشاهدة مباراة كرة قدم، يصرخون ويهتفون، أوليس هذا دلالة على التخلف العقلي؟ أعرف رجلاً، حطّم جهاز التلفاز، بسبب خسارة الفريق الذي يناصره. أوليس هذا هو الجنون بعينه؟

منذ سنوات أقامت جامعة كاليفورنيا، مباريات بالملاكمة على مدى سنة كاملة... ماذا كانت النتيجة؟ ازدياد نسبة الجريمة وازداد عدد الذين أقدموا على الانتحار. وكل ذلك بسبب مشاهدة مباريات الملاكمة، ولم يتجرأ أحد على الطلب من الجامعة إيقاف هذا النشاط الذي يسمونه رياضياً، فيما هو نشاط عنف... ماذا يفعل مشاهدو هذا النوع، سوى مشاهدة أحمقين يتبادلان اللكمات والضرب. وهل هذا نوع من الأوقات الجيدة؟ وهل مشاهدة العنف، تعتبر نوعاً من التسلية والترفيه؟ تُرى ما الفائدة من مشاهدة اثنين يتصرفان بطريقة وحشية بربرية؟ أنت تفعل هذا، لأن رغبة دفينة في داخلك تحدوك للتصرف مثلهما.

ورغبة في المزيد من أوقات التسلية، تحول الغربيون، مع الأيام، إلى مشاهدين للأفلام الإباحية، أو لحضور مباريات الملاكمة، أو كرة القدم، أو الذهاب إلى دور السينما... ترى لماذا ترك الإنسان نفسه لأولئك الذين يتفننون في اختراع أوقات تسلية كما يدّعون، فيما هم يسعون للسيطرة على الإنسان لتحويله إلى مراقب ـ بكسر القاف.

كان هناك ثري يتردد على عيادة معالج نفسي، ويدفع له مئة دولار بدلاً عن كل ساعة... لكن هذا الثري، كان يجلس على كرسيه في العيادة، ويبدأ بالثرثرة لساعات، ويعيد الحكاية ذاتها، حتى تحول الطبيب النفسي بحاجة إلى طبيب نفسي، فطلب من مريضه تسجيل كل ما يخطر على باله على أشرطة، وهكذا يتسنى للطبيب سماعها بهدوء، وبعد الانتهاء من معاينة مرضاه... لكن الطبيب أصيب بالملل مجدداً.

هناك حقيقة، الكل يهرب من ذاته، ويدّعون أنهم يمضون أوقاتاً حلوة.

حياة الإنسان الغربي، لا تعرف السكينة، ولا الهدوء، إنها حياة العجلة التي لا تتوقف أبداً... حتى الوصول إلى ظلمة القبر.

الوصول إلى ظلمة القبر، يعني أن العجلة تعبت وتوقفت عن الدوران. في القبور فقط يرتاح الإنسان الغربي، ولا يعود بحاجة لأوقات تسلية وراحة.

هذا في الغرب، أما في المقلب الآخر من العالم، وجد الإنسان كنوزاً عدة، وواجه ألغاز الحياة وأسرارها، لكن المشكلة، أن هذا الإنسان ما يزال عاجزاً عن تجسيد هذه الأشياء، وغير قادر على إثبات وجودها أو عدمه. إذ وحده يراها ولا أحد آخر، إذ لن يتمكن أحد من الدخول إلى

ذاتك... هكذا، ومن الطبيعي أن يتحول الإنسان الشرقي، إلى إنسان منعزل، يكره التجمعات، إنه يريد ذاته غارقة في الصمت، يريد ذاته نقية، لا أحد يزعجها. فماذا كانت النتيجة؟ هجر العالم وذهب إلى قمم جبال همِلايا، أو إلى غابة كثيفة ليعزل نفسه.

كلاهما، الإنسان الشرقي والإنسان الغربي، يختار نصف الإنسان. وهذا ما جعله يغرق في بؤسه، لكن للبؤس أسباباً. في الشرق، أسبابه تعود إلى فلاسفة كبار، ومتصوفين، أمثال بوذا، مهاتيرا، بودهي دهارما، وكبير. أما في الغرب، فهناك غاليليو، تقربرنيكوس، كولومبوس، ألبرت أينشتاين وبرتراند راسل وغيرهم. هذه أسماء مشهورة في العالمين الشرقي والغربي، ولكن، ما من أحد منهم اهتم بالإنسان بنصفيه المادي والروحي، الداخلي والخارجي، وهكذا، ساهموا في استمرارية بؤسه وتعاسته.

أما أنا، فأقول لك، الداخل هو حقيقة، كما الخارج. الذات مميزة وكذلك الجسد، وما عليك إلا إيجاد نوع من التوازن بينهما بشكل لا تسيطر الذات على الجسد ولا هو يسيطر عليها. أنا لا أنكر نجاحات الغرب والشرق معاً: إنما ما من أحد اهتم بالكل كوحدة متكاملة، هذا الأمر يتطلب شجاعة، يتطلب رؤيا وبعد نظر وتفهماً. وجود الجسد، لا يعني القضاء على الروح، لذا لا بد من تنميته وتغذيته والتعامل معه على أنه موجود. كذلك فالروح لا تهدف إلى تدمير الجسد، والقول إن على الإنسان التنكر لجسده وتعذيبه، هو قول مردود ومناهض للإنسانية.الدخول إلى الذات، وممارسة التأمل بصمت وهدوء، لن يقرأ سلباً على الخارج [الجسد] فلا ضرورة لرفض مثل هذا التصرف. علينا معرفة، أن الإنسان نصفان، والاهتمام بنصف واحد، لن يحقق للإنسان غاية وجوده... لذا

عليه الاهتمام بالإثنين معاً.

إذا كان الخارج غير حقيقي، فمن الذي يتحرك إذاً؟ من الذي يذهب إلى السوبرماركت؟ من الذي يتزوج ويمارس الحب مع زوجته وينجب أطفالاً؟ ولمناصري الروح أقول، لماذا تهربون من العالم، وتذهبون إلى أماكن منعزلة؟ ما الفرق بين الوجود على قمة جبل، أي جبل، أو في قلب المدينة؟ المهم من هو الهارب؟ ومن هو الموجود؟

ذات الغباء يسيطر على الغربيين أنصار المادة، حين تسأل عالماً عن نفسه، يجيبك أن لا أحد في داخله... يا له من قول سخيف؟ إن كان فعلاً، لا أحد في داخله، فمن هو ذاك العالم ـ بكسر اللام ـ الذي يعمل في المختبر؟ من هو ذاك المشرف على إطلاق المركبة الفضائية؟ إن لم يكن أحد في داخله، فمن هو الذي يقوم بعمليات الحساب، ويستخلص نتائج الأبحاث؟

هناك أحمقان يدمران الكون والإنسانية، يقضيان على راحة البال والحب والعظمة الإنسانية وكرامة الوجود. فلا الخارج ـ الجسد ـ قادر على الوجود بلا الداخل، ولا الداخل ـ الروح ـ قادر على الوجود بلا الخارج... إنهما وجهان لعملة واحدة.

إن اقتنع المنظرّون أم لا، فعلى الخارج والداخل أن يكمل أحدهما الآخر، لا أن يتصارعا، وأن يتواجدا معاً متحدين، غير منفصلين، وأن يعملا معاً، الواحد يدعم الآخر... ساعتئذٍ يرتقي الإنسان إلى قمة الوجود الفعلي، ساعتئذٍ يتحول إلى زهرة تبعث عطرها في كل الاتجاهات، إلى نهر يسير نحو مصبه في المحيط، بإرادته هو، وليس بإرادة من أحد.

وقلت أيضاً: في الغرب، الاحتفالات، وفقاً للنظرية الأميركية، تعني تمضية أفضل الأوقات، بالاستماع إلى الموسيقى الصاخبة ومشاهدة الأفلام السينمائية وممارسة الجنس، واستهلاك جزء من الطاقة.

هذا ينطبق على النصف وليس على الكل، ينطبق على أولئك المهتمين بالخارج، متناسين ذاتهم الداخلية التي تغذي الجسد وتمنحه قدرات يستحيل وجودها، بلا الروح فلاسفة هذه الأيام، أمثال سورين كيركفارو، مارتن هايدغر، كارل جاسبر وجان بول مارنر، يقولون: لا معنى للحياة، إنها مملة مضجرة، وكأنهم يحرّضون الناس على الانتحار، والمدهش، أن أياً من هؤلاء الفلاسفة لم يحاول الانتحار. ما يذكرني بفيلسوف إغريقي، نادى بذات أفكار هؤلاء الفلاسفة، وكان لفلسفته تأثير كبير على أجيال تلك الأيام، فأقدم المئات، بل الألوف على الانتحار، فيما هو جاوز الثمانين من العمر، وما يزال ينادي بتفاهة الحياة، وقبل وفاته بلحظات اقترب منه أحد الأصدقاء وقال: الغريب، أنك من خلال فلسفتك شجعت الناس على الانتحار، فلماذا لم تنتحر أنت؟ لكن الفيلسوف أجاب: «كان علي تحمل عذاب الحياة، لأوصل الحقيقة إلى الآخرين». لقد جعل من نفسه شهيداً حيًّا، تحمل العذاب وعاش كي تنتحر أنت...

أن تقرأ عن العلم ومنجزاته شيء، أما أن تبدع علمياً، فشيء آخر. أن تقرأ عن التأمل شيء، أما ممارسته فشيء آخر مختلف كلياً. من هنا، فالغرب بحاجة إلى عقل تأملي، والشرق إلى عقل علمي، وبعدها يتمكنان من القضاء على الفقر والعوز، فلا تعود هناك مجاعة قد تقضي على مئات الملايين مع بداية القرن الحادي والعشرين...

يدّعي العلماء، أنه لو وفرنا الغذاء اللازم والصحي، والعناية الطبية،

والبيئة النظيفة، فقد يرتفع معدل عمر الإنسان إلى مايتين وخمسين سنة أو ثلاثماية... ولكن لست أدري ما الغاية من إطالة عمر الإنسان إلى هذا المدى؟ ولست أدري ماذا كان فعل بوذا، أكثر مما فعل، لو عاش مايتي عام، وكذلك ألبرت أينشتاين وبرتراند راسل؟

لو صحّ ما يدّعيه العلماء، فعليهم إعداد العدة لاستقبال مئات ملايين الحديثي الولادة شهرياً، وتأمين منتجعات الراحة لمئات ملايين الذين سيتقاعدون ويصبحون بلا عمل، أو عليهم فرض رقابة مشددة على ضرورة التقيد بأحكام قوانين تحديد النسل، وهكذا لا تنجب طفلاً إلا بعد موت برتراند راسل أو آخر، وإلا سنكون مضطرين لإجبار أحدهم على الرحيل عن هذا العالم، لأن طفلاً ولد وسيحل محله.

هذا ناهيك، أننا نقرأ هذه الأيام عن برامج إحداث تغيير في جينية الإنسان، بحيث يولد وفق ما يريد الأهل ويتمنون، إن أرادوا رساماً مثل بيكاسو، فسيكون لهم ذلك، وإن أرادوا شاعراً مثل طاغور سيكون مولودهم طاغور آخر... وماذا لو أفلت الزمام من يد البشر، فماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث لو سمح لذكر واحد أن يقترن بما يشاء من نساء، فكم طفلاً سينجب خلال سنة واحدة؟ الواقع، التناقض بين النظرتين إلى الحياة، جعل الحياة معقدة، وقلائل هم الذين يسعون جاهدين لإزالة العقد وتسهيل حياة البشرية.ماذا يعني سماع موسيقى صاخبة؟ أيعقل أن يكون الضجيج مصدراً للراحة؟

وقلت أيضاً: «في حين أن الصمت والصفاء الداخلي، يقترنان أوتوماتيكياً بالملل والتراكم المفرط للطاقة الذي يؤدي إلى الإحساس بالتوتر والقلق». لو كانت الأشياء تبقى على ما هي، فأنت محق في ما

تقول لكنك تستهلك قسماً من الطاقة المختزنة لديك، لتتاول الطعام وللتنفس ولشرب الماء وللذهاب إلى مركز العمل والعودة منه، وإلا لكنت محقاً بأن تراكماً مفرطاً للطاقة سيكون، وسيتسبب بالتوتر والقلق... ولكن أرجوك أن تفهمني جيداً، أنت نصفان: نصف خارجي، ونصف داخلي.

على مستوى العالم الخارجي، فاستعمل مخزونك من الطاقة في الخلق والإبداع، وليس لعب كرة القدم، أو الملاكمة، والأبشع من الإثنين في المصارعة الحرة، هناك مجالات كثيرة، بمقدورك الإبداع فيها، كما أن هناك أشياء كثيرة بحاجة للاستكشاف... ها هو العالم الرحب أمامك، إنه يتحداك لتكتشف ما لم يكتشف بعد... استعمل ما لديك من طاقة، لجعل هذا العالم أكثر جمالاً، أكثر نقاء، أكثر سلامة وأمناً، وأكثر شاعرية.

وحين تشعر، بأنك منهك القوى، وأن التعب قد بدأ يأخذ منك، تحوّل إل الداخل... استرح، فسرعان ما ستتحول استراحتك إلى تأمل، لأن التأمل لا يتطلب جهداً، ولا يتطلب كميات من الطاقة، علي العكس، إنه يحافظ عليها، نقية صافية. وحين تشعر أثناء وجودك صامتاً، تعيش حالة صفاء ذهني، حين تشعر أنك بحاجة للرقص، فانهض وارقص. هكذا تكون، تتفاعل مع نصفيك الداخلي والخارجي... غنِّ ثم ارقص، ثم أبدع، وإن جاء إبداعك نتيجة لصمتك وصفاء ذهنك، فسيكون إبداعاً مميزاً، سيكون له نكهة خاصة.

إنها مسألة تتطلب القليل من الذكاء والتوازن. في الداخل، مخزن الطاقة، والعالم في الخارج ينتظر إبداع الطاقة. فلماذا لا تكن مبدعاً؟

لن تكون مبدعاً، إلا إذا كنت متأملاً... عليك معرفة هذه الحقيقة. الكهنوت عندي، يختلف جداً عن الكهنوت القديم الذي يدعو إلى تجاهل

الجسد ـ العالم الخارجي للإنسان ـ وتعذيبه. أما الكهنوت عندي، فيدعو إلى التمتع بالحياة، التمتع بكل لحظة من لحظات الحياة، إنما قبل التمتع، عليك أن تكون قد اختزنت من الطاقة، ما يكفي لمشاركة الآخرين فيها، كي تكون محباً وحساسا ومبدعاً وشاعرياً ومغنياً وراقصاً.

ولا شك أن كل هذه هي من صفات التسامح والعطاء، هي ضد العنف والإساءة لأي كان... أنا لا أتصور متأملاً يلعب كرة قدم، أو يلاكم أو يصارع، بل أتصوره ـ كما أتصور بوذا والمسيح ـ يبني منزلاً محاطاً بالحدائق الغنّاء، أتصوره رساماً، أهم بكثير من بيكاسو... بيكاسو ليس رساماً شاعرياً... إن لوحاته هي بنات كوابيس أحلامه. أتصوره كاتباً مثله مثل جبران خليل جبران، وفي كتابه النبي خاصة، أتصوره شاعراً مثله مثل طاغور.

هناك أمثلة كثيرة في التاريخ، على إبداع المتأملين، على إبداع الذات الداخلية، والمثل الأبرز ـ من وجهة نظري ـ هو «تاج محل»... أنظر إليه في ليلة مقمرة، وفجأة ستجد نفسك غارقاً في الصمت، مندهشاً متعجباً، بما ترى، مأخوذاً بجمال المنظر، وهكذا يصبح تاج محل جزءاً من عالمك الخارجي الذي يغذي ذاتك وروحك ـ عالمك الداخلي ـ رخام تاج محل جيء به من جبل بور.

عشت في جبل بور ما يقارب العشرين عاماً، وما أحسست يوماً بالسأم والملل، يكفي النظر إلى صخورها المرمرية، إلى نهرها المنساب بين تلك الصخور، حتى تتعرف إلى إبداع الخالق، وحتى تتأكد ألا شيء ثابت، والكل يتغير وفي تحول دائم. دعوت أستاذي في الجامعة لزيارتي في جبل بور، لكنه رفض متذرعاً أنه زار أمكنة عدة في العالم، ولا يعتقد

أنه سيجد في جبل بور جديداً، وكان كلما يرفض، كلما ألحيت عليه لقبول دعوتي حتى أذعن أخيراً وجاء معي إلى جبل بور، فأخذته فوراً إلى تلك الصخور الرخامية ـ المرمرية، حيث نهر صغير يمر بينها. وقف أستاذي وقال: لكم كنت مخطئاً؟

وسألته بخبث: مخطئاً؟ بماذا؟

فقال، وهو يتنهد: لأني لم آتِ معك من قبل.

في القارب المطاطي، كان دائم التساؤل، أهي صخور حقيقية أم أنك تخدعني، فاقتربت بالقارب منها وجعلته يلمسها بيده ليتأكد من أنها حقيقية، فإذا به يقول: «يا إلهي، لو مت قبل المجيء إلى هنا، لكانت حياتي ذهبت سدى».

التفت إلي وقال: أرجول أقرصني...

ولماذا تريدني أن أفعل ذلك؟

كي أتأكد أني بوعيي الكامل ولست أحلم... هذا ما قاله.

هناك في الشرق إبداعات كثيرة أبدعها بشر متأملون وصوفيون.

قف أمام أي أثر من آثار هؤلاء، فستجد أن ما كان يستحيل عليك فعله ـ وقف التفكير ـ قد حصل دون جهد منك. الجمال منعك من التفكير وجذبك إليه، وفي الوقت ذاته، إنه يدعوك، لتكون مبدعاً.

يوم يعرف الإنسان كيف يزاوج بين الأمرين: التأمل والعلوم، سيدخل في مرحلة جديدة من حياته، مرحلة الجمال المطلق، العطاء المطلق،

الإبداع المطلق، وبعدها لن يكون مرض ولا مرضى.

هل الهند هي بلاد بوذا الطبيعية

في الهند يبدو التأمل، وكأنه شيء طبيعي. يأتي تلقائياً دون بذل أي جهد... فهل هناك ما يشبه طبيعة بوذا؟

الهند ليست مجرد جغرافيا أو تاريخ، إنها ليست أمة، ولا وطناً، ولا مساحة أرضية... إنها غير ذلك كلياً، إنها استعارات بلاغية. الهند قصيدة لم تنظم بعد، إنها شيء غير مرئي لكنه واقعي وحقيقة. إنها مصدر ذبذبات طاقة، ما عرفتها بلاد أخرى.

منذ عشرة آلاف سنة، توصل عشرات آلاف الهنود إلى اكتشاف الوعي، وما تزال نبضات قلوبهم حية حتى اليوم. ما تزال ذبذبات طاقتهم تنتشر في الهواء... أنت بحاجة لقدرة إروائية، لحدة ملاحظة، كي تتعرف إلى الهند، إلى تلك البلاد العجيبة الغريبة.

إنها عجيبة غريبة، لأنها تجاهلت كل شيء، من أجل شيء واحد: البحث عن الحقيقة، وبالرغم من هذا، ما أنجبت الهند فيلسوفاً واحداً. قد تندهش، إذا عرفت أن الهند لم تنجب فيلسوفاً، مثل أفلاطون، أو أرسطوطاليس، أو القديس توما الإكويتي أو برتراند راسل. لكنها ما زالت تبحث عن الحقيقة.

في الواقع، مفهوم البحث عن الحقيقة عند الهنود يختلف جذرياً عما

هو متعارف عليه في البلدان الأخرى.

في البلدان الأخرى، البحث عن الحقيقة ـ يعني إمعان النظر في الحقيقة، في الهند لا يفعلون ذلك، إذ سواء عرفت الحقيقة أم لم تتعرف إليها، فكيف يمكنك إمعان النظر فيها؟ إنها مسألة ليست بحاجة لأحد كي يمعن النظر فيها. الفلسفة بالنسبة للإنسان، هي كالضوء للأعمى، فكيف سيمعن الأعمى النظر في الضوء. حتى ولو كان عبقرياً، لن يكون بمقدوره فعل ذلك. إنه ليس بحاجة للعبقرية بل لعينين يرى فيهما، وهكذا يتعرف إلى الضوء.

الضوء يُرى، كذلك هي الحقيقة... ونحن في الهند نقول رؤية الحقيقة darshan.

الفلسفة تعني التفكير بأمور كثيرة ـ والتفكير أشبه بالدائرة ـ إذاً الفلسفة تفكير لن يصل إلى النقطة الأساس. لذا ركز مفكرو الهند على رؤية الحقيقة.

لن تتمكن من إيجاد عالم في الهند، هذا لا يعني أن ليس في الهند، موهوبون وعباقرة... الرياضيات ولدت في الهند، لكنها لم تعرف رجلاً مثل ألبرت أينشتاين... ما من أحد في الهند اهتم بالبحث عن أي شيء غير معرفة الذات.

ومن أجل هذا الهدف ـ معرفة الذات ـ يا أيها الإنسان إعرف نفسك، أضاع ملايين الهنود عشرة آلاف سنة، مضحين بكل شيء، بالعلوم والتكنولوجيا والثراء والتطور الاقتصادي، ومن أجله أيضاً ارتضوا الفقر والمجاعة وانتشار الأوبئة.

إن أتيت إلى هنا، بعقل المتأمل، فسيكون مرحباً بك. ستجد من يتواصل معك، أما إذا أتيت كمجرد سائح، فأنت أتيت إلى المكان الخطأ. سترى آثارات كثيرة، وسهولاً شاسعة، سترى قصوراً فخمة، سترى تاج محل ومعابد كاجو راهو وسترى جبال هملايا، لكنك لن ترى الهند، ستمر على أرض الهند دون أن تلتقي بالهند. لأنك أتيت إليها، من أجل شيء، ليس هو حقيقة الهند، بل هو هيكلها العظمي، وليس روحها. إذاً ما عليك إلا أخذ الصور لذاك الهيكل المتداعي، وتعود إلى وطنك تحدث الآخرين عن الهند. وتدّعي ـ إنتبه لكلمة تدّعي ـ أنك تعرف الهند، بينما في الواقع، أنت تخدع نفسك.

في الهند حضارة روحية، لا تقدر آلات التصوير على التقاط صور لها... إنها أبعد من قدراتك المادية، إنها بحاجة لمعانقة روحك، وليس جسدك.

يمكنك أن تكون سائحاً في العديد من البلدان والمناطق ذات التاريخ العريق، مثل اليونان وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا. أما في الهند فلا يمكنك أن تكون سائحاً، ولا يمكنك مقارنتها بغيرها من البلدان... للهند عطرها الخاص، عطر الروح، وهذا ما تفتقده كل الدول والبلدان والمناطق، الهند أنجبت بوذا، وليست فرنسا. الهند أنجبت ماهاتيرا وليس بريطانيا... تلك الدول، أنجبت علماء وشعراء ورسامين مشهورين، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى صوفية الهند، إلى ذاك البريق الغامض الذي يشع من ماضيها، وما يزال يشع في حاضرها.

الصوفي، كائن بشري مختلف جداً عن غيره، إنه ليس عبقرياً بسيطاً، ولا رساماً أو شاعراً، إنه وسيلة نقل الألوهة والقداسة، إنه دعوة مفتوحة،

يمكنك تلبيتها متى شئت، لتتناول الطعام على مائدة القداس. الصوفي هو من يفتح الأبواب لتدخل البركات السماوية ونعمها إلى هذا الجو، الذي هو الهند الحقيقية. حتى تتعرف إليه، يجب أن تكون في حالة عقلية محددة تسمح لك بذلك.

مارس التأمل، وحاول أن تكون صامتاً، هكذا تكون تفسح المجال للهند أن تأتي إليك: طريقة إيجاد الحقيقة في بلد فقير تختلف عنها في بلدان أخرى. الهند فقيرة جداً، لكنها غنية جداً بتراثها الروحي الذي قد يصدمك لتجذره في التاريخ، ولتمسك جميع الهنود بهذا التراث الروحي... غرابة الهند، إنها البلد الوحيد الذي اهتم بثورة الوعي وليس بأي شيء آخر. في الهند هناك هدف واحد: كيف يتمكن الوعي الإنساني من إيصال الإنسان إلى الألوهة؟

إنه سؤال مطروح، منذ عشرة آلاف سنة... نعم منذ عشرة آلاف سنة، ليس منذ سنة فقط، حتى ولا منذ مئة سنة. إنه سؤال لا يُطرح على ألسنة قلة من المواطنين، بل على ألسنة جميع المواطنين.

إذاً، ليس مصادفة، أن كل متشوق لمعرفة الحقيقة، يتوجه إلى الهند، إلى الشرق فهو الروح والروحانية. وهذا الأمر ليس جديداً، بل هو قديم قدم الإنسان، فالوثائق تدل على أن «فيتاغوراس» قد زار الهند بحثاً عن الحقيقة، وكذلك يسوع المسيح.

ليس في الأناجيل ما يشير إلى المسيح عن الفترة العمرية بين سنه في الثالثة عشر والثلاثين... إنها سبعة عشر عاماً، لا تؤرخ لها الأناجيل... لماذا؟ لأن المسيح كان في الهند.

إنها لخديعة كبرى، ولد المسيح يهودياَ، عاش يهودياَ ومات يهودياَ. لم يكن مسيحياً، فالمسيحية لم تكن معروفة بعد، وهنا يبرز سؤال يطرح نفسه: لماذا هذا الحقد اليهودي عليه؟ لماذا عملوا لموته؟ سؤال لم نجد له جواباً، لا عند اليهود ولا عند المسيحيين... السبب هو أنه كان إنساناً يدعو إلى المحبة، كان بريئاً أكثر مما نتصور... هذه هي جريمته... جريمته أنه يتكلم بكلام ما عرفته الثقافة اليهودية... إنه لا يتكلم وحسب، بل ويتصرف بمحبة. وهذا تصرف غير مألوف عند اليهود والرومان معاً. إذاً لا بد أنه جاء بهذا من الشرق.

لو أمعنا النظر في أقواله: «قيل لكم... السن بالسن والعين بالعين، أما أنا فأقول لكم، من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر»... إنه كلام لا يمت إلى اليهودية بصلة. إنه كلام مأخوذ من تعاليم بوذا الذي كان قد توفي قبل مجيء المسيح إلى الهند بنحو من خمسماية سنة، غير أن البوذية، كانت ما تزال في ذروتها. كانت الهند كلها، ما تزال تردد أقوال بوذا التي تدعو إلى التسامح والعطاء، إلى الحب... ولهذا نرى المسيح يردد دائماً على مسمع سامعيه «قيل لكم..». والمقصود هنا، أن أنبياءكم قالوا لكم... ولا شك أنه يعني أنبياء اليهود، أمثال حزقيال وموسى ويوشع الذين كانوا ينقلون كلاماً عن لسان الله. أي أنهم كانوا يقوّلون الله ما يرغبون بإسماعه لرعاع الشعب. إله اليهود هو إله الحقد والكراهية والعنف، إنه الإله الذي لا يرحم، الإله الشديد الغضب الذي يعتبر من ليس معه هو ضده. هذا هو إلههم.

أما المسيح فيقول: «الله محبة». من أين أتى بهذا التعبير «الله محبة»... إنه تعبير ما عرفته الديانة اليهودية ولا الحضارة الرومانية، إنه تعبير بوذي.

سبعة عشر عاماً وهو يتنقل بين مصر والهند وجبال التبت. هذه هي جريمته، جاء بأفكار جديدة ليزرعها في عقول الشعب اليهودي، وقد يستغرب البعض، مما سأقول، المسيح لم يصلب، ولم يقم من بين الأموات، المسيح عاد إلى الهند وعاش إلى ما فوق المائة سنة وقبره ما يزال حتى اليوم في كشمير ومكتوب عليه ـ نشاهده، باللغة العبرية ـ يشوع أي المسيح . نعم عاش المسيح هناك مع تلاميذه بصمت، حتى أن المدينة التي عاش فيها سميت باسم «مدينة الراعي الصالح»، ياهالفام بالهندية وتعني مدينة الراعي الصالح.

جاء إلى هنا، فتعرف إلى لذة الحياة، وأحب المكان لذا أراد أن يموت هنا أيضاً... هنا تعرف إلى جمال الحياة، وجمال الموت أيضاً.

فقط في الهند يتعرف الناس إلى فن الموت كما إلى فن العيش. والأكثر غرابة، أن موسى أيضاً جاء إلى الهند، لا ليعيش فيها بل ليموت فيها... هذا سر من أسرار جذب بلاد بوذا للمتنورين والراغبين في الاحتفاء بالله والحياة.

نعم إنها بلاد فقيرة مادياً، لكنها غنية بتراثها الروحي، إنها مكان التقاء الأرض بالسماء.

---

[1] ادوارد غيبون (1727 – 1794): مؤرخ إنكليزي ذائع الصيت، أهم إنجازاته – تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها – الواقع في ثلاثين مجلداً، ما يزال حتى اليوم أهم المراجع – المترجم.

[2] فنسنت فان غوغ (1853 – 1890): يعتبر أشهر رسام إيرلندي بعد رابوانت وأبرز ممثلي المدرسة الانطباعية – قطع أذنه وقدمها هدية لفتاة أحبها – المترجم-

Table of Contents

عنوان الكتاب
صفحة الحقوق
المقدمة
الفصل الأول: فن الحياة
الفصل الثاني: عن الحب
الفصل الثالث: عن العلاقات
الفصل الرابع: عن التوتر والاسترخاء
الفصل الخامس: عن الأنا
الفصل السادس: حول التأمل
الفصل السابع: عن الصواب والخطأ
الفصل الثامن: عن الحرية والمسؤولية والالتزام
الفصل التاسع: الإبداع
الفصل العاشر: عن الضحك والفرح
الفصل الحادي عشر: عن الشرق والغرب